توفيق الفكيكي

الراعي والرعية

"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"

(حديث شريف)

[المثل الأعلى] للحكم الديمقراطي في الاسلام

شرح عهد الامام علي عليه السلام

الموجه

الى مالك الاشتر حين ولاه مصر

الجزء الاول

١٩٣٩

١٣٥٨

مطبعة الغري

النجف

تشرف توفيق الفكيكي باهداء كتابه هذا لسماحة الامام المصلح والفقيه الاعظم العلامة السيد ابو الحسن دامت بركاته
المؤلف
٢٩/١٠/٢١

توفيق الفكيكي

الراعي والرعية

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»
(حديث شريف)

[المثل الاعلى] للحكم الديمقراطي في الاسلام

شرح عهد الامام علي عليه السلام

الموجه

الى مالك الاشتر حين ولاه مصر



الجزء الاول

١٩٣٩
١٣٥٨

مطبعة الغري
النجف

الأهداء

الى : أزكى فروع الأرومة الهاشمية . وأكرم نبعة فى مغرس الدوحة المحمدية المختار من صفوة المعادن والجواهر . والمنتخب من أشرف الأمم والعناصر .

حضرة مولانا صاحب الجلالة الملك (فيصل الثانى) صاحب العرش المفدى .

مولاى : أرفع الى عتبة جلالتكم كتاب شرح (عهد) جدكم الوصى أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) فى عهد الوصى على عرشكم الغالى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الاله سليل السادة الهاليل .

فاذا أسعدنى الجد بوقوعه عند مولاى موقع القبول فذلك هو المنى والمأمول أدام الله لك يا مولاى سوابغ نعمه . وعظائم آلائه ووصل ماضيها بمستقبلها . وتليدها بطريفها ورعاك الله يا صاحب التاج بعنايته وشد أزرك بقوته وصان عرشك المفدى بتوفيقه . على مر العصور وكر الدهور . . . . . آمين . ؟

المتقرب بحبكم إلى الله

توفيق الفكيكي



صاحب الجلالة الملك المعظم (فيصل الثانى)

حرسه الله

العهد العلوي

بقلم العلامة الحكيم علم الأعلام وفخر المجتهدين صاحب المعالي سماحة السيد هبة الدين الحسيني .

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي القارئ الكريم ما أحلى أدب القرآن الكريم ﴿ الحق أحق أن يتبع ﴾ و (بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وما أحلى أدب النبي الكريم إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم [الحكمة ضالة المؤمن أخذها أينما وجدها] و (انظر الى ما قال ولا تنظر إلى من قال) وما أحلى حرية النفس من قيود الهوى وقيد الرذيلة وما أحلى تحلي النفس واتصافها بالانصاف أو بكل فضيلة فان هبطت اليك حكمة حسنة او كلمة طيبة فاملكها وإن مرت عليك مقالة سوء او كلمة خبيثة فاتركها قبل الفحص عن المصدر والمظهر .

ولا غرو فان القول ينم عن القائل والأثر يدلك على المؤثر وللأدب الاسلامي عينان نضاختان هما أدب النبي العربي (ص) وأدب سيدنا علي عليه السلام قد انفجر ينبوعها مع فجر الاسلام وفي عصره الأول فكما أن القرآن الكريم يثبت صحة نسبه بنفسه ويغنيك مظهره عن مصدره كذلك الأدب العلوي وخصوصاً عهده الى الأشتر النخعي بما فيه من حكمة عالية وجمل بليغة وأدب سام لتدريب الولاة في إدارة البلاد وتعليم الامراء

سياسة الرعايا وسيرة الملوك في الممالك إلى غير ذلك .

نعم — أن العهد المنوه عنه في متنه ما يكفي لصحة سنده في ملامح ظهوره أنوار صحة صدوره عن باب مدينة العلم ومصدر الحكمة والحكم أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وصلى عليه يعلم تلميذه الذي تربى بين يديه فتخرج عليه مالك الأشتر بطل العراق الأقدم وسيد الكوفة وفارسها المغوار الذي كان لعلي (ع) كما كان هذا لرسول الله (ص) وجه اليه هذا العهد عند ما وجهه الى إمارة مصر العزيزة وأوصاه بأهلها خيراً وزوده بهذه التعاليم التي يجب ان تكتب بالتبر على الصفائح الخالدة لا بالحبر على الصحائف البائدة إذ هي دستور معالم الحكم والآداب وقواعد السياسة في المدن واصول الادارة في البلاد وخير سيرة [لامارة الراعي ورعاية الرعية] .

وجوه تأييد العهد

ومما يؤيد هذا العهد العلوي وصدوره من يراعة علي عليه السلام .

١ — أن الخبراء البلغاء لو تأملوا في نسج هذا العهد العلوي ومواده حكموا مبدئياً على أن الناسج لبردته لابد وان يكون ممن قضى شطراً من عمره في سياسة الأمم وإدارة المدن وهو في عين الزمان من بلغاء العرب الافذاذ ومن العلماء في فنون الحكمة والدين معاً أي ان المنشئ لهذا العهد أميرعربي . اديب قضائي . فقيه . فلسفي . سياسي . اداري روحاني اجتماعي . ولم يسمح الدهر للعرب برجل جامع لهذه المزايا بعد محمد [ص] وعلي (ع) حتى ولاتدنو من ذلك نفسية الشريف الرضي ايضاً .

اللهم إلا بعض النوابغ الأفذاذ الذين حذوا حذو علي [ع] فاقترب الشبه بينهم وبينه في بعض الكيف لا في الكم . وعليه فلا يسعنا اسناد هذا العهد إلا الى علي ولو لم يسند اليه فكيف وقد اسند اليه .

ب — ويلي الوجه المذكور وضوحاً وايضاحاً وجه ثان ينير بضوئه صحة إسناد هذا العهد وهو أن المتأمل في انشائه لا يشك في اسناده الى أديب خطيب علامة نابغة عبقري من أبناء الجيل الأول الاسلامي فان صريح العبارة في عروبة خالصة وقد ذابت هذه العروبة في القرن الثاني وما بعده ذوبان السكر في الماء بعد امتزاج الأمة العربية بالأمم الأعجمية فهذا طاهر بن الحسين في عهده المشهور وذاك الشريف الرضي في كتابه « حقايق التأويل » وذيّاك الحريري في مقاماته و . ولا يشبه شيء من انشائهم عروبة هذا العهد العلوي الخالص ولا أسلوبه الراقي في الانشاء ولا يشبه انشاؤه إلا انشاء علي عليه السلام في خطبه وكتبه .

ج — وهنا نقطة ثالثة بارزة متلألأة هي أن الامام علياً كغيره من أفذاذ البلغاء ينفرد بكلم وجمل يستعملهن في انشائه اكثر من غيره تلمع في نظر المتتبع المتوسع في أدب الامام .

فأمثال هذه الكلم المخصوص به كلما تلألأت دل على أن الكلام منه .

وجوه الدفاع عن العهد

إنني لا أعلم انسانا تذوق بالحكمة النظرية ثم ارتوى من زلال الحكمة العلمية واخص منها سياسة المدن وإدارة شئون الأمم الا وجد في نفسه من تلاوة هذا العهد العلوي وجداً وطرباً يبلغين أقصى الحد وعلى اثر هذا

الوجد والطرب ربما كان اهتمامه البليغ في البحث والتنقيب عن أصله ومصدره ولعل هذا الاهتمام وذاك الطرب بعثا بعض أهل العلم الى اثارة شكوك حول هذا العهد العلوي فان الشك في طريق العلم يفضي الى كشف الحقيقة غالباً .

اما الشاكون فلا يشكون في جواز صدور هذه الكلم والحكم وأسرار سياسة المدن والأمم من شخص كالامام علي عليه السلام ورث علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ تخرج عليه وشحذت فكرته الحادثات وصقلت قريحته الطوارق والمصائب وحنكته التجارب فلا يستكثر مثل هذا العهد على مثل علي (ع) وهو هو . . .

ألا ان مثار الشك في هذا العهد أمور : —

الاعتراض الأول

طوله واسهابه .

والجواب عنه أن الطول أو بالأحرى زيادة الحجم مدعاة للشك في الخطب التي تحفظ ظهر الغيب لا في الكتب التي ضبطتها الأقلام في بطون الصحائف منذ انشأتها القرائح وسبيل هذا العهد سبيل الكتب العلمية التي ترسلها الأساتذة الى التلامذة فتبقى لديهم مصونة مكنونة . فهذا العهد لا يقل عن عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله المحفوظ في الكتب .

الاعتراض الثاني

إن المؤرخين ﴿ كابن جرير الطبري ﴾ أوردوا في حوادث سنة ٢٠٦

عهداً مطولاً لطاهر بن الحسين يشبه عهد الامام الى مالك فلم يوردوا هذا العهد العلوي . فلو كان ثابتاً لذكروه .

والجواب عنه :

إن المعترض لو ادعى ان عهد الامام يشبه عهد طاهر بن الحسين في أصوله وفصوله فهذا وهم واضح يعرف بالمقابلة فلا اتفاق بين العهدين في المعاني ولا في الألفاظ والمباني . وان أراد المعترض من ذكره لعهد طاهر بن الحسين انه يشبه عهد الامام في طوله لا في أصوله وفصوله ومع التشابه في الطول أورده الطبري فلم لم يذكر عهد الامام ؟

فالجواب ان الفعل مجمل والترك مبهم فلا يستند الى مثلهما أهل العلم ولعل الطبري ظفر بواحد ولم يظفر بالآخر وكم ترك الأول للآخر . كما أن الشريف الرضي انفرد بروايته تأبين الامام لعمر ولم يذكره أحد قبله . أو أن الطبري ظفر به ولم يسعه النقل .

وربما الامام قد عهد الى معتمده الأشتر عهدين مكشوفاً موجزاً وسرياً مطولاً . وبما أن المطول الذي نجادل حوله مجموعة نواميس من أسرار أو علم الاجتماع مضنون به عن غير أهله فبطبع الحال كتمه مالك وهو كاتم سر الامام وكتمه من صار اليه هذا السر المصون والدر المكنون ولم يفش هذا السر سوى الشريف الرضي أو ربما ورد هذا العهد المطول في كتاب طواه الزمان وأدخله في خبر كان ظفر به الشريف الرضي ولم يظفر به غيره وكم لهذا الأمر من نظير .

أفهل يصح ان نكذب ما في صحاح الأواخر لمجرد انه ليس في

كتب الأوائل . ؟

أو هل أحاط علمنا بجميع ما دوّنه ابناء القرون الأولى وقد غاب عن اكثرنا اكثر كتبهم ؟ فلدي نشرة من علماء الافرنج يعددون فيها مآت من كتب التأريخ المدونة في القرنين الثاني والثالث وليس منها في المعمورة عين ولا أثر .

فلعل العهد العلوي كان في بعض هاتيك الكتب ظفر بها الرضي وقصرت عنه يد غيره كما يصادف مثله كثيرون .

ثم لو تمت هذه الشبهة لجرت على كل مأثور بعد القرن الثالث وكل من تفرد بحديث فقهي قيل له لو صح حديثك لرواه البخاري ومسلم .

وكل من تفرّد بخبر عن الأوائل قيل له لو صح خبرك لرواه الطبري والمسعودي وهذا كما تراه يسد علينا باب العلم بمصراعيه .

الاعتراض الثالث

إن الامام قد أرسل مالكاً برسالة معه إلى مصر وهذا عهد منه مشهور ومأثور في كتب التاريخ والحديث . ثم من عظيم اعتماده على الأشتر قال له : —

« إن لم اوصك فاعمل برأيك » فهل بقيت حاجة ماسة الى عهد ثان مطول كهذا يرسله اليه !

والجواب عنه ان الرسالة الموجزة المأثورة هي أشبه بالعهود المشهورة وقد سبق كثير من أمثالها من علي عليه السلام ومن غيره الى غير مالك ايضاً إلا ان العهد المطول الذى نحن بصدد تأييده انما هو كتاب جامع

لنواميس أخلاقية اجتماعية ولأصول السياسة والادارة وآداب الامرة والعشرة خص بها علي عليه السلام معتمده السامي كدستور سري يزوده به فيجب أن يصان نيصان من غير أهله فبطبع الحال تظفر أيدي المؤرخين بالعهد الموجز المكشوف وتقصر عن الظفر بالعهد المطول المصون كما فصلنا القول عنه قريباً .

أما شدة اعتماده عليه في قوله « إن لم أوصك فاعمل برأيك » فغير مناف لارسال الوصايا تلو الوصايا بعد هذا القول .

الاهتمام بالعهد وشروطه

لقد عظم اهتمام المجمع العلمي أو بالأحرى الوسط الأدبي بالعهد المعهود من أمير المؤمنين علي عليه السلام وحق لهم أن يعظموه ويعجبوا به وبما احتواه اعجاباً قل ما اتفق مثله لغيره فتداولته الأيدي وتناولته الاقلام وشرحته اولو العلم الأعلام وأوصت به الملوك امراء جيشها وحكامها ، ثم ناهيك في عظمة العهد المعهود اهتمام العالم الاوربى ايضاً بشأنه فوق اهتمام الأوساط الشرقية به والاستفادة منه . ومن ناظم نظمه ومن مترجم ترجمه وكاتب نسخه ومن عالم شرحه ومن أديب استظهره وليس البحاثة الفاضل والحقوقي البارع « السيد توفيق الفكيكي » بأول شارح أماط القناع عن وجوه معانيه والاهتمام بما فيه فقد تقدم عليه شراح في القرون الماضية لا يحصى عديدهم إلا أنه وإن تأخر عليهم عهداً فقد تقدم عليهم جميعاً في حسن شرحه لهذا العهد العلوى واستيفاء حقه من النواحي الحقوقية والتوفيق بينه وبين قوانين الدول وحقوق الملل في هذه الفصول فصلاً فصلاً وجملة

جملة وذلك في هذا الكتاب .

الراعي والرعية

الذى أقدمه اليك أيها القارىء الكريم وأدعوك إلى تلاوته بامعان وتدقيق والاستناد الى حقائقه الحقيقة بالتصديق ، وحق لمؤلفه المحقق أن يقول :

[فاني وإن كنت الاخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الأوائل]

وها أني اشير الى ما أخذه هذا العهد العلوي من الدور المهم في اندية الأمم في شروحه العديدة التي منها :

١ — شرح العلامة المصلح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ الموسوم ﴿ مقتبس السياسة ﴾ المطبوع في حياته في سنة ١٣١٧ .

٢ — شرح السيد الماجد البحراني المتوفى بعد سنة ١٠٩٧ وسماه ﴿ التحفة السليمانية ﴾ في ستين فصلا طبع في طهران .

٣ — شرح المولى محمد صالح الروغني القزويني من علماء القرن الحادي عشر .

٤ — ترجمة الوقاري الوصال الشاعر الشيرازي المتوفى سنة ١٢٧٤ نظمه بالفارسية .

٥ — شرح المولى محمد باقر بن محمد تقي وقد يظن انه المجلسي المتوفى سنة (١١١١) .

٦ — شرح سلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤ الموسوم بـ (أساس السياسة في تأسيس الرياسة) .

٧ — شرح العلامة الهادي البيرجندي المطبوع في حياته سنة ١٣٥٥ مترجماً للأصل الى الفارسية ومطبوع معه ترجمته للأدب الكبير تأليف ابن المقفع .

٨ — شرح الحسين الهمداني الموسوم بـ [هدية الحسام لهداية الحكام]

٩ — شرح الفاضل بدايع نگار الثبوت فى المآثر والآثار .

١٠ — ترجمة الفاضل محمد جلال الدين بهذا العهد الشريف الى اللغة التركية منظوماً نظماً لطيفاً .

وأفاض جماعة كالفاضل ضياء الدين بن يوسف ﴿ وأدوار فانديك ﴾ الامريكاني فى أسماء الشروح والتراجم لهذا العهد العلوي القيم الأمر الذي دل اهتمام ساسة الأمم وأفاضل الحكماء بفصوله القيمة أما شرح الاستاذ البارع ﴿ توفيق الفكيكي ﴾ المنوه عنه ﴿ الراعي والرعية ﴾ فقد فاق الشروح طراً في إحاطته والمامه ، وبلاغة اللفظ وانسجامه ، وجودة اسلوبه ونظامه ، فاستحق من غزارة معانيه الرائقة الراقية ان يدرس كانفع كتاب حقوقي فى المدارس العالية نفعنا الله به وبآثاره النافعة ومتعنا بثمار مجهوداته اليانعة انه سميع مجيب ؟

هبة الدين الحسيني

نهج البلاغة، عهد علي «ع» لمالك الاشتر، شارح العهد(١)

بقلم : العلامة الكبير حجة الاسلام
الشيخ هادي آل كاشف الغطاء

١ — نهج البلاغة

اما نهج البلاغة أوما اختاره السيد الشريف الرضي (رض) من كلام مولانا امير المؤمنين وامام الموحدين باب مدينة العلم علي «ع» فهو من أعظم الكتب الاسلامية شأنا وأرفعها قدرا وأجمها محاسن وأعلاها منازل نور لمن استضاء به . ونجاة لمن تمسك بعراه . وبرهان لمن اعتمده . ولب لمن تدبره . أقواله فصل . وأحكامه عدل . حاجة العالم والمتعلم . وبغية الراغب والزاهد . وبلغة السائس والمسوس . ومنية المحارب والمسالم . والجندي والقائد . وفيه من الكلام في التوحيد والعدل ومكارم الشيم ومحاسن الأخلاق والترغيب والترهيب والوعظ والتحذير . وحقوق (الراعي والرعية) . وأصول المدنية الحقه . ما ينقع الغلة . ويزيل العلة . لم تعرف المباحث الكلامية إلا منه . ولم تكن عيالا إلا عليه فهو قدوة فطاحلها . وإمام

(١) العلامة الكبير الشيخ هادي كاشف الغطاء ممن صرف الجهود الكبيرة في درس نهج البلاغة وتاريخه . وقد خرج له حديثا من الطبع كتاب مستدرك نهج البلاغة وكتاب مدارك نهج البلاغة . وبهذه المناسبة طلبنا منه ان يقول كلمته في الكتاب وتفضل علينا بكلمته هذه التي ننشرها شاكرين .

— المؤلف —

أفاضلها . وانه لما تفخر به الأمة الاسلامية . وتتمجد به الشعوب العربية ولو قلت انه من اكبر الآيات على الدين الاسلامي لما قلت شططا . ولا نطقت غلطا .

٢ — واما عهده الى مالك

فهو نسيج وحده لم يسبق الى مثله سابق ولم يلحق غباره لاحق وقد تعلم منه الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة وهو حقيق بمثله ان يقتنى في خزائن الملوك . قال الفاضل ابن ابي الحديد ص ٢٨ ج ٢ ان الاليق ان يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه ويعنى به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد علي « ع » الى الاشتر . وقد رواه اثقات من العلماء المتقدمين على السيد الرضي ومنهم الشيخ الجليل صاحب كتاب تحف العقول المتوفى سنة ٣٣٢ وقد ذكر بعض اهل العصر ان عهد الاشتر وعهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله يجريان في سبيل واحد اسلوبا وغرضا وروحا ولكن الاديب المتبصر يرى الفرق واضحا جليا وكيف تقاس الثريا بالثرى والشهب بالحصا ونحن لا نستبعد ان اكثر كتاب العهود كانوا يقرؤن عهود أمير المؤمنين ويجعلونها قدوة واماما فينسجون على منوالها ويطبعون على غرارها .

٣ — واما شارح العهد

فهو الفاضل الشهير والبارع القدير صاحب المؤلفات القيمة قد تصدى لشرحه وايضاح غامضه ودل على مواضع القوة المنطقية فيه وقايس واستنتج

منه القوانين العامة التي هي آخر ما توصل اليه العقل البشري في القضاء والادارة فكان لمولانا امير المؤمنين (ع) هو السبق في الابداع والاختراع ومن ينبوع علمه الفياض تفجرت تلك الانظمة وارتشفت نواميس العدل ودساتير طمأنينة الاجتماع واني لارجو ان يكون هذا الشرح حافلا بالفرائد محشواً بالفوائد يجلو لنا مجدا اسلاميا رفيعا ويستعرض للامة العربية صفحة من تاريخها الادبي الذي نباهي به شعوب الارض التي تحت السماء لما نعرفه لمؤلفه من سعة الاطلاع والبراعة والمهارة في ميادين الادب والثقافة فجزى الله مؤلفه خيرا ووفقه لاتباع هذا العمل باقرانه انه سميع مجيب .

الهادي آل كاشف الغطاء

تصدير الكتاب

حقوق

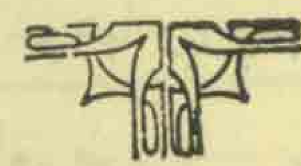
﴿ الراعي والرعية ﴾

من خطبة لأمير المؤمنين الامام علي عليه السلام

﴿ أما بعد : فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم علي من الحق مثل الذي عليكم . فالحق أوسع الأشياء في التواصف . وأضيقها في التناصف ، لا يجري لأحد إلا جرى عليه ، ولا يجري عليه إلا جرى له ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله . ﴾

﴿ ثم جعل — سبحانه — من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض وأعظم ما افترض — سبحانه — من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية ، وحق الرعية على الوالي ، فريضة فرضها الله — سبحانه — لكل على كل ، فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا يصلح الولاة إلا باستقامة الرعية ، فاذا أدت الرعية الى الوالي حقه وأدى الوالي اليها حقها ، عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل . وجرت

على أذلالها السنن (١) فصلح بذلك الزمان ، وطمع بذلك بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء . وإذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور وكثر الادغال في الدين (٢) وتركت محاج السنن فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس . فلا يستوحش لعظيم حق عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ! ! فهنالك تذل الأبرار . وتعز الأشرار ، وتعظم تبعات الله عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وان اشتد على رضا الله حرصه ، وطال في العمل اجتهاده . ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة له ولكن من واجب حقوقه على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم ، وليس امرؤ — وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته — بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه . ولا امرؤ — وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه . ﴾



(١) ذل الطريق — بكسر الذال — محجته . والمعنى وجوهها .

(٢) الادغال في الأمر : ادخال ما يفسده فيه . ومحاج السنن اوساط طرقها .

« عن نهج البلاغة ج (٢) ص ٢٢٣ و ٢٢٤ »

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على كافة جميع الأنبياء والمرسلين نخص منهم بالذكر سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم سيد أهل العزم وخاتمهم ، وصفوة الخلق اجمعين ، وعلى السادة الغر المحجلين من العترة الطاهرة النبوية . وعلى الصحابة أصحاب الفضائل القوية والنفحات الشذية .

هذا كتاب ﴿ الراعي والرعية ﴾ نقدمه إلى القراء الفضلاء فرحين بما احتواه من ثمرات النضج العربي في ازهى العصور العربية وازدهارها وبما ضم بين دفتيه من آثار العلوم والفنون القرآنية والمعارف والحكمة المحمدية . التي تأثرت بموجات انوارها الساطعة العقلية البشرية . واستفاقت بشموسها الأجيال الانسانية من سباتها العميق . حتى تحررت مما كانت ترسف فيه من قيود الأوهام وأغلال العبودية . وقد عرف الناس أن أمهاتهم قد ولدتهم أحراراً لا يجوز لأية سلطة مهما كانت ان تذلهم وتستعبدهم وبعد أن قرر الاسلام حقوق الانسان أخذ المسوس يعرف مكانه من السائس والرعية تقدر مالها وعليها تجاه الراعي .

وقد حفل هذا الكتاب ايضاً بآثار التفكير العربي الاسلامي في تدبير البلاد والممالك من أصول حكيمة وانظمة صحيحة محكمة في فنون الادارة والسياسة والقضاء وشؤون الدولة الأخرى وهي خير نتاج انتجته العبقرية

العربية ونبوغ العقلية الاسلامية في مختلف الأدوار التأريخية . وهي منقطعة النظير . عديمة المثال . وأين هي من اشتراع عصبة الأمم وتقنين (محكمة لاهاي) الدولية وسائر أمهات مدنية القرن العشرين في الغرب ان تبدع مثل ذلك الابداع الحسن في العدل والمساواة في تقرير حقوق الانسان (١)

إن أدق معيار وأهم مقياس لتقدير قيمة الحضارات أو أية مدنية من المدنيات او لوزن اخلاق الشعوب والأمم هو بلا شك ولا ريب معيار « التشريع » ونظام الحكم فهما أصدق صورة جلية يقاس عليها رقي الأمم الغابرة والحاضرة . وهذه الصورة المهمة هي ابرز الصور التي عني هذا الكتاب باجتلائها والبحث عنها بحثاً مستفيضاً ، كما يقتضيه واجب البحث والتمحيص ، ذلك ليطلع شباب أمتنا المثقف كيف كان جهاد السلف الصالح

(١) نتساءل بهذه المناسبة ممن شرع حقوق الانسان وحرم ظلم الحيوان [كما يقال] عن القانون أو الشريعة التي سوغت لبعض حكومات الغرب المعاصرة اكتساح الدول الآمنة المطمئنة بين ليلة وضحاها بلاسبق انذار والاعتداء على كرامتها وحقوقها في الحياة بالشكل الذي يأباه ضمير الوحوش الكاسرة المفترسة قبل وجدان ابن المدنية الغربية ؟ ؟ ولا ندري متى كان الطغيان والعدوان صفة من صفات الحق ؟ ؟ اللهم الا في اوربا وفي عصر الكهرباء (عصر أكل الأمم وتحطيم العروش والتيجان) كما عبر الاستاذ « الفكه فكري اباظة » .

اما الاسلام فقد حرمت شريعته السمحاء كل اعتداء على الغير خاصة المعاهد ثم أوصى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) فتأمل . . .

المؤلف

وحرصه الشديد في سبيل تقرير حقوق الانسان المستمدة من شريعة القرآن ولأجل ان يقارن بين تلك القواعد المنيفة وبين أسس التشريع الحديث التي تقوم بوضعها « عصابة التقنين » للقوانين الوضعية في الحواضر الغربية

إن الغرض الأول من تأليف هذا الكتاب هو شرح (عهد) الامام علي « ع » الذي كتبه الى عامله [مالك الأشتر] رضي الله عنه حين ولاه اعمال مصر العزيزة سنة ٣٩ هجرية وهي السنة التي مات فيها النخعي رحمه الله سمّاً كما سيطلع القارئ على تفصيل ذلك في ترجمته ، وهذا العهد من أهم العهود التي قطعها خلفاء المسلمين وملوكهم الى عمالهم وولاتهم في تدبير شؤون المملكة الاسلامية .

والحق يقال إن القواعد التشريعية السياسية والادارية والقضائية والمالية والنظريات الدستورية التي قررها الامام كرم الله وجهه في عهد مالك النخعي تعد « مثلاً عالياً » للحكم الديمقراطي في الاسلام اذا قيست بنظم الحكم اليوم من ديمقراطية ودكتاتورية وبأحدث النظريات القانونية السائدة اليوم في العالم المتمدين وسيقف القارئ الفاضل على ذلك عند سبره هذا الكتاب بالدقة والاستقصاء . ومما يدلك على أهمية هذا اهتمام الجحاجح من ذوي العقول الراجحة والبصائر النيرة في ترجمته الى شتى اللغى وقيامهم بشرحه على قدر ما امتدت اليه أفهامهم وافكارهم وهم من طبقات مختلفة واجناس متباينة . فقد اشتغل به من كبار علماء الادارة والسياسة وعظماء الفلاسفة الأخلاقيين . وجهابذة رجال التشريع والقضاء وأساطين علم الحقوق الدستورية والمالية والاقتصاد وهواة الفنون العسكرية

من مشاهير القادة وأمراء الجيوش في الشرق والغرب . كما ترى من
من أسماء كتب الشرح والترجمة لأعلام الشارحين والمترجمين . في آخر
كلمة العلامة الحكيم « السيد هبة الدين » الحسيني أدامه الله لرعاية العلم
وأهله . والمنشورة في صدر هذا الكتاب .

لهذا لا أستطيع أن أدعي بأني أتيت بشرحه بما لم تستطعه الأوائل
بل اعترف بلسان العاجز الواني بأني لم اتوصل الى ادراك اكثر
أسراره الفلسفية وعجائبه البيانية وغرائبه الفنية . ولكن مالا يدرك كله
لا يترك جله . على أني اعتقد أني قمت ببعض الواجب لاحياء بعض
التراث العربي الخالد أو المجد الاسلامي التالد . في مثل هذا اليوم الذي
كربت (١) ناشئة عصرنا ونابتة دهرنا أن تقطع كل صلة ووشيجة بينها
وبين ماضيها وأمجاد الآباء والأجداد .

وهذا مايحز النفس ويفتت الكبد . (ولا حول ولا ..) والغرض
الثاني من تأليفه هو جمع أشهر العهود العربية الاسلامية المقطوعة من لدن
الخلفاء الراشدين والملوك العظام اللامعين لعمالهم وولاتهم على الأمصار
والمماثلة لعهد الامام علي عليه السلام ولمضامين موضوعاته وتزيينه ببعض
المختارات من أقوال الفلاسفة والحكماء المناسبة لأغراض بحوثه وذلك
اتماماً للفائدة وأجدى للمتتبع والباحث .

وبعد فقد بذلت غاية الجهد في اخراج هذا المجهود وما قصدت بذلك
إلا وجه الله وخدمة المجتمع العربي الاسلامي في هذا اليوم العصيب الذي

(١) كادت

يجتاز فيه دور الانتقال من عالم الظلمات والموت إلى عالم النور والحياة
والبعث بعد الموت حق .

وعليه فان اسديت لأبناء جلدتي بعملي هذا بعض الخدمة فذلك
هو الغاية والمأمول ولا شكر على الواجب . وإن قصرت أو أخطأت
فأسأله تعالى أن يثيبني ثواب المجتهد الخاطئ وهو ذو الرحمة والافضال .

ربيع الأول سنة ١٣٥٨ — مايس سنة ١٩٣٩

توفيق الفكيكي

(أبو الحسن) الامام على عليه السلام وكرم الله وجهه

﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين ﴾
﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾

— ١ —

ولدته أمه الزكية على الصخرة المباركة في جوف الكعبة المقدسة وقد سمته ﴿ حيدرة ﴾ فكان أول عربي هاشمي احتضنته بيت الله الحرام في فجر الاسلام .

ولهذا يشير العمري (ر ح) :

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا * ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

كانت ولادته الموجة الثانية من النور المحمدي الذي انبثق وسطع لألاؤه في ارجاء الكون وغمر بأشراقه بطائح البطحاء وبطنان وهادها ونجادها سهولها ووديانها ، كان من ابن عمه فخر الوجود صلى الله عليه وآله وسلم كالضوء من الضوء (١) والذراع من العضد فكان سيد الناس ﴿ ص ﴾ المنذر

(١) مأخوذ من كلامه الشريف وذلك لأن الضوء الأول يكون علة الضوء الثاني ألا ترى أن الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس فهذا الضوء هو الضوء الاول . ثم انه يقابل وجه الارض هو الضوء الثاني ومادام الضوء الاول ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف . فاذا ازداد الجو اضاءة ازداد وجه الارض اضاءة لان المعلول يتبع العلة فشبه (ع) نفسه بالضوء الثانى وشبه رسول الله (ص) بالضوء الاول وشبه منبع الاضواء والانوار سبحانه وجلت سماؤه بالشمس التى توجب الضوء الاول ثم الضوء الاول يوجب الضوء الثانى وهكذا لايزال يوجب بعضه بعضاً على وجه الانعكاس وبطريق العلية وبشرط المقابلة .

الأعظم وحيدرة الهادي ومحك المهتدين .

لقد أعلن اسلامه وآمن برسالة التوحيد وبمبلغها صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن ست . وقد عبد الله سبع سنين قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة . فهو أول خاشع وراكع وساجد لله سبق الناس الى الهدى وآمن بالله وعبده وكل من في الأرض يعبد الحجر الذي لا يضر ولا ينفع ويجحد الخالق ولم يسبقه الى التوحيد إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم . . . .

كان اسلامه قبل اسلام الناس وصلاته قبل صلاتهم حتى قال عن نفسه عليه السلام :

﴿ أنا الصديق الاكبر والفاروق الأول ﴾ فهو إذن كما قال له سيد البشر [أنت يعسوب المؤمنين وقائد الغر المحجلين] وأشار الى هذا العمري :

وأنت يعسوب نحل المؤمنين الى * أي الجهات انتحى يلقاهم تبعا

وللأزري :

ذاك رأس الموحدين وحامي * بيضة الدين من اكف عداها
أي نفس لا تهتدي بهداه * وهو من كل صورة مقلتاها

— ٢ —

كان كريم الوجه وهو في بطن فاطمة بنت أسد . وجيهاً عند ربه قبل أن تنشأ عظامه كارهاً لآلهة قريش ما خلا الله ولما ينبض عرقه ، مهشما لها ومحطماً كبيرها وعظيمها (هبل) يوم الفتح وهو فوق اكتاف سيد البشر يردد كلمة ﴿ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴾ لقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

ما ذا أقول بمن حطت له قدم (١) في موضع وضع الرحمن يمناه

إن قلت ذا بشر فالعقل يمنعني * وأختشي الله من قولي هو (...)

لقد برّ بوالدته جنيناً فلم يطاوعها على أن تشرك بالله وكانت كلما حاولت أن تركع أو تسجد للصنم تبسط في أحشائها لئلا تعبد غير خالق السماوات والأرض فكرّم الله وجهه وطهره تطهيرا .

وكان وجيهاً عنده وسيداً وحصورا .

كان من رسول الله ﴿ ص ﴾ كروحه من جسده وقد جعله الله في كتابه كذلك فقال سبحانه تعالى ﴿ قل تعالوا ندعو أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ فهو هارون هذه الأمة ولكن لا نبي بعد أحمد ﴿ ص ﴾ إلا أن هارون أمة القرآن كان أحد الثقلين فيها بعد ذهاب رسولها الأعظم الى الرفيق الأعلى . . . .

وإذاً هو محك المؤمنين كالمحك للمعادن ، وهو الفاروق الاول يفرق فيه بين المؤمن والمنافق فما بغضه إلا منافق وما حبه إلا مؤمن . . . .

وقد قال عليه السلام :

﴿ لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا بجماتها (٢) على المنافق على أن يحبني ما أحبني ذلك انه قضى فانقضى على لسان النبي الامي صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ وأنه قال :

(١) ينسب بعض الرواة هذين البيتين للامام الشافعي (رض) والله أعلم وكان الرسول الاكرم (ص) يوم فتح مكة المكرمة قد حمل علياً (ع) على كتفه الشريف لتكسير الاصنام واقتلاع (هبل) معبود قريش العظيم .

(٢) بالفتح جمع جمة مكان يجتمع فيه الماء .

[يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق] .

— ٣ —

صحب سيد الرسل وهو ابن خمس يروح معه ويغدو وكان يتبعه اتباع الفصيل لأمه . وقد شاركه في حركاته وسكناته ، وأطاعه في أوامره ونواهيه وأخلص له فى السر والعلن ، وتأدب بأدبه وتربى بحجره وترعرع بين برده حتى رضعت شجرته من ثدي الرسالة ، وتهدلت أغصانه من نبعة الامامة ، فنشأ كما شاء النبي المختار فى أخلاقه وسيرته فكان خير نتاج أنتجته مدرسة محمد « ص » وأعلى مثال للانسان الكامل فى أسعد عصور البشرية وإلى الأبدية . . . . وإلى ما شاء الله .

أجل كان من أنبغ تلاميذ المصطفى [ص] وقد ورث علمه وحكمته وأسرار فرقانه وقد رأى وبصر وسمع من الآيات الباهرة والمعجزات الكبرى والأسرار العجيبة والشاهد الغريبة التي حدثت على يد صاحب الرسالة الكونية مالم يكن لغيره كل ذلك بقلب ثابت وإيمان راسخ ونفس مطمئنة جيّاشة بالمعرفة معمورة بنور اليقين .

لهذا لو كشف لصاحبها الغطاء ما ازداد يقينا فى معرفة رب الأرباب لأنه عرفه حق المعرفة منذ نشأ فى حجر سيد الناس [ص] .

نام فى فراش النبوة وقريش تتألب للفتك باستاذه وسيده ومربيه [ص] قبل أن يفلت من طغاتها وشراك مكائدها وأن يفر من أحبولة مكرها ومؤامراتها .

نام فى فراشه كالليث الهصور فى عرينه لا يبالي بالموت أوقع عليه

أم وقع هو على الموت وهو لم يفزع ولم يرعه ما حشدته قريش فى باب الدار من قرومها وفوارسها وشجعانها .

خلفه ليلة الهجرة فى مكة لأداء الأمانات إلى أهلها وخلفه بعد الهجرة على المدينة فى غزوة تبوك فكان منه بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعد أحمد « ص » . وهو أخوه فى الدنيا والآخرة .

ففدى نفس أحمد منه بالنفـ   ـس ومن هول كل بؤس وقاها
كيف تنفك فى الملمات عنه   عصمة كان فى القديم أخاها

ويقول الحاج هاشم الكعبي (رح)

ومواقف لك دون أحمد جاوزت   بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعدى   تهدي اليك بوارقا ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما   يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضا   بالنفس لا فشلا ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوا دوين مرادهم   جبلا أشم وفارسا صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى   أوما رأوا كنز الهدى مرصودا

— ٤ —

كان عليه السلام آية من آيات الله الكبرى فى جميع غزوات الرسول الأعظم [ص] قبل الفتح وبعده كان الايمان كله في وقعة الخندق لقاء الشرك كله .

يقول الأزري [رح] .

ومشى يطلب الصفوف كما تمـ   ـشي خماص الحشا إلى مرعاها

فانتضى مشرفيه فتلقى   ساق عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنة السيف منه   يملأ الخافقين رجع صداها
يا لها ضربة حوت مكرمات   لم يزن ثقل أجرها ثقلاها

وقالت اخت عمرو بن عبد ود العامري

لو كان قاتل عمرو غير قاتله   بكيته أبداً مادمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له   وكان يدعى أبوه بيضة البلد

ثم هو معجزة من معجزات الاسلام العظمى في وقعة بدر الكبرى فجندل بذي الفقار من أبطال قريش وقماقمها ونجدائها(١) نصف [السبعين] والنصف الآخر كان نصيب الملائكة وبقية المؤمنين من المجاهدين .

باريت شمس الضحى في جنة بزغت   في يوم بدر بزوغ البدر إذ سطعا
لله در فتى الفتيان منك فتى   ضرع الفواطم في مهد الهدى رضعا

ولابن أبي الحديد [رح] .

ومبدد الأبطال حين تألبوا   ومفرق الأحزاب حين تجمعوا
أأقول فيك سميدع كلا ولا   حاشا لمثلك أن يقال سميدع

وللعمري الحكيم ﴿ رح ﴾ يخاطب الحسين [ع] .

يا ابن مستعرض الصفوف ببدر   ومبيد الجموع من خطفان

قاد قادات المسلمين في ﴿ خيبر ﴾ وحمل الراية خافقة فوق بنود وهامات الموحدين لأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . فكان النصر معقوداً على ناصيته والظفر حليف أيمانه وصمصامته .

---

(١) النجداء جمع نجيد وهو الشجاع الماضي في ما يعجز غيره .

ولابن أبي الحديد [رح] .

يا هازم الأحزاب لا يثنيه عن   خوض الحمام مدجج ومدرع
يا قالع الباب الذي عن هزه   عجزت أكف أربعون وأربع

وقال الكعبي (رح)

ولخيبر خبر يصم حديثه   سمع العدى ويفجر الجلمودا
يوم به كنت الفتى الفتاح والـ   ـكرار والمحبوب والصنديدا

وللمعري ﴿ رح ﴾ .

وباب خيبر لو كانت مسامره   كل الثوابت حتى القطب لانقلعا

وكما كان أبو تراب أسد الله في خيبر كان سيد أسود الشرى في [حنين وأحد] يوم فرّ المسلمون إلا هُ . وعمه الحمزة سيد الشهداء من الأصحاب وركن محمد [ص] الشديد وصاعقة الاسلام في حرب المشركين يوم [أُحد [وما أدراك ما يوم [أُحد] يوم نادى جبريل فيه ﴿ لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي ﴾ .

الله اكبر ما أعظم هول وقعة ﴿ حنين ﴾ على المسلمين إذ لم يثبت فيها إلاّ الكرار ولم ينافح عن حياة أبي القاسم إلا ﴿ حيدرة ﴾ وما أسطع بروق ذي الفقار في كشف الكرب العظيم عن وجه رسول الله الأعظم ﴿ ص ﴾ .

في ذلك اليوم العتيد الأغبر .

وللأزرى ﴿ رح ﴾

وبأحدكم فلّ آحاد شوس   كلما أوقدوا الوغى أطفاها

يوم دارت بلا ثوابت إلا   أسد الله كان قطب رحاها
يتمنى الفتى ورود المنايا   والمنايا لو تشترى لاشتراها

وعن جابر (رض) قال . . ﴿ دعا رسول الله (ص) علياً يوم الطائف فانتجاه . فقال الناس : لقد أطال نجواه مع ابن عمه . فقال ما انتجيته . ولكن الله تعالى انتجاه ﴾

أخرجه الترمذي

وعلى هذه المواقف المحمدية العلية والوقائع المشرفة فقس ما سواها .

— ٥ —

شخصية تكونت من نفس نورانية كهربائية وجسم سماوي لا تعلق لها بالأرض إلا من ناحيتها الانسانية فحسب .

شخصية غريبة التركيب . عجيبة الأسرار . عميقة الغور غير مفهومة . وغامضة مبهمة . ومن شدة الظهور الخفاء . . أما حقيقته فكالشمس ماتعة مشرقة . وصفاته كأنوار الصبح متألقة ساطعة .

علم من الكتاب المنير ما أحصاه من أخبار الماضين . وحديث الآتين . وحكم ما بين أيدي الناس . لم يعبد الله رغبة فتلك عبادة التجار . ولا رهبة فتلك عبادة العبيد . ولكن عبده عبادة الأحرار وتلك عبادة الشكر والحمد .

كما قال (ع) :

﴿ إلهي ما عبدتك رغبة في جنتك ولا رهبة في نارك ولكن رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك ﴾ .

ولا عجب فانه جماع الفضائل المحمدية .

ومنبت غرسها وحسبه أنه باب مدينة العلم .

يقول الامام الحكيم الشيخ محمد عبدة (رح) .

تصفحت بعض صفحاته ﴿ يعني - رحمه الله - نهج البلاغة ﴾ وتأملت جملاً من عباراته . من مواضع مختلفات . ومواضيع متفرقات فكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبت وغارات شنت وأن للبلاغة دولة . وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة(١) وللريب دعارة . وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة . في عقود النظام . وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج(٢) والقويم الأملج . وتمتلج المهج برواضع الحجج فتفل في دعارة الوساوس(٣) وتصيب مقاتل الخوانس . فما أنا إلا والحق منتصر . والباطل منكسر . ومرج(٤) الشك في خمود . وهرج الريب في ركود وأن مدبر تلك الدولة . وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب . أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدني في عالم تعمره من المعالي أرواح عالية . في حلل من العبارات الزاهية . تطوف النفوس الزاكية . وتدنو من القلوب الصافية . توحي اليها رشادها . وتقوم منها مرادها . وتنفر

(١) الشراسة . والدعارة . سوء الخلق والذرابة حدة اللسان في فصاحة .

(٢) تضارب أشد المضاربة

(٣) خواطر السوء (٤) الاضطراب

بها عن مداحض المزال . إلى جواد الفضل والكمال .

وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور . ومخالب النسور . وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب . فخلبت القلوب عن هواها . وأخذت الخواطر دون مرماها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء .

وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا : لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني . فخلعه عن غاشيات الطبيعة . وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجلى . وسكن به إلى عمار جانب التقديس . بعد استخلاصه من شوائب التلبيس وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي باعلى الكلمة أولياء أمر الأمة . يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب . ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرئاسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير . (انتهى)

ولله در الأزري ﴿ رح ﴾

لا ترم وصفه ففيه معان * لم يصفها الا الذي سواها

— ٦ —

اختلفت فيه المذاهب . وانقسمت الى شعب وطرائق وتعددت الطوائف في فهم حقيقته .

وتشعبت عقائدها حول ادراكها . حتى هلكت فيه فرقتان . فرقة

غالت في حبه أشد المغالاة حتى صيرته آلها فكان نصيبها الخسران المبين واليك قول شاعرهم العربي :

علي بشطر صفات الآ   ه حييت وفيك يدور الفلك
ولما أراد الآله المثـا   ل لنفي المثيل له مثلك
وفي عالم الذر قبل الوجو   د لقول (بلى) الله قد أهلك
وعلمت جبريل رد الجوا   ب ولولاك في بحر قهر هلك
لقد كنت علة كل الورى   من الانس والجن حتى الملك
ولولا الغلو لمكنت أقو   ل جميع صفات المهيمن لك

وقال أحد غلاة العجم .(١)

كرنمي بودي وجودت بر همه عالم سبب
از ازل حوا سترون بودي وآدم عزب

تعريبه :

لو لم يكن وجودك سبب جميع هذا العالم
لكانت حوا تبقى في الأزل عاقراً وآدم عزبا

ومن دعاء البكطاشية الغلاة .

{ يا علي الأعلى . وسر الأسرار . وسراج الأبدية . وقنديل الأزلية ومولى العالمين . يا حيدر يا كرار تضرع الى الله الذي جعلك مسيطراً على الدنيا والآخرة . والقضاء والقدر . والخير والشر . يحشرنا في { سرك } وان ينبتنا وردة غضة في بستانك (الأزلي) .

(١) عن صفحة ٢٣٧ من مجموعة نادي القلم الاولى

واخرى بغضته أعظم البغض حتى اذاقت من يذكره بخير أو من يدعى باسمه أنواع العذاب والوان التنكيل والاضطهاد بدرجة جعلت ثلبه عبادة يراد بها وجه الله . إلى أن نالت بما اجترحت من السيئات في لعنه { نعوذ بالله } وبال أمرها إذ غلبتها شقوتها لما في عنجهيتها من الخبث والرجس .

{ يا علي يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال }

هكذا قال له صاحب الرسالة الخالدة (ص)

وسعدت بحبه فرقة ثالثة معتدلة فنجت بالولاء له وحظيت بالفردوس لصدق إيمانها بحقيقته ولتقديسها جهاده المقدس في سبيل تشييد أركان الاسلام وتدعيم بنيانه وتركيز اثافيه وتعزيز سلطانه إلى أن تبين الرشد من الغي .

ولأنه ما شك في الحق منذ رآه .

— ٧ —

أجل . اختلف الناس في أمره . وتنافست الفرق الاسلامية في حيازة شرف الانتساب اليه وفخر الاقتداء به . فالمعتزلة ـ الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن ـ تلامذته وأصحابه لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه (ع) فكان العلم الآلهي وهو أشرف العلوم مقتبس من كلامه « ع » .

واما الأشعرية فانهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي

ابن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ ابي علي الجبائي وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة فالأشعرية ينتمون بالآخرة الى استاذ المعتزلة ومعلمهم وهو علي ابن أبي طالب (ع) .

واما الامامية والزيدية من الشيعة فانتماؤهم اليه ظاهر وهم حزبه واتباعه وعرفوا بهذا الاسم لتشيعهم له ولآله .

واما المذاهب الفقهية فتنتهي اليه ايضاً . فاصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما اخذوا عن أبي حنيفة . واما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن الشيباني ومالك فيرجع فقهه الى أبي حنيفة ايضاً ، واما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه ايضاً إلى أبي حنيفة ، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد الملقب بالصادق (ع) وقرأ جعفر على أبيه (ع) وينتهي الأمر إلى أبي الأئمة علي عليه السلام .

واما مالك بن انس فقرأ على ربيعة الرأي وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس [رض] وعبد الله بن عباس تلميذ علي (ع) .

واما فقه الامامية من الشيعة فرجوعه اليه لا يحتاج الى دليل .

واما فقهاء الصحابة فكانوا عمر بن الخطاب ﴿ رض ﴾ وعبد الله ابن عباس [رض] وكلاهما أخذا عن علي [ع] اما ابن عباس فظاهر واما الامام عمر بن الخطاب [رض] فقد عرف عن كل أحد رجوعه اليه في كثير من المسائل التي اشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة . وقوله غير مرة . ﴿ لولا علي لهلك عمر ﴾ وقوله . [لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن] . وقوله . ﴿ لا يفتين أحد

فى المسجد وعلي حاضر ﴾ فكان عليه السلام اصل علم الفقه وأساسه ومصدره وينبوعه وكل فقيه في الاسلام عيال عليه بلا اشكال . واما علم التفسير فمنه اخذ وعن تلميذه وخريجه عبد الله بن عباس [رض] وقد سئل ابن عباس أين علمك من علم ابن عمك فقال . كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط .

ومن أصحاب الطرق الذين يفخرون بالانتماء اليه أصحاب علم الطريقة والحقيقة واصول التصوف فارباب هذا الفن في جميع بلاد الدنيا اليه ينتهون وعنده يقفون وقد صرح بذلك الشبلي . والجنيد . وسري السقطي . وابو يزيد البسطامي . وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم وحسبك دليلا على ذلك [الخرقة] التي هي شعارهم الى اليوم ويسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .

وفوق هذا فان مؤسس مذهب التصوف هو الامام الحسن البصري وهو تلميذ أبي تراب ﴿ ع ﴾ وان روح التصوف الحقيقي هو الغالب على ما فى نهج البلاغة إذا لم يكن طابعه الخاص .

ومن المسلم انه كان سيد زهاد الصوفية وغيرهم وبدل الابدال واليه تشد الرحال . ما شبع من طعام قط ، وكان أخشن الناس مأكلا وملبساً ، قال عبد الله بن أبي رافع : دخلت اليه يوم ﴿ عيد ﴾ وقد أخرج جراباً مختوما فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً فقدم فاكل فقلت يا أمير المؤمنين فكيف تختمه قال . . خفت هاذين الولدين ان يلتاه بسمن أو زيت وكان ثوبه مرقوعا بجلد تارة وبليف اخرى ونعلاه

من ليف ، وكان يلبس الكرباس الغليظ فاذا وجد كمه طويلا قطعه بشفرة ولم يخطه فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سدى لا لحمة له . وكان يتأدم اذا ائتدم بخل أو ملح فان ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض . فان ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الابل ولا يأكل اللحم الا قليلا . ويقول . [لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوانات] وهو الذي طلق الدنيا ثلاثاً وكانت الأموال تجبى اليه من جميع بلاد الدنيا - إلا من الشام - فكان يفرقها ثم يقول .

هذا جناي وخياره فيه * اذ كل جان يده الى فيه

وكان يقول :

﴿ يا دنيا يا دنيا اليك عني . أبي تعرضت . أم الي تشوقت لا حان حينك هيهات غري غيري لا حاجة لي فيك . قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعيشك قصير . وخطرك يسير وأملك حقير . آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد . ﴾

وحتى انمعاوية قال لمحفن بن أبي محفن .

ويحك كيف تقول انه أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه . وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها ، وهو الذي قال : يا صفراء ويا بيضاء غري غيري . وهو الذي لم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده الا ما كان من الشام .

هذه شهادة ابن أبي سفيان بحقه ﴿ ع ﴾ وهي شهادة لها قيمتها فتأمل .

— ٨ —

قال العلامه عبد الحميد بن أبي الحديد .

﴿ وما أقول فى رجل تحبه اهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة . وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة . وتصور ملوك الفرنج والروم صورته فى بيعها وبيوت عباداتها حاملا سيفه مشمراً لحربه وتصور ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها . كان على سيف عضد الدولة بن بويه وسيف أبيه ركن الدولة صورته وكان على سيف آلب ارسلان وابنه ملكشاه صورته كأنهم يتفألون به النصر والظفر .

وما أقول فى رجل احب كل واحد ان يكثر به وود كل واحد أن يتجمل ويتحسن بالانتساب اليه حتى الفتوة التي أحسن ما قيل فى حدها ان لا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك . فان أربابها نسبوا أنفسهم اليه ووضعوا فى ذلك كتباً . وجعلوا لذلك اسناداً انهوه اليه وقصروه عليه وسموه سيد الفتيان ﴿ لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي ﴾ .

والحق كما قال العلامة ابن أبي الحديد لقد أحبته أهل الذمة من قديم الزمان وأحبته فى الاعصر المتأخرة خاصة نابتة عصرنا منهم ، واليك ما قاله فيه الشاعر الحكيم جبران خليل جبران .

[فى عقيدتى ان ابن ابى طالب أول عربى لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها . وهو أول عربى تناولت شفتاه صدى اغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا مثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج

بلاغته . وظلمات ماضيهم .

فمن أعجب بها كان اعجابه موثوقا بالفطرة ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية .

مات ابن ابي طالب شهيد عظمته . مات والصلاة بين شفتيه مات وفى قلبه الشوق الى ربه . ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام بين جيرانهم الفرس اناس يدركون الفارق بين الجوهر والحصى .

مات قبل ان تبلغ العالم رسالته كاملة وافية . غير انني اتمثله مبتسما قبل ان يغمض عينيه عن هذه الأرض . مات شأن جميع الأنبياء والباصرين الذين يأتون الى بلد ليس بلدهم والى قوم ليس بقومهم فى زمن ليس بزمنهم ولكن لربك شأنا فى ذلك وهو أعلم .]

انتهى كلام الشاعر الحكيم جبران . . . .

واليك ما قاله الاستاذ فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية فى كلية القديس يوسف ببيروت فى كتابه [علي بن ابي طالب]

« لعلي بن أبي طالب شخصية جذابة حامت حولها اقلام الرواة والمؤرخين . واجتهدت في فهمها عقول النقاد والمفكرين واهتدت بهديها ميول الزهاد والسالكين وسار تحت لوائها الجم الغفير من المتأدبين ولم تكن الآراء المختلفة والنظريات المتباينة والمجادلات العديدة حوله على كرور الأيام . الا لتزيد الرجل سموا وعقليته بروزا . فمن هو هذا الرجل العظيم ؟ وما هي قيمة رجل الأدب هذا ؟ .

كان كبير القلب . شديد الاخلاص . قوي الايمان . يذوب غيرة في سبيل الدين الجديد . وارضاء ابن عمه النبي فأقام مكانه في منزله حين هدده أهل مكة فاجبروه على الهرب الى المدينة . لم ير حوله أدنى شبه لما في نفسه . فوجد في ظروف عاكسته نصف عمره وفي بيئة تصابحه بالاحتجاجات وتماسيه بالاعتراضات . وبين رجال وأعوان لا يفهم اكثرهم للاخلاص معنى ، فتفطر قلبه اذ رأى نتيجة أعماله العديدة واجتهاداته السالفة تتناثر كالهباء . وكان له من تردد أحكامه ما أحبط مساعيه . لان صاحب القلب السليم لن يفقه ملاوي السياسة فحار في أموره . وشك فى صلاح البشر . وحزن شديداً حتى رفعه الألم إلى ذلك الاحساس السريع التأثر والشعور المتألم ابداً . والعاطفة الحية التي تميز المتشائم فيرى انه مبخوس الحق . غير مفهوم فيتذمر من الحياة .

الحكمة عند علي بن ابي طالب وافرة المعنى . جميلة المبنى . ياخذها عقلية لا لون لها ولا رسم فتمر في مخيلته فاذا هي صورة جميلة تترجرج فيها الحياة .

فهو حكيم قبل كل شيء حكيم في جميع مواعظه وخطبه .

انتهى كلام الاستاذ فؤاد افرام البستاني .

اما مدح الفيلسوف الانكليزي (كارليل) ﴿ صاحب كتاب الابطال ﴾ وغيره من فلاسفة الغرب لأبي الحسن [ع] والنعوت والصفات التي وصفوه وخصوه بالامتياز بها فقد يضيق ببسطها صدر هذه المجالة .

فا كتفينا بالتنويه عنهـا فقط .

— ٩ —

وممن أراد ان يتجمل ويتحسن بالانتساب اليه ويفخر في منافسة الفرق والمذاهب الاخرى تطبيق تعاليمه هم انصار [العدل الاجتماعي] لقوله عليه السلام . « ان الله سبحانه فرض أموال الاغنياء اقواتاً للفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك »

ولكلامه العالي في المساواة بين الراعي والرعية (ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح . ونسائج هذا القز . ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيير الاطعمة . ولعل بالحجاز واليمامة من لاطمع له في القرص ولا عهد له بالشبع . أو ابيت مبطاناً وحولي بطون غرثى . واكباد حرى أو اكون كما قال القائل :

وحسبك عاراً ان تبيت ببطنة * وحولك اكباد تحن الى القـد

أأقنع من نفسي بان يقـال هـذا أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر . أو اكون اسوة لهم في جشوبة العيش . فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها . أو المرسلة شغلها تقممها . تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها . او اترك سدى . او اهمل عاثياً . او اجر حبل الضلالة . او اعتسف طريق المتاهة) انتهى .

* * *

ولا تزال تلك الانعكاسات الضوئية العلوية تنعكس آثارها في الشرق

والغرب لأنها من معجزات محمد (ص) إلى ان يأتي أمر الله .

واذا كان ذلك ضرب يعسوب الدين بذنبـه فيجتمعون اليه كما يجتمع قزع الخريف(١)

والحقيقة كما عبر عنها الفاضلان ابن أبي الحـديد في شرح نهج البلاغة وياقوت الحموي في معجم الأدباء بقولهما . (اخباره عليه السلام كثيرة وفضائله شهيرة ان تصدينا لاستيعابها وانتخاب محاسنها كانت اكبر حجماً من جميع كتابنا هذا .)

ونحن نقول ايضاً هذا القول لهذا لا يسع الحروف والالفاظ على سعتها وقوة المعاني على روعتها وحدة البيان مهما سحرت فلا تفي بتحديد معاني وصفات الصديق الأكبر والفاروق الأول .

نعم ! ان العي فى تعريف كنه صفاته العاليـة والحصر في فهم حقيقته الغريبة العجيبة هما منتهى الوقوف على خلوده وغاية الغايات من إدراك شرف فضائله الرفيعة .

لأن محله في الاسلام محل القطب من الرحى ينحـدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير .

ولكنه رغم كل ذلك فهو عبد من عبـاد الله المخلصين وربيب طه سيد المرسلين عليهما أفضل الصلاة والسلام .

قال فيه البليغ ما قال ذو العـ ي فـكل بفضله منطيق

(١) مأخوذ من كلامه (ع) يشير به الى نبأ عظيم يحدث اخر الزمان ولا شك يقصد (الحجة) (ع)

ولأجله نكتفي بما قال هو عن تعريف نفسه الشريفة حينما جاوب معاوية بن ابي سفيان لما افتخر عليه بانه كان كاتب (الوحي) واليك جواب أمير المؤمنين « ع » اليه :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحى ويمسي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فايكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الاسلام طرا ... صغيرا ما بلغت أوان حلمي

ذكر هذه الابيات صاحب معجم الادباء في الجزء الرابع عشر صحيفة (٤٨) منه وبعدها بيتان لم يذكرها المصنف العلامة ياقوت وذكرها الناشر الدكتور أحمد رفاعي بك في الحاشية وهما .

وأوصاني النبي على اختيار ... ببيعته غداة غدير خم
فويل ثم ويل ثم ويل ... لمن يلقى الآله غداً بظلم

فقال معاوية . اخفوا هذا الكتاب لا تقرؤه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب .

— ١٠ —

حقاً ان العظمة الآلهية اذا تعاظمت بمشيئته وقدرته في عبدٍ من عباده المختارين المجتبين بصورة تتحدى حدود النبوغ والعبقرية حتى تصل إلى درجة تسمى (الاعجاز) وقد شاء الله ان تتجسد هذه العظمة الخارقة وتتمثل هذه المعجزة بعد تكوينها في صورة بشرية

سماها خالقها (علياً) وهو ابن ابي طالب عليه السلام . وان تبق هذه المعجزة الخالدة بعد سيد الاكوان « ص » الذي هو معجزة المعجزات ومصدر العظمة ناطقة بعظمة الرسالة المحمدية العامة وانها رحمة للعالمين ونعمة أبدية للناس كافة الى مدى الدهر والآباد .

وإلا فما ذا أقول فيه [ع] بعد أقوال فطاحل الفصاحة والجهابذة من فرسان البلاغة المبرزين المتقدمين من مسلمين وذميين . وبعد سمط لئالئ الناظمين وغرر الناثرين من الحكماء العارفين . خاصة بعد درر العلامة المعتزلي ابن ابي الحديد واليك منها :

يا رق ان جئت الغري فقل له ... أتراك تعلم من بارضك مودع
فيك ابن عمران الكليم وبعده ... عيسى يقفيه وأحمد يتبع
بل فيك جبريل وميكال واسرا ... فيل والملأ القدس أجمع
بل فيك نور الله جل جلاله ... لذوي البصائر يستشف فيلمع
فيك الامام المرتضى فيك الوص ... ي المجتبى فيك البطين الانزع

ومنها :

هذا هو النور الذي عذباته ... كانت بجبهة آدم تتطلع
وشهاب موسى حيث اظلم ليله ... رفعت له لألاؤه تتشعشع
يا من له ردت ذكاء ولم يفز ... بنظيرها من قبل الا يوشع

ومنها :

لولا حدوثك قلت انك جاعل الأ ... رواح في الاشباح والمنتزع
لولا مماتك قلت انك باسط الأ ... رزاق تقدر في العطاء وتوسع

ما العالم العلوي الا تربة   فيها لجثتك الشريفة مضجع

أنا في مديحك ألكن لا اهتدى   وأنا الخطيب الهزبري المصقع

ومنها :

بل انت فى يوم القيامة حاكم   فى العالمين وشافع ومشفع

ومنها :

تا لله لولا حيدر ما كانت الد   نيا ولا جمع البرية مجمع

من أجله خلق الزمان وضوءت   شهب كنسن وجن ليل أدرع

علم الغيوب اليه غير مدافع   والصبح أبيض مسفر لا يدفع

واليه فى يوم المعاد حسابنا   وهو الملاذ لنا غداً والمفزع

هذا اعتقادي قد كشفت غطاءه   سيضر معتقداً له أو ينفع

وهاك بعض غرر الشيخ صالح التميمي رحمه الله تعالى .

غاية المدح فى علاك ابتداء   ليت شعري ما تصنع الشعراء

يا اخا المصطفى وخير ابن عم   وأمير إن عدت الأمراء

ما ترى ما استطال الا تناهى   ومعاليك ما لهن انتهاء

فلك دائر اذا غاب جزء   من نواحيه أشرقت أجزاء

ومنها :

وتضيق الأرقام عن خارقات   لك يا من ردت اليه ذكاء

يا صراطاً إلى الهدى مستقيماً   وبه جاء للصدور شفاء

بني الدين فاستقام ولولا   ضرب ماضيك ما استقام البناء

ومنها :

أنت هارون والكليم محلا   من نبي سمت به الأنبياء

أنت ثاني ذوى الكسا ولعمري   أشرف الخلق من حواه الكساء

ولقد كنت والسماء دخان   ما بها فرقد ولا جوزاء

قال زوراً من قال ذاك زور   وافترى من يقول ذاك افتراء

ومنها :

معدن الناس كلها الارض لكن * أنت من جوهر وهم حصباء

وكلها من نوع هذا اللؤلؤ الرطب .

واليك بعض فرائد وجواهر العمري رحمه الله .

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا   ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

وأنت باب تعالى شأن حارسه   بغير راحة روح القدس ما قرعا

ومنها :

وأنت نقطة باء مع توحدها   بها جميع الذي فى الذكر قد جمعا

وأنت أنت الذى حطت له قدم   في موضع يده الرحمن قد وضعا

وأنت أنت الذى آثاره ارتفعت   على الاثير وعنها قدره اتضعا

ومنها :

ما فرق الله شيئاً في خليقته   من الفضائل الا عندك اجتمعا

وهذا غيض من فيض مما جاء فى مدحه عليه السلام ولكن ما لنا ولقول الشعراء البلغاء بعد ان نزل التنزيل من لدن العزيز الحكيم بمدحه وتفضيله وخير الكلام كلام الله وأشرف القول قول أشرف الأنام ﴿ ص ﴾ .

روى المفسرون انه لم يكن يملك (ع) الا اربعة دراهم فتصدق بواحد ليلا وبواحد نهارا وبواحد سرا وبواحد علانية فانزل فيه (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) الآية ونزلت فيه وفي زوجته وابنته « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً واسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » الآية . وفيه انزل الله تعالى حين تصدق بخاتمه فى صلاته [انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون] الآية .

ومن الحديث الشريف قوله (ص) : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وقوله « ص » : انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدى . وقوله « ص » [لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك الا منافق] وقوله (ص) { من أحب علياً فقد احبني ومن ابغض علياً فقد أبغضني ومن آذي عليا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله } وقوله (ص) أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه وقوله [ص] (اقضاكم علي) وفي رواية « اقضاهم علي بن ابي طالب »

الى غير ذلك من الاحاديث المرفوعة الصحيحة المستفيضة .

اما هواى في ابي تراب (ع) فكما قال الكميت رحمه الله .

وقالوا ترابي هواه ودينه * بذلك ادعى بينهم والقب

— المؤلف —

مالك الأشتر « رضي الله عنه »

(١)

وهذا عامله مالك الأشتر كان منه كما كان هو من رسول الله « ص » عاملا نصيحا وعلى عدوه شديدا . كان من زعماء العراق الأشداء . وضبارمة(١) نجيد من النجداء . وفارسا صنديدا لا يشق له غبار . كان شديد البأس ورئيس اركان الجيش لعساكر ابي الحسن [ع] فى حرب الجمل وصفين والنهروان . وهو من لهاميم مذحج الابطال المغاوير . وسيد قروم نخع وشجعانها المساعير . ومن رواسي الجبال فى الحلم . ومن السحاب الثقال فى الكرم والسخاء .

* * *

كان من الاكياس العارفين فى السياسة والتدبير . يجمع بين اللين والعنف فيسطو فى موضع السطوة . ويرفق فى موضع الرفق وقد شهد بذلك سيده وامامه ابوالحسن « ع » { انه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته . ولا بطؤه عما الاسراع اليه احزم ولا اسراعه الى ما البطء عنه امثل } . وهو مع ذلك خطيب منبر مصقع . وقائد عسكر مرجب(٢) خطير قاهر . ولا عيب فيه غير انه شاعر فصيح وناشر بليغ . قد استطاع ان يخمد بذلاقة لسانه من الفتن العمياء ما اعيا

(١) الضبارمة ـ الجريء على الاعداء ويسمى الاسد . والنجيد ـ ذو النجدة .

(٢) المرجب ـ المهيب المعظم .

حسامه اطفاءها في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحق وحارب الباطل وخذل اهله . تعرف ذلك فيه من قول استاذه وسيده حين بلغه مقتله فقال (لليدين وللفم وقال . انا لله وانا اليه راجعون . مالك وما مالك وهل موجود مثل ذلك لو كان من حديد لكان قيدا او من حجر لكان صلدا على مثله فلتبك البواكي) .

* * *

(٢)

وهو صاحب الصفيحة اليمانية اذا طأطأها خلت فيها ماء واذا رفعها يكاد يغشي البصر شعاعها يضرب بها الناس وهو يقول (الغمرات ثم ينجلينا) ومن خطبه البليغة في حرب صفين خطبها في بلدة (قناصرين) على فرسه الادهم وكأنه الغراب .

[الحمد لله الذي خلق السموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى أحمده على حسن البلاء . وتظاهر النعماء حمداً كثيراً بكرة واصيلا . من هداه الله فقد اهتدى ومن يضلل فقد غوى . ارسل محمداً بالصواب والهدى فاظهره على الدين ولو كره المشركون صلى الله عليه وآله . ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ان ساقتنا المقادير الى اهل هذه البلدة من الارض فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا فنحن بحمد الله ونعمه ومنه وفضله قريرة اعيننا طيبة انفسنا نرجو بقتالهم حسن الثواب والامن والعقاب .

معنا ابن عم نبينا وسيف من سيوف الله علي بن ابي طالب صلى مع رسول الله لم يسبقه الى الصلاة ذكر حتى كان شيخا . لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ، فقيه في دين الله تعالى عالم بحدود الله ذو رأى اصيل وصبر جميل وعفاف قديم فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد . واعلموا انكم على الحق وان القوم على الباطل انما تقاتلون معاوية وانتم مع البدريين قريب من مائة بدري سوى ما حولكم من أصحاب محمد اكثر ما معكم رايات فقد كانت مع رسول الله . وعدونا مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب . أنتم على إحدى الحسنيين . اما الفتح واما الشهادة . عصمنا الله واياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه والهمنا وأياكم طاعته وتقواه واستغفر الله لي ولكم . » وله من خطبة اخرى في صفين : « الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه اقدمهم هجرة وأولهم اسلاما . سيف من سيوف الله صبه الله على أعدائه . فانظروا اذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسر المران . وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع الا غمغمة أو همهمة فاتبعوني وكونوا في اثري . »

صراحة في القول

كان شديد الصراحة في كلامه وأقواله والصراحة من شيمة الاحرار وسجية الصادقين والطابع الخاص لأهل الأباء والأنفة وهي من أهم خصائص أصحاب الجرأة الأدبية الذين لا يهابون ولا يخشون في نصرة الحق لومة لائم واليك من ذلك كلام الأشتر الى والي

الكوفة وهو سعيد بن العاص قال سعيد بن العاص يوماً الى سماره ان السواد بستان لقريش وبني أمية فقال له الاشتر : وتزعم ان السواد الذي افاءه الله على المسلمين باسيافنا بستان لك ولقومك .

ولله در القائل وقد سئل عن الاشتر : ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق . ومن ادبه العسكري قوله يوم تشريد أهل الشام عن الفرات بحرب صفين : —

أنا ابن خير مذ حج مركبا   وخيرها نفسا واما وابا
آليت لا أرجع حتى اضربا   بسيفي المصقول ضرباً معجبا

وله ايضا يجيب به زامل بن عقيل من أبطال الشام : —

لابد من قتلى أو قتلكا   قتلت منكم أربعاً من قبلكا
كلهم كانوا حماة مثلكا

وأجاب محمد بن روضة في نفس الوقعة بقوله : —

لا يبعد الله سوى عثمانا   وأنزل الله بكم هوانا
ولا يسلي عنكم الاحزانا

وله ايضا حين كشفهم عن ماء الفرات : —

لا تذكروا ما قد مضى وفاتا   والله ربي باعث الامواتا
من بعد ما صاروا كذا رفاتا   لأوردن خيلي الفراتا
شعث النواصي ؛ أو يقال ماتا

ومن شعره البليغ الذي يتمثل به أهل الادب قوله : —

بقيت وفري وانحرفت عن العلا   ولقيت اضيافي بوجه عبوس

ان لم اشن على ابن حرب غارة   لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالي شزباً   تعدو ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكأنه   ومضان برق او شعاع شموس

(٣)

نسبه ، شهادة النبي بايمانه . وفاته واسبابها : —

هو مالك بن الحارث بن يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وعلة بن خالد بن مالك بن ادد وهو من اكابر حزب علي وعظماء شيعته شديد التحقق بولاء امير المؤمنين عليه السلام ونصره . وقال فيه بعد موته : « رحم الله مالكا فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله » . وقد روى المحدثون حديثا يدل على فضيلة عظيمة للاشتر رحمه الله وهي شهادة قاطعة من النبي « ص » بأنه مؤمن روى هذا الحديث ابو عمر ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب في حرف الجيم فی باب (جندب ابو ذر) رض الله عنه . قال ابو عمر : لما حضرت أباذر الوفاة وهو بالربذة بكت زوجته ام ذر فقال لها: ما يبكيك ؟ فقالت : مالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض وليس عندي ثوب يسعك كفنا ولا بد لي من القيام بجهازك فقال : لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار ابدا ولقد مات لنا ثلاثة من الولد وسمعت ايضا رسول الله [ص] يقول لنفر وانا فيهم : ليموتن احدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين وليس من اولئك

النفر احد الا وقد مات في قرية وجماعة . فأنا لا اشك ذلك الرجل والله ما كذبت ولا كذبت . فانظري الطريق قالت ام ذر فقلت انى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق ! فقال اذهبي فتبصري قالت فكنت اشتد الى الكثيب فاصعد فانظر ثم ارجع اليه وامرضه فبينما هو على هذه الحال اذ أنا برجال على بهم كأنهم الرخم تخب بهم رواحلهم فاسرعوا الي حتى وقفوا عليّ وقالوا : يا امة الله مالك ؟ فقلت : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه قالوا ومن هو ؟ قلت ابو ذر قالوا : صاحب رسول الله [ص] قلت نعم ففدوه بآبائهم وامهاتهم واسرعوا اليه حتى دخلوا عليه فقال لهم ابشروا فاني سمعت رسول الله ﴿ ص ﴾ يقول لنفر وانا فيهم ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين وليس من اولئك الا وقد هلك في قرية وجماعة والله ما كذبت ولا كذبت ولو كان عندي ثوب يسعني كفنا لي أو لأمرأتي لم اكفن الا فى ثوب لي أولها واني انشدكم الله ان لا يكفنني رجل منكم كان أميرا او عريفا او بريدا او نقيبا قالت ام ذر وليس في اولئك النفر احد الا وقد قارف بعض ما قال الا فتى من الانصار قال له انا اكفنك يا عم في ردآئي هذا وفي ثوبين معي في عيبتي من غزل امي فقال ابو ذر انت تكفنني . فمات فكفنه الانصارى وغسله النفر الذين حضروه وكان معهم الاشتر . وقاموا عليه ودفنوه في نفر كلهم يمان منهم حجر بن عدى الذي قتله معاوية وهو من أعلام شيعة الامام علي وعظامها .

ومالك الأشتر الذي هو اشهر في شيعة ابي تراب [ع] من ابي الهذيل فى فرقة المعتزلة . وهو الذي عانق عبد الله بن الزبير يوم الجمل فاصطرعا على ظهر فرسيهما حتى وقعا فى الأرض فجعل عبد الله يصرخ من تحته ﴿ اقتلوني ومالكا ﴾ فلم يعلم من الذي يعنيه لشدة الاختلاط وثوران النقع فلو قال اقتلوني والاشتر لقتلا جميعا فلما افترقا قال الاشتر : ـــ

اعايش لولا انني كنت طاويا ... ثلاثا لالفيت ابن اختك هالكا
غداة ينادي والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي : اقتلوني ومالكا
فنجاه مني شبعه وشبابه ... واني شيخ لم اكن متماسكا

ويقال ان عائشة « رض » فقدت عبد الله فسألت عنه فقيل لها عهدنا به وهو معانق الاشتر فقالت واثكل اسماء .

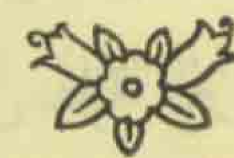
كيف دبر قتله

لما سمع معاوية ان الامام علي « ع » قد ولى الاشتر على مصر بعث الى المقدم على اهل الخراج بالقلزم وقال له ان الاشتر قد ولى مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت فخرج حتى اتى القلزم وأقام به وخرج الاشتر من العراق إلى مصر فلما انتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فاتاه بطعام فلما اكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه أياه فلما شربها مات وأقبل معاوية يقول لأهل الشام ان عليا قد وجه الاشتر إلى مصر فادعوا الله عليه فكانوا يدعون الله عليه كل يوم واقبل الذي سقاه

إلى معاوية فاخبره بمهلك الاشتر فقام معاوية خطيبا ثم قال « اما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين يعني عمار بن ياسر وقطعت الاخرى يعني الاشتر(١) .

اما الامام علي (ع) فقد قال فيه : ان الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديدا وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب » . وكانت وفاته سنة ٣٩ هج و بوفاته اغمد سيف من سيوف الحق وطويت راية من رايات الاسلام طالما خفقت لنصرة الدين ورفرفت في ميادين الجهاد المقدس لحماية شريعة القرآن الاقدس. و بفقده فقد الامام ابو الحسن (ع) اشد ركن من أركان القيادة العسكرية في جيشه . واقوى دعامة يركن اليها في سياسته العامة وتدبير امور بلاده وانصح واصلح واخلص عامل مجاهد بين يديه عند اشتداد الخطوب السوداء ويكفي انه كان له كما كان هو سلام الله عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

— المؤلف —



(١) عن الكامل لأبن الاثير صحيفة (١٤١) جزء [٣]

شخصية الحكام
وكيف يجب ان تكون

لقد احتوى كلام امير المؤمنين علي (ع) فيما كتبه لعامله الاشتر على قواعد واصول مهمة تتعلق بالقضاء والقضاة وها اننا نشرح ما قرره الامام [ع] من جواهر الكلم ونصوص الحكمة مع سرد ما يطابقها من القواعد القانونية والحقوقية الحديثة المتبعة على سبيل المقارنة وبسط ما يماثلها من آراء اساطين علم الحقوق وجهابذة التشريع من أبناء هذا العصر وذلك على قدر ما يتسع لنا مجال البحث والبيان .

« الأصل » : [. . . ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه . . .] .

نقول ان من يجيل نظر دقته في كلمة الامام (ع) المتقدمة يجدها بكل وضوح منطبقة وموافقة لنص المادة الـ ٢٥٩ من اصول المحاكمات الحقوقية المعمول بها عندنا اليوم وفي بلاد تركيا الى قيام العهد الكمالي حيث حظر عامله من أن يختار قاضيه بليداً جامد الفكر أو ممن تضيق به الامور عند تنوع الخصومات وتعدد الدعاوى التي

ربما لا يوجد لها في الكتاب المجيد أو السنة الشريفة نص تطبق عليه بل أمره أن يصطفيه من العلماء الاذكياء ومن أهل الفطن النبهاء الذين لا يرتبكون عند معضلات المسائل وعويصات القضاء وممن يرجعون إلى طريقة الاستنباط أو التفسير وعلى قول المذاهب الاسلامية الاخرى بالقياس اذا رجعنا الى نص المادة الـ ٢٥٩ من اصول المحاكمات الحقوقية التي اشرنا اليها والقائلة :

﴿ الاستنكاف عن احقاق الحق يكون برد عرض الحال او الاستدعاء الصالح للقبول نظاماً بلا موجب لرده أو بعدم مباشرة رؤية الدعوى مهيئة للرؤية وقد حان دورها لاعذار وتعللات واهية وكان ذلك ناشئاً عن سوء القصد ﴾ .

نرى ان القانون قد نص على ما أوصى به الامام « ع » لأن الفصل في الدعاوى المرفوعة أمر متحتم على القضاة سواء أوجدوا لتلك الدعوى المقامة مادة تنطبق عليها أم لا . وفي مثل هذه الدعوى يجب الرجوع من اجل حسمها إلى القياس عند بعض المذاهب المعروفة وقد عد القانون الاستنكاف عن احقاق الحق بحجة أن الحاكم لم يجد نصاً في القانون الذي يسير بموجبه جرماً يستوجب العقاب وأوجب عليه عند تعقد الامور والمسائل القضائية لديه الرجوع إلى طريقة من الطرق المقررة بعد ان يعجزه البحث في الكتاب والسنة .

ومن أفضلية الشريعة الاسلامية هنا على غيرها [تحريمها] القاعدة المتخذة الآن في الولايات المتحدة الامريكية في تعيين القضاة فيكون

تعيين القاضي هناك « بالانتخابات العامة » التي يديرها الشعب ولا يخفى ما فى هذه الأصول من الاضرار الفادحة التي تصيب أهل الحق فتحرمهم منه فضلاً عن ضياع العدل الذي هو اساس الملك وفقدان المساواة المتوخاة فى قضايا القضاء . وذلك لأن القاضي المنتخب بحكم الحال يكون مديناً لمن انتخبه ومرهوناً له فيضطر آنئذ الى مداهنته ومجاملته وساعياً لارضاء منتخبيه وخاضعاً لارادتهم ومنفذاً لرغائبهم ومروجا لمصالحهم وغاياتهم ، ولا مانع لأمثال هؤلاء القضاة من أن يستعملوا أنواع الحيل والخداع والمراوغة مع طبقات الامة من أجل انتخابهم لمناصب القضاء كما نشاهد ذلك فى المساومات الانتخابية السياسية ، هذا عدا تدخل القوة التنفيذية في الشؤون القضائية التي سنبحث — بعونه تعالى — عن سيآتها .

اما كلمته ﴿ ع ﴾ « ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة » فهي لعمر الحق مما تجعل أفكار أرباب القانون حائرة ازاء هذا اللفظ الموجز والتعبير البليغ الحسن الذي هو أول شرط يجب مراعاته من جانب واضع القانون ، اما ما اشتملت عليه هذه الكلمة من دقة المعاني الادبية وفخامة اللفظ ورقته فندع تقديره لأهل الأدب الراقي ولأصحاب الذوق السليم من طلابه . ومن جملة اسرار هذه الكلمة التشريعية انه اشترط — سلام الله عليه — أن لا يكون الحاكم ما حكا لجوجاً في مرافعة الدعاوى ومناقشة الخصوم ، أي يتحاشا استعمال الضغط والشدة والخشونة حينما يطلب من أحد المتداعين تقديم

دافعاته اللازمة أو يجبره على عرض اعتراضاته ومستنداته اثناء المرافعة من دون أن يمهله المهل المطلوب قانوناً حتى يضطره على ترك تعقيب دعواه أو اهمال حقوقه ، ولهذه العلة نفسها نصت اصول المحاكمات الحقوقية فى آخر المادة الـ ٢٥٧ على ما يأتي : —

« . . . أو أن يقدم على عمل مغاير للنظام عن غير سهو أو خطأ بل عن عمد بقصد الضرر » فسوغت هذه المادة الشكاية على الحكام فيما إذا تصدى إلى أعمال تضر بمصلحة أحد الخصمين لحفظاً لحقوق الناس وصيانتها أمر [ع] عامله أن يعين للقضاء رجلا صبوراً على تمحك الخصوم غير عجول ولا متزعزع ولا متماد فى الزلة .

واما قوله (ع) « ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه » فمعناه يجب إلا يصر الحاكم على خطأه لأن الناس من إذا زل حصر على ان يرجع الى الحق خجلا . وفى هذا المعنى نقاط مهمة تمس اصول المحاكمات الحقوقية وتحتم على القاضي مراعاتها وهي اذا رأى القاضي ان المدعى قد اغفله حين المرافعة فاصدر حكما جائراً ومجحفا بحقوق المدعى عليه ثم تثبت له حيلة الخصم ، يجوز له وقتذاك اعادة المحاكمة والرجوع الى احقاق الحق من جديد . وقد جاءت المادة الـ ٢٧ من ذيل اصول المحاكمات الحقوقية — المعمول بها في جميع البلاد المنسلخة عن تركيا — والمعدلة للمادة الـ ٢٠٢ منها ضامنة للحاكم استعمال هذا الحق وهاك نصها : —

اولا : ان يصدر من محكمة ابتدائية حكم او قرار مخالف لحكم

أعلام صادر من المحاكم المذكورة فى حين ان شخص المتخاصمين وصفتهما لم يتغيرا ودعواهما هي نفس الدعوى وفي الجملة لم تظهر مادة تستلزم صدور اعلام جديد مغاير لذلك الاعلام .

ثانياً : وقوع حيلة حصلت اثناء رؤية الدعوى من قبل خصم صاحب الاستدعاء واثرت على حكم المحكمة وقرارها .

ثالثاً : ان يتبين بعد الحكم اما بالاقرار أو بالاثبات ان الاوراق أو السندات التي اتخذت اساسا للحكم هي مزورة .

رابعاً : ابراز أوراق للمحكمة بعد الحكم صالحة لأن تكون مداراً له ، كانت كتمت من قبل الخصم وحمل على كتمها .

وهكذا في قانون اصول المحاكمات الجزائية البغدادي والعثماني فقد نصت المادة الـ ٢٠١ و الـ ٢٠٧ من القانون البغدادي بوجوب فسخ الحكم ونقضه وإعادة المحاكمة من جديد فيما اذا وجد خطأ في التهمة أو انها معدومة ، واما القانون العثماني فقد حصر اسباب الرجوع عن الحكم الأول وتجديد إقامة الدعوى ان كانت في ثلاث : —

[١] ظهور المدعى بقتله حياً [٢] صدور حكمين متناقضين على اثنين بجريمة واحدة ويكون تناقضهما دليلا على براءة احدهما [٣] الحكم بجريمة شهادة الزور على احد الشهود الذين شهدوا على المتهم .

فمن يتأمل بين نص الاصول الحقوقية والجزائية الحاضرة وبين تعبير الامام « ع » يجد فروقاً كثيرة من حيث الايجاز في

اللفظ والحكمة القانونية .

ثم أوصاه ان يختاره من الذين « لا تشرق نفوسهم الى طمع ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . »

وقبل الخوض فى شرح هذه الجملة البعيدة الغور ، والكثيرة المسائل والأحكام نبين — باختصار — الفاظها اللغوية ليتيسر لنا تبيان منطوياتها العلمية ومخبآتها القانونية ، وجواهرها الحقوقية ، فقوله : ــ

ولا تشرق(١) أي لا تشفق والاشراق الاشفاق — الخوف — وقد أنشد الليث بهذا المعنى : —

ومن مضر الحمراء اشراق أنفس * علينا وحياها علينا تمضرا!

وله أيضا : ــ

لقد علمت وما الاشراق من خلقي * ان الذي هو رزقي سوف يأتيني

ومعنى « ولا يكتفي بأدنى فهم » أي لا يكون قانعا بما خطر له بادئ الرأي من أمر الخصوم بل يستقصي ويبحث أشد البحث حتى يقع على — الخبير — ويطلع على جلية الامور . اما مقاصده الاصولية الحقوقية والعقابية والنظرية منها التي أوجب (ع) معرفتها والتمشى

(١) ويروي ولا تشرف نفسه على طمع ومعنى الاشراف على الشيء الاطلاع عليه من فوق فالطمع من خساس الامور من نظر اليه وهو في أعلى منزلة النزاهة لحقته وصمة النقيصة فما ظنك بمن هبط اليه وتناله . من [تعليق المرحوم الشيخ محمد عبده]

وفي هذا المعنى ايضا قول الحصين بن مطير الشاعر :

فيا عجبا للناس يستشرفونني * كأن لم يروا بعدي محباً ولا قبلي

بمقتضاها من قبل الحكام فهي منطبقة — غاية الانطباق — على الاصول الموضوعة للهيئات الاجتماعية المدنية العصرية بعكس ما يخاله البعيد عن الحقائق العلمية بأن الشريعة الاسلامية أو الكتاب الذي نحن بصدده فارغ مما سطره علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد كـ« مونتسكيو ، وجان جاك روسو ، ولمبروزو ، وفوستان هلي ، وماركس وآدم سميث وغوستاف لوبون » وامثالهم من رجالات الغرب ومن مقاصد الامام (ع) الحقوقية في كلامه « لا تشرق نفوسهم الى طمع » هو نفس المقصد الذي جاء في المادة الـ ٢٥٨ من المحاكمات الحقوقية عندنا والقائلة :

« الشيء الذي يأخذه الحاكم بالذات أو الواسطة من اصحاب الدعاوى لأجل ترويج المرام يعدّ رشوة » وأيدت هذه المادة الاصول الجزائية ايضا ، حيث جعلت من أسباب قبول الشكاية على الحكام اخذ الرسوم الباهضة والرشوة ، لهذا اعتنت الحكومات الراقية بانتقاء القضاة جد الاعتناء حتى عدّ الحاكم البريطاني امة مستقلة فى القيام بالشؤون القضائية ، ذلك بعد ان اختير من ذوي النزاهة والعفة والأهمية منصب القضاء وخطورته وحرصاً على حقوق الخلق ذكر الفقهاء عليهم الرحمة ما يأتي :

لا يجوز للقاضي ان يقبل هدية فى أيام القضاء إلا ممن كانت له عادة يهدي اليه قبل أيام القضاء ولا يجوز قبولها فى أيام القضاء ممن له حكومة وخصومة وان كان ممن له عادة قديمة وكذلك ان كانت الهدية أنفس وأرفع مما كانت قبل أيام القضاء لا يجوز قبولها . ويجوز

ان يحضر القاضي الولائم ولا يحضر عند قوم دون قوم لأن التخصيص يشعر بالميل . ويجوز ان يعود المرضى ويشهد الجنائز ويأتي مقدم الغائب ويكره له مباشرة البيع والشراء . فما اعظم اذاً كلمته « ع » التي الزمها على عامله من ان يختار قاضيه ممن لا تشرق نفسه الى طمع .

وفي قوله : « ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه » مقاصد كثيرة متنوعة ومهمة جداً ولأجل معرفتها والوصول الى حل وكشف غوامض هذا اللفظ القانوني الظاهر المبهم والسهل الممتنع يجب ان نستعين ببعض قواعد اصول المحاكمات الحقوقية ثم الجزائية المعمول بهما في هذه البلاد وما يتعلق بتلك القواعد من الوجهة النظرية ليسهل علينا وقتئذ تعليل وايضاح ما حكاه الامام ﴿ ع ﴾ في هذا الباب .

جاء في المادة الـ ١٢٠ من قانون المحاكمات الحقوقية ما نصه : « متى تمت المرافعة يخرج الطرفان من المحكمة فاذا كانت هيئة المحكمة قادرة على اصدار الحكم في الحال يجمع الرئيس آراء الاعضاء فان لزمت المذاكرة قبل اعطاء الرأي تخلو هيئة المحكمة في حجرة المذاكرة » فنظراً لهذه المادة لا يجوز لأحد الحكام ان يوضح رأيه في الدعوى ما لم يكن قد حضر المحاكمة من اولها الى آخرها لأنه يلزمه ان يسمع اقوال الطرفين الشفوية ليقف على حقائق الدعوى ويتمكن من الاشتراك في الحكم وابداء الرأي بناء على الاحوال والادلة التي شاهدها وسمعها بنفسه والا فتبقى تلك الجهة غامضة عليه وذلك يمنعه من ان يكون له وقوف على جهات الدعوى كافة وان غاب احد الحكام عن بعض الجلسات يلزم اعادة المحاكمة وقد جاء

في الفقرة الاخيرة من المادة الـ ١٢١ واذا لم يمكن اصدار قرار ما في اثناء المذاكرة يعين يوم آخر لاجل بيان الحكم ويعرف الخصمان بالامر وفي خلال ذلك تجري المذاكرة ويعطى القرار والحكم بالدعوى » .

اما قانون اصول المحاكمات الجزائية فقد شدد لزوم استقصاء اصل الدعاوى والاحاطة بفروعها وتفهيمها اكثر مما تقدم فانه اوجب : —

« اولا » ان يجري التحري وهو البحث عن الجرم المرتكب وجمع الادلة لتعيين مرتكبه والغرض منه تنوير اذهان الموظفين باقامة الدعوى .

« ثانياً » التعقيب وهو اقامة الدعوى العامة على المجرم الذي جمعت ادلته .

« ثالثاً » التحقيق وهو الاجراآت المتخذة بعد التعقيب لتكون مداراً للنظر في الدعوى والقصد منه حصول القناعة بجرم من اسند اليه الجرم وهذا منوط بحكام التحقيق .

« رابعاً » المحاكمة وهي الاعمال التي يحصل من ورائها الاطمئنان بالتجريم واصدار الحكم به وهذه من وظيفة المحاكم .

« خامساً » التنفيذ وهو الاجراآت المتعلقة بتنفيذ الحكم الصادر على المجرم في نتيجة المحاكمة .

تشريع استقلال المحاكم

الاصل : — « واوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج واقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور واصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء ، واولئك قليل ، ثم اكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدين قد كان اسيرا فى أيدي الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا »

ان هذه الجمل البليغة تفيد زيادة وصف الافضلية التي يجب ان يختار القاضي او الحاكم من بين الحائزين عليها ، والمتصفين بها من أفراد الرعية المثقفين الافاضل وكأن الامام (ع) بعد ان اوجب على عامله ان ينتخب للقضاء افضل رعيته علماً وتهذيباً اراد ان يلفت نظره الى جهة مهمة هي فوق العلم والثقافة الواسعة ؛ وهي خاصية نفسية بحتة ، وان كلمته ﴿ ع ﴾ (أوقفهم في الشبهات) تكشف

لك بوضوح عن مقصده الشريف ، فهو قد اشترط ان يكون القاضي أو الحاكم ـ زيادة على ما هو عليه من الفضل ـ من ذوي النفوس الحساسة والذكاء المتقد والنباهة الشديدة ، الذين يبددون بنور اليقين ظلمات الشك وغياهب الشبهات لئلا يلتبس عليه الامر فيلبسون الحق بالباطل وهم لا يشعرون ؛ وذلك لان الشبهات هي ما لا يتضح الحكم فيها بالنص فينبغي الوقوف عند القضاء إذا استبهمت وجوه الحل حتى يرد الحادثة الى اصل صحيح . وقد تعترض الحكام هذه الشبهات فى القضايا الجزائية اكثر منها في القضايا الحقوقية ، ولهذا وضع علماء الجزاء ـ فى القرن الاخير ـ قاعدة ذات أهمية كبرى ، حتى اصبحت مثلا سائراً وهي « ان براءة الف مجرم خير من تجريم بريء واحد » وقد أرادوا بهذه القاعدة تنبيه الحكام وايقاظهم على ان يحذروا الشبهات التي قد تدفعهم الى انزال الحد والعقاب بحق الابرياء من جراء ما يحصل فى التحقيق من تضليل أو ما يسببه شهود الاثبات أو الدفاع من تلفيق وتصنيع الى ما هنالك من شبهات مريبة واضاليل مضللة ورحمة بامثال هؤلاء الابرياء ؛ قال صلى الله عليه وآله [إدرؤا الحدود بالشبهات] وقد سار كافة علماء الجزاء والمشرعين للقوانين العقابية على هذا الاساس فوضعوا قاعدة عامة متبعة وهي : —

﴿ إذا حصل شك فى مفهوم مواد القانون الجنائي فيجب تفسيرها وتأويلها لصالح المتهم ﴾ وفي سور بن عبد الله القاضي يقول أبان ابن عبد الحميد اللاحقي .

لا تقدح الظنة في حكمه * شيمته عدل وانصاف
يمضي اذا لم تلقه شبهة * وفي اعتراض الشك وقاف

اما اذا كانت اسباب الحكم واضحة لا لبس فيها ولا غموض وان في صراحة النصوص غنى وكفاية للقاضي او الحاكم عن تجشم التفسير والتأويل لزم عليه ان يأخذ بحجة النص ولا يتيامن ولا يتياسر عن المحجة البيضاء ولهذا الغرض اوصى عليه السلام عامله الاشتر (رض) ان يختار قاضيه من افضل رعيته ومن اوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج واقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ومعنى التبرم الملل والضجر اي ان لجاجة الخصوم وتماديهم في العناد في المرافعة فيما بينهم وكثرة بياناتهم وان كانت خارجة عن الصدد يجب ان لا تصرف الحاكم عن الاصغاء اليها مهما كانت تافهة والا يتطرق السأم والضجر الى نفسه بل عليه الصبر حتى ينكشف له امر الخصوم وتتجلى له الحقيقة التي يتوصل بها الى احقاق الحق وازهاق روح الباطل واذا تيسر له كل ذلك وقام بتمحيص القضايا وتخلص من رين الشبهات فيجب عليه ان يكون صارماً ماضيا في تقرير العدل وايصال الحق الى ذويه وان يدمغ الباطل على يافوخه وذلك ما يحتمه عليه واجبه المقدس وحده . لا يخشى في خدمة الحق والقانون ونصرة العدل ورفع لوائه لومة لائم . والا يستخفه في اداء واجبه زيادة الثناء والاطراء عليه او يثنيه عن تطبيق الشريعة ونصوص القانون تحريض واغراء . كما جاء في عهد الامام علي (ع) على انه علم ان قليلا من الناس من

يتصف بهذه الخلال الحميدة والصفات الكريمة ولذا قال (واولئك قليل) واراد بذلك ان ينبه عامله على ان لا يتسرع في انتخاب القضاة بل عليه ان ينظر في ذلك نظراً بليغاً . لما للقضاء من اهمية عظمى في تقويم كيان المجتمع .

وقد رأى الامام (ع) ان مصلحة القضاء ومحافظة العدل في المملكة تقضي على ولي الامر ان يكثر من مراقبة اعمال وتصرفات القضاة او الحكام من حين لآخر وان كانوا متصفين بالاوصاف السابقة وانهم من افضل الرعية علما واخلاقا لان محاسبة النفس وضبطها والشعور بالمسؤولية قد يكون ضئيل الاثر في نفوس بعض المسؤولين فاراد الامام « ع » ان يكون هذا الحس قوياً وعميقاً في نفوس الموظفين عامة والقضاة خاصة فعهد الى عامله ان يكثر تعاهد قضائه اي تطلعه على احكامه واقضيته وضمير (قضائه) يعود لافضل الرعية وهو القاضي الموصوف بالاوصاف المتقدمة وقد اخذت كافة حكومات العالم في هذا العصر بهذه النظرية الحكيمة ومن جملتها حكومتنا المؤيدة فوضعت نظاما للتفتيش العدلي واسست دائرة خاصة لهذا الغرض في (وزارة العدلية) يرأسها احد اكابر الموظفين العدليين وقد كان لهذه المؤسسة الاثر الحسن في تحسين سير المحاكم في العراق وتقويم المعوج من تصرفات كتابها وهكذا الحال في جميع الممالك العالية وهذا ما يدلك على ان امير المؤمنين علياً [ع] قد وضع دستوراً من ارقى الدساتير الحديثة لتنظيم مملكته في ذلك العصر عصر بدء النشأة

الأسلامية . والذي ينظر الى الجملة التي تلي الجملة المتقدمة يجد انه عليه السلام قد أوصى عامله باهم ناحية من نواحي اصلاح القضاء وترقيته وذلك بترفيه حال الحاكم وتأمين رغد العيش له بان يفرض له العطاء الواسع حتى يكون ما يأخذه كافياً لمعيشة مثله وحفظ منزلته وليملأ (الراتب) الكافي غلته ويتعفف به عن المرافق والرشوات . وفي سبيل هذه الفكرة الاصلاحية طلب عليه السلام الى عامله بقوله (وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس) وقد مشت اكثر الحكومات في الشرق والغرب على هذه القاعدة في اصلاح المحاكم والحكام واحسن مثال نضربه للقارئ في هذا الباب وضع القضاة في انكلترة وما لهم من الضمانات الكافلة لاستقلال القضاء التام وها اننا ننقل النبذة الآتية(١) ليس في الحكومة الانكليزية وظيفة تعادل في مركزها ومرتبها مركز قاضي بالمحكمة العليا فقد احيطت بكافة الضمانات التي تكفل لصاحبها الاستقلال التام فمرتبها ثابت قدره خمسة آلاف جنيه يعادل مرتب رئيس الوزراء ومركزها في العاصمة لا ينقل القاضي منها وهو غير قابل للعزل لسبب ما ولو لمرض او شيخوخة الابناء على قرار من مجلس البرلمان . ويتلو منصب قاض بالمحكمة العليا منصب قاضي محكمة مديرية او قاض جزئي فكلاهما يعين بمرتب ثابت قدره الف وخمسمائة جنيه وهو مثل مرتب وكيل وزارة . ويعين لمحكمة معينة فلا ينقل منها الى غيرها ، مثلا يعين

(١) عن كتاب النظام القضائي في انكلترا .

قاضي محكمة مديرية ليفربول فيبقى فيها الى ان يعتزل او يموت ولا يجوز عزله الا لعدم الجدارة أو لسوء السلوك وبعد تحقيق تسمع فيه أقواله .

ولا يرقى قضاة محاكم المديريات والمحاكم الجزائية الى المحكمة العليا مرة ورقى الوزير غلادستون قاضي محكمة مديرية الى قاض بالمحكمة العليا فانتقد عليه مجلسا البرلمان ولم يتكرر ذلك من بعد وعدم ترقية قضاة المحاكم الدنيا الى المحكمة العليا ضمان آخر حتى لا يتزلف القضاة من الوزراء .

ورواتب القضاة هي(١) لقاضي القضاة مرتب ثابت قدره ٨٠٠٠ جنيه في العام وحافظ الجداول ٦٠٠٠ جنيه ووزير الحقانية اي العدلية ١٠٠٠٠ جنيه منها ٦٠٠٠ بصفته قاضياً و ٤٠٠٠ بصفته رئيساً لمجلس اللوردات ولكل قاض من قضاة المحكمة الكبرى ٥٠٠٠ جنيه في العام ، في حين ان مرتبات الوزراء تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ جنيه ويعطى لكل قاض من قضاة محاكم المديريات والمحاكم الجزئية ١٥٠٠ جنيه في العام وهذا يعادل مرتب وكلاء الوزراء .

اما حكومتنا الموقرة فقد شعرت اخيراً بهذا النقص وقدرت مركز الحكام والقضاة وما يتطلب لهم من ترفيه وسمو منزلة فخصصت وزارة العدلية في ميزانيتها لهذه السنة ٩٣٧ (٥٠٠٠) دينار لأجل ترقية المستحقين من الحكام وتعديل الدرجات الدنيا من درجاتهم . ويفهم

(١) عن كتاب : الانكليز في بلادهم .

مما تقدم ان القاعدة التي وضعها الأمام علي ﴿ ع ﴾ قبل الف وثلاث مئة وعشرين سنة بشأن لزوم تقليل حاجة الحاكم وتحسين وضعه المالي قد أيدتها احدث القوعدا والنظريات فى ارقى امم الأرض(١)

اما الجملة الأخيرة مما سطرناه من كلام الامام « ع » فهي قد نصت على تشريع استقلال المحاكم والضمانات الكافلة لاستقلال القضاء التام فانه عليه السلام يأمر عامله ﴿ واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدين قد كان اسيرا فى أيدي الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا ﴾ وان من يتأمل هذه الفقرات الفصيحة واسرارها التشريعية يجدها قد تضمنت قاعدة هي من اهم

---

(١) قال ابو يوسف في كتاب (الخراج) :

وسألت من اي وجه تجري على القضاة والعمال الارزاق ؟

فاجعل - اعز الله امير المؤمنين بطاعته - ما يجري على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين من جباية الارض او من خراج الارض والجزية لأنهم في عمل المسلمين فيجري عليهم من بيت مالهم ويجري على كل والي مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل ، وكل رجل نصيره في عمل المسلمين فاجر عليه من بيت ما لهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً الاوالي الصدقة فانه يجري عليه منها كما قال الله تبارك وتعالى « والعاملين عليها » فاما الزيادة في ارزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم فذلك اليك ، من رأيت ان تزيده في رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت ارجو ان يكون ذلك موسعاً عليك ، وكل ما رأيت ان الله تعالى يصلح به امر الرعية فافعله ولا تؤخره فاني ارجو -

القواعد الدستورية التي تناولها التشريع الحديث فى هذا العصر لحماية المحاكم من التأثير والتدخل في شؤونها وقد نصت المادة « ٧١ » من القانون الاساسي العراقي (المحاكم مصونة من التدخل في شؤونها) كما ان المادة « ٦٨ » منه نصت : ﴿ يعين الحكام بارادة ملكية ولا يعزلون الا في الاحوال المصرحة فى القانون المخصوص المبينة فيه شروط اهليتهم ونصبهم ودرجاتهم وكيفية عزلهم . ﴾

اما النظام القضائي في انكلترا وهو اعلى نظام موضوع فى الدنيا فقد وضع لاستقلال المحاكم وضمانات الحكام قواعد مهمة هي اكثر انطباقا للعهد الذي حرره امير المؤمنين علي [ع] لعامله لتنظيم اصول الحكم في مصر سنة ٣٧ هج واليك مجمل ما تناوله النظام القضائي الانجليزي

- لك بذلك أعظم الاجر وافضل الثواب .

واما قولك يجري على القاضي اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبني هاشم وغيرهم من الذي يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم فلا ، انما يعطى للقاضي رزقه من بيت المال ليكون قيماً للفقير والغني والصغير والكبير ، ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع اذا صارت اليه مواريثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجري للقضاة الارزاق من بيت مال المسلمين . فاما من يوكل بالقيام بتلك المواريث في حفظها والقيام بها فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه . لا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والامناء ويبقى الوارث هالكا ، وما اظن كثيراً من القضاة والله اعلم يبالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي اكثر من معهم ان يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث الا من وفقه الله منهم .

في هــذا البـاب : يعين جميع القضاة(١)من المحامين الذين مارسوا مهنتهم سبع سنين على الاقل للمحاكم الدنيا وعشر سنين على الاقل للمحكمة العليا والواقع ان متوسط معدل ممـارسة المحاماة لمن يعين قاضياً بالمحكمة العليا يختلف من ثماني عشرة سنة الى خمس وثلاثين سنـة ومتوسط سن القضاة عند تعيينهم ثلاث وخمسين سنة ويختلف من الرابعة والاربعين الى الحادية والستين .

ولا يرقى قضاة طبقــة الى ما فوقها ، فقاضي محكمة المديرية والقاضي الجزئي يبقى في مرتبته طول حياته وفي محكمة واحدة وبمرتب واحد لا يزاد عليه وقدره الف وخمسمائة جنيه فى السنة وكذلك مرتب قضاة المحكمة العليـا مقرر لا يزاد عليـه وقدره خمسة آلاف جنيه فى السنة الا قاضي القضاة فمرتبه ثمانية آلاف جنيه فى السنة ونائب المحكمة مرتبه ستة آلاف جنيه فى السنة .

فنقصر تعيين القضاة على المحامين واكبار مرتباتهم وعدم ترقية قضاة المحاكم الدنيا الى المحكمة العليا يسهل على الحكومة انتخاب قضاة المحكمة العليا من اساطين القانون من كبار المحامين الذين اشتهروا بالعلم والجد وحسن السمعة وهـذا يجعل القضاة في مركز يسمو بهم عن التزلف الى الوزراء طلبا لزيادة فى المرتب او للتنقل الى بلدة معينة وكيف يتزلف قضاة المحكمة العليا ومرتب القاضي منهم مثل مرتب رئيس الوزراء ويعلو عن مرتب بعض الوزراء .

(١) عن كتاب النظام القضائي في انجلترا .

هذا وان قضاة المحكمة العليا غير قابلـين للعزل لاي سبب ما ولو تعلق بعجزهم لمرض او عاهة عن اداء وظيفتهم الا بناء على طلب من مجلس البرلمـان وقضاة المحاكم الدنيـا قابلون للعزل لسبب سوء السلوك او عدم الكفاءة . ومالم يسيء أحدهم سلوكه فهو فى الواقع غير قابل للعزل وفى ذلك ضمان كبير لهم ولم يحصل في العصر الحديث ان عزل اي قاض من وظيفته .

اما معاش تقاعدهم فيختلف باختلاف درجات الحكام ولكن على كل حال لا يقل عن الف جنيه في السنة ولا يزيد على اربعة آلاف جنيه .

وان من يدرس النظام القضائي الانكليزي بالتفصيل يجده ينطبق تمام الانطباق على النظام القضائي المستمد من روح الشريعة الاسلامية السمحاء في صدر الاسلام وما بعده من زمن التابعين ودليلنا عهـد الامام « ع » الذي نحن بصدد شرحه . اما عندنا بخلاف ذلك فان تعيين الحكام والقضاة وامر نقلهم فهو بيد وزير العدليـة على ان يمر اقتراحه على لجنة الحكام والقضاة ليقترن بقرار منها وان كان الوزير له حق الاعتراض على قرارها وعدم الاخذ به عند الحاجة وان كان قانون الحـكام والقضاة لسنة ١٩٢٩ رقم ٣١ غير ملائم ولا يتفق مع القاعدة الدستورية التي تؤيد استقلال القضاء ويجمل بحكومتنا الرشيدة ان تأخذ بنظام القضاء الانكليزي وبذلك تجعل المحاكم والحكام في مأمن من الميول والاهواء اكثر مما هي عليه الآن من الصيانة والاستقلال .

اما الغرض المهم من استقلال المحاكم والذي توخاه الامام (ع) في

وصيته لعامله هو التوثق من عدالة الاحكام وصيانة الحقوق لأن المحاكم لا تكون مرجعاً موثوقاً به عند الناس الا اذا كانت مصونة من التأثير والنفوذ وهذا هو الغرض من استقلال المحاكم وقد نصت المادة الـ (٣) من قانون اصول المحاكمات الحقوقية المعمول به عندنا اليوم على ما يأتي :

« ان المحاكم جميعها مستقلة بفصل الدعاوى والحكم بها وبناء عليه لا يؤذن لأحد ان يتدخل فى امر رؤية الدعوى وفصلها . والاعلام الصادر من محكمة يبقى مرعياً ومعتبراً ما لم تفسخه او تنقضه بحسب الاصول والقانون تلك المحكمة او محكمة اخرى اعلى منها » واذا فهم هذا جيداً فهم معنى كلامه عليه السلام ان هذا الدين كان اسيراً بايدي الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا وفيه اشارة ايضاً الى ان وظائف القضاء كانت مسندة الى غير الاكفاء وهذا على حد الحديث الشريف القائل : — (من ولى احداً وفي رعيته من هو اكفأ منه فقد خان الله ورسوله وجماعة من المؤمنين .)

وصايا الخلفاء والحكماء (١)

في

شأن القضاة والقضاء

من كلام ابى الحسن امير المؤمنين على (ع)

« ترد على احدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الأمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً . وآلهم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد . أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فاطاعوه . ام نهاهم عنه فعصوه . ام انزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على اتمامه . ام كانوا شركاءه فلهم ان يقولوا وعليه ان يرضى . ام انزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول « ص » عن تبليغه وادائه والله سبحانه يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال : [فيه تبيان لكل شيء] ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وان القرآن ظاهره انيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه

(١) رأينا اتماماً للفائدة واستقصاء للبحث اتباع اغلب ابواب هذا الكتاب بمختارات من وصايا الخلفاء ومأثور الحكماء واقوال الملوك والعلماء مما يماثل كلام الامام علي (ع) وقد قالوا : اختيار الكلام اصعب من تأليفه . واختيار الرجل وافد عقله وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا * ن دليلا على اللبيب اختياره

ولا تكشف الظلمات الا به . »

وكتب ابو حفص عمر « رض » الى ابي موسى الاشعري :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى عبد الله بن قيس : سلام عليك ، اما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك ، وانفذ اذا تبين لك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبي « ص » ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد الى أقربها الى الله ، واشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة امداً ينتهي اليه ، فان احضر بينته اخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية ، فان ذلك انفى للشك . واجلى للعمى . وابلغ في العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد . او مجرباً عليه شهادة زور او ضنيناً في ولاء او نسب فان الله قد تولى منكم

السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . واياك والغلق(1) والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات . فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر . » الخ .

قال عمر بن عبد العزيز « رض » : اذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله . ونزاهة عن الطمع . وحلم عن الخصم . واقتداء بالائمة . ومشاورة اهل العلم والرأي . وقال : اذا اتاك الخصم وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه فلعله قد فقئت عيناه جميعاً .

وقال ابن شبرمة : —

ما فى القضاء شفاعة لمخاصم * عند اللبيب ولا الفقيه الحاكم
أهون عليّ اذا قضيت بسنةٍ * او بالكتاب برغم انف الراغم
وقضيت فيما لم اجد اثراً به * بنظائر معروفة ومعالم

احضر الرشيد رجلا ليوليه القضاء فقال له : اني لا احسن القضاء ولا أنا فقيه .

قال الرشيد : فيك ثلاث خلال : لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة . ولك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قل خطؤه . وانت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه . واما الفقه فسينضم اليك من تتفقه به .

---

(1) ضيق الصدر وقلة الصبر . واصله من أغلق عليه امره اذا لم يتضح ولم يتفتح .

قال الصفاني فى كتاب الفرائد والقلائد : « آفة القضاة شدة الطمع وآفة العدول قلة الورع وآفة العدل ميل الولاة »

وقال ابن المقفع فى رسالته « فى الصحابة » التي كتبها لابي جعفر المنصور : « ومما ينظر امير المؤمنين فيه من امر هذين المصرين(١) وغيرهما من الأمصار والنواحي ، اختلاف هذه الاحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها امراً عظيماً فى الدماء والفروج والاموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة . ويكون مثل ذلك الأختلاف في جوف الكوفة . فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى ، غير انه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ، يقضي به قضاة جائز امرهم وحكمهم ، مع انه ليس ممن ينظر في ذلك من اهل العراق واهل الحجاز فريق الا قد لجّ بهم العجب مما في أيديهم ، والاستخفاف بمن سواهم ، فاقحمهم ذلك في الامور التي تبيغ (٢) بها من سمعها من ذوي الالباب اما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنةً حتى يبلغ ذلك به الى ان يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم انه سنة ، واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان يقول هريّق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، او ائمة الهدى من بعده ، واذا قيل له : اي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك

(١) يريد بهما خراسان والشام .

(٢) تبيغ به الدم : هاج .

ابن مروان ، او امير من بعض اولئك الامراء . وانما يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من امر المسلمين قولا لا يوافقه عليه احد من المسلمين . ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه . وهو مقر انه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة .

فلو رأى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الاقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة او قياس ، ثم نظر امير المؤمنين في ذلك وامضى فى كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه(١) وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزماً . لرجونا ان يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ ، حكماً واحداً صواباً . ورجونا ان يكون اجتماع السير قربة لاجماع الامر برأي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر الدهر ان شاء الله .

فاما اختلاف الاحكام فإما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه

(١) وهذا الامر قد اشغل بال جميع الحكومات التي تولت الحكم عندنا ولكن مع شديد الاسف ان بعض الاحداث القاسية التى حلت عرقلت تحقيق هذه الفكرة الاصلاحية الضرورية المهمة بشأن وضع قانون مدني مستمد من الفقه الاسلامي الواسع يكفل اجماع الامة على حكم واحد حسب مقتضيات وحاجات العصر الحاضر دون الجمود على مذهب واحد من مذاهب المسلمين كما هي الحالة عندنا لأن المجلة الجليلة وهي قانوننا المدني مستمدة احكامها من المذهب الحنفي فقط . على اننا نستهجن قول من يقول بلزوم الاخذ باحكام قانون سويسره او غيره من القوانين الغربية .

يدبره قوم على وجه ويدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه الى أحق الفريقين بالتصديق ، وأشبه الامرين بالعدل . واما رأى اجراه اهله على القياس ، فاختلف وانتشر بغلط في اصل القياس . وابتداء امر على غير مثاله . واما لطول ملازمته القياس فان من أراد ان يلزم القياس ، ولا يفارقه ابداً فى امر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات . وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره ، فابى ان يتركه كراهة ترك القياس . وانما القياس دليل يستدل به على المحاسن فاذا كان ما يقود اليه حسناً معروفاً اخذ به . واذا قاد الى القبيح المستنكر ترك ، لأن المتيقن ليس عين القياس يبغي ؛ ولكن محاسن الامور ومعروفها وما ألحق الحق باهله ، ولو ان شيئاً مستقيما على الناس ، ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك . ولا يعتبر بالمقاييس فانه لو اراد ان يقوده الصدق لم ينقد له وذلك ان رجلا لو قال : أتأمرني ان اصدق فلا اكذب كذبة ابداً ؛ لكان جوابه ان يقول : نعم لو التمس منه قود(١) ذلك فقال : أأصدق في كذا وكذا حتى يبلغ به ان يقول : أأصدق في رجل هارب استدلني عليه طالب ليظلمه فيقتله . لكسر عليه قياده . وكان الرأي له ان يترك ذلك ، وينصرف الى المجتمع عليه المعروف المستحسن(٢) ومما كتبه

(١) القود : القيادة والمعنى ان يتابع الصدق في كل ما يقول .

(٢) نقلنا كلمة ابن المقفع من رسالته « الصحابة » المنشورة في جمهرة رسائل العرب للاستاذ أحمد صفوة المصرى .

طاهر بن الحسين الى ابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما سنة (٢٠٦ هـ) :

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الامور لانه ميزان الله الذي يعتدل عليه الاحوال في الارض ، وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية . وتأمن السبل ؛ وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم . وتحسن المعيشة . ويؤدى حق الطاعة . ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء ، واشتد في امر الله وتورع عن النطف(١) وأمض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق . واقنع بالقسم . ولتسكن ريحك ويقر حدك ، وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد(٢) في منطقك ، وانصف الخصم ، وقف عند الشبهة . وابلغ فى الحجة ولا يأخذك في احد من رعيتك محاباة ولا محاماة ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك وارأف بجميع الرعية ؛ وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن الى سفك دم . فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها . انتهى(٣) . . .

وجاء فى الباب السادس في ولاية القضاء من كتاب (الاحكام

(١) العيب والشر والفساد .

(٢) سدد يسدد كضرب : صار سديداً .

(٣) عن جمهرة رسائل العرب لاحمد صفوة . .

السلطانية) للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هج ما يأتي : ــ

وليس لمن تقلد القضاء ان يقبل هدية من خصم ولا من احد من اهل عمله وان لم يكن له خصم لأنه قد يستعد به فيما يليه. روى عن النبي ﴿ ص ﴾ انه قال : هدايا الأمراء غلول فان قبلها وعجل المكافأة عليها ملكها وان لم يعجل المكافأة عليها كان بيت المال أحق بها ان تعذر ردها على المهدي لانه اولى بها منه وليس للقاضي تأخير الخصوم اذا تنازعوا اليه الا من عذر ولا يجوز له ان يحجب الا فى اوقات الاستراحة وليس له ان يحكم لاحد من والديه ولا من أولاده لأجل التهمة ويحكم عليهم لارتفاعها و كذلك لا يشهد لهم ويشهد عليهم ويشهد لعدوه ولا يشهد عليه ويحكم لعدوه ولا يحكم عليه لأن اسباب الحكم ظاهرة واسباب الشهادة خافية فانتفت التهمة عنه فى الحكم وتوجهت اليه فى الشهادة . واذا مات القاضي انعزل خلفاؤه ولو مات الامام لم تنعزل قضاته ولو اتفق اهل بلد قد خلا من قاض على ان قلدوا عليهم قاضياً فان كان امام الوقت موجوداً بطل التقليد وان كان مفقوداً صح التقليد ونفذت احكامه عليهم فان تجدد بعد نظره إمام لم يستدم النظر الا باذنه — ولم ينقض ما تقدم من حكمه(١)ــ

(١) وقد تقابل هذه القاعدة قاعدة « القانون لا يشمل ما قبله » في التشريع الحديث . فتأمل .

انتقاء الموظفين الأداريين

الاصل : « وامره ان يكسر نفسه في الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس امارة بالسوء الا ما رحم الله .

ثم اعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت او كرهت واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والعطف فيهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم فانهم صنفان اما اخ لك في الدين او نظير لك فى الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على ايديهم فى العمد والخطأ فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالي الامر عليك والله فوق من ولاك » انتهى

من منا لا يعجب بل لا يندهش حينما يسمع برجل وجد في التاريخ الذي وجد فيه الامام علي (ع) يسرد مزايا الرجل في تلك العصور الخالية ؛ التي وسمها الغربي او المستغرب بعصور الظلمة والخرافات .

أجل قضى المتأخرون ردحا من الزمن خلفوا في أثنائه المجلدات الضخمة والتآليف والمصنفات الجمة فكان كل منهم يردد صدى أقوال صاحبه او شيخه مقلدا فيما ذهب به سلفه يقدم المقدمات المسهبة ويضرب الامثال الكثيرة المطنبة ويغالي في الاقيسة المنطقية بلا اجالة فكر وامعان نظر فاذا اراد ان يبرهن على شيء لم يجد إلا برهاناً منطقياً جامداً وعلة فلسفية باردة ، فتفنن فيها الخلف اقتداء السلف مع المحافظة على الجوهر ، ولكن الغربي الذي اعتاد ان لا يصدق إلا بما يقع تحت حسه بل يستحيل ان يؤمن بما لم يره أو يذعن للدليل البعيد وان تجاوز حد التواتر فتراه يفر من كل شيء لم يخرج منه نتيجة مثمرة فراره من الاسد وليس الذنب بنظر الحقيقة الا على اولئك الذين لم يتطوروا مع مأجريات الزمن حتى جمدت ادمغتهم وتحجرت الى ان اصبح المسلم المتفرنج يرغب بالشريعة السويسرية الخرقاء بدلا من الاسلامية السمحاء جاهلا ما في الشريعة الاسلامية من القواعد والنظريات في الحقوق والاجتماع والاخلاق والفلسفة ما يعتبر اكبر معجزة لرجال العصر الحاضر وأعظم مأثرة تمتاز بها القرون الاخيرة عن سابقتها وما ولدته من الحضارات والمدنيات .

لنضرب مثلا لابن المدنية الحاضرة رجلا عاش في القرون الوسطى التي يسميها بالظلمة والتوحش يسن للمسلمين ما يعد اليوم آخر ما وصلت اليه ادمغة علماء الاجتماع في احدث فن من الحقوق التي لم تدون الا بعد مجهودات طويلة وسنين عديدة وارتكزت على قواعد شتى وتتبعات متتالية الا وهي (الحقوق الادارية) الحديثة النشأة ولا شك انه يندهش ايما دهشة حينما يسمع بذلك الرجل وليد القرون الوسطى يملي على عامله مالك الاشتر النخعي (رض) نظريات الحقوق الادارية التي لا يستغني عنها اي موظف اداري في عصرنا هذا ، ذلك الرجل هو صاحب النبي الأمي ، وصهره ؛ وابن عمه علي بن ابي طالب عليه السلام .

لنرجع الآن الى تحليل كلامه الحكيم المحكم البليغ ونعتقد اننا في غنى عن تفسير « كسر النفس عن الشهوات » التي هي والتعفف في الموظف الاداري على طرفي نقيض ، إذ من المستحيل ان يكون عفيفاً متى استرسل مع شهواته وانقاد الى نفسه الأمارة بالسوء المغترة بالأمارة والجاه الطويل العريض وهل معنى إيصائه بردع نفسه عن الجمحات الا تحذيره من التهور في المسائل الادارية وان يتصف بالمتانة والتبصرة المشترطتين في كل رجل اداري ؛ والثبات فيما يتخذه من المقررات في المشكلات الادارية وبعد ان ذكر له ما يجب ان يتصف به ألمع إلى تأريخ مصر وما تقلبت فيها من الاحوال وما مرت عليها من القرون الحافلة بالحوادث المتباينة والمملوءة بعبر التاريخ وعظاته .

أجل لقد كلف عامله ان يضع أمام عينيه ماضى مصر ليأخذ من حوادثه ودروسه ما يصلح به حاضرها ويؤمن مستقبلها بتوطيد الكيان على اساس العمل الصالح مشيراً إلى ان الأعمال الصالحة والمساعي النافعة هي التي يجب ان تكون غرض كل امرء في الحياة فيخلد له الذكر الجميل ويترك الاثر الطيب قائلا : « اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور » فكأنه قد ذكره بانك مفارق منصبك العالي هذا لا محال فاما العزل أو المنية التي لا بد منها ومن العلل لكف الأنسان عن الاعتداء عدم الأقتدار فخاف ﴿ ع ﴾ حين خوله السلطة المطلقة على تلك الارجاء الفسيحة الواسعة، الوفيرة الثروة والخيرات ان تغلب عليه الغريزة البشرية فيرى نفسه فوق من ولي عليه او ربما يظن انه لا يصح عليه الخطأ لما يداخله من الغرور والعجب وانه لولا مزاياه الفائقة الممتازة لما ولي هذا المنصب الرفيع الخطير . اذاً فيجب ان لا يسأل عما يفعل ومن هنا تحدث الفوضى المدمرة المحزنة ويستفحل داء الفساد لاضطراب حبل الامن الداخلي فدفعاً لوقوع الأمة وولاتها في شراك الفوضى قصد تذكيره بالعهد الذي كان فيه وهو « الرضا عن الولاة إن أحسنوا والسخط عليهم إن اساءوا » فاذا كان قد جاز له قبلا « بالنسبة لغيره » فيجب ان يجوز بالنسبة اليه ولذا قال : « وان الناس ينظرون من امورك فى مثل ما كنت تنظر فى امور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم » ولعمر الله ان ما يتشدق به الغربيون ويدعونه إفكا

من انهم وصلوا الى الحرية في القول وامتازوا على غيرهم بتحرير الافكار الى غير ذلك من المزاعم التي يزعمونها بانهم سبقوا الامة العربية فيما احتوته قوانينهم الاساسية من الآراء والنظريات الحديثة ، وها هو الامام ﴿ ع ﴾ يأمر عامله باتباعه وكذلك من كان قبله من الخلفاء الراشدين بصريح اللفظ وفصيح البيان حيث اجاز للمنتقدين إذا رأوا ما يخالف العدل في اعمال من ولي عليهم ، وأمره ان لا يغضب فيعاقب من رأى في سلوكه الشذوذ عن السبل الواضحة والحيد عن القسطاس المستقيم ، وعرّفه ان الموظف الاداري تتحقق كفاءته ومقدرته على إدارة دقة الامور اذا رضى عنه من ولي عليهم فقال ﴿ ع ﴾ « وان ما يستدل على الصالحين بما يجري الله على السن عباده » ونحن نعلم ان الموظف الاداري قد ينفذ مادة من قانون الادارة فتستوجب عزله وابعاده عن مركز وظيفته ذلك لا لأن الحقوق الادارية كما يتوهمها البعض ممن لم يتذوق المعرفة كيفية وغير تابعة لسنن ثابتة وقواعد اصلية محكمة ، وانما وجهة نظر الحقوق الادارية دائمًا المصلحة العامة وارضاء المحيط الذي وضعت من أجله لهذا يجب على الموظف الادارى ان يتكيف بحسن تدبير وتصرف ويتبلور حسب الظروف التي تحيط به ولكن داخل الدائرة القانونية المرسومة لتأمين الحقوق واعلاء راية العدل على دعامة المساواة ، لأن الناس سواسية فى الحقوق كأسنان المشط ومثالا لذلك فلو ان (متصرفا) اليوم أمر بتحصيل الاموال الاميرية من بلاد نكبت

او فوجئت بكارثة او نجمت بنوازل فادحة قد يؤآخذ ذلك المتصرف وان كان ما عمله قد امر به القانون . لماذا ؟ لم تكن حركته فى جباية الأموال الاميرية فى تلك الآونة مما تجلب رضاه وارتياح الاهلين وتضمن مصالحهم ولانه حاول ان يكسب مرضاة نفر قليل من الشعب ، ولانه رغب ان يخدم الحكومة ويدع الامة التي وجدت الحكومة لخدمتها . وهكذا يعاقب الموظف الاداري الذي لا يجلب مرضاة الناس ويمسى معزولا عن منصبه وان لم يخالف القانون الاداري في اعماله وحركاته . فلذلك اعلمه عليه السلام (بانك ستعد عندي وعند الله صالحًا اذا جرى على ألسن الناس من اهل مصر جميل ذكرك وان سيرتك بين ظهرانيهم محمودة مرضية وألسنة الخلق اقلام الحق) ولا بدع فالحق امر اعتباري كالحسن والقبيح والضار والنافع وان ما اجمع الناس عليه انه حق فذاك هو الحق والعكس في العكس وهكذا كل امر من هذا القبيل .

نعم لاحظ عليه السلام ان امامه امر يستوجب التأكيد والاصرار اكثر من ذي قبل وبالخاصة انه جرى مع عماله كما جرى من قبله من تطبيق الاصول الادارية على قاعدة (توسيع المأذونية) المتبعة اليوم عند اكبر امم العالم حضارة وتقدمًا واشهرها بحسن الادارة تلك هي الامة البريطانية التي خيل للناس ان كل فرد منها اداري بالفطرة ولقد عزا البعض سر تقدم الانكليز الى هذا السبب نفسه . وقد كان الامام عليه السلام يعلم ان مصر كثيرة الخيرات عميمة الخصب وافرة

الثروة (والمال ما يميل اليه الانسان طبعًا) ارتأى ان الضرورة تقضي عليه بعد ان أعطاه المأذونية الواسعة فى منصبه الأداري ان يعرفه بان المال عرض يفنى وان اهم ما يجب ان يروم اليه العاقل المفكر ويتوخاه هو الصيت الحسن والذكر الحميد الشايع الجميل لعمله الصالح وبالطبع ان من اتبع هواه ارداه وشط بحكمه وحاد عن جادة الصواب . ومن المروءة بل الحكمة ان لا يتأثر من بيده مقاليد الأمور وصولجان الحكم بالمؤثرات النفسية فيكون عندئذ اظلم من الخصم وانه لمن منتهى العدالة الانصاف من النفس على أية حالة .

الموظفون الاداريون والثقافة الحقوقية

ان العارف المدقق والحقوقي المحقق يجد فى كلامه (ع) المتقدم أبلغ إشارة وأوضح دلالة على ضرورة تثقيف الموظفين الأداريين بالثقافة الحقوقية والتحلي بحلية الفضائل العلمية القانونية لعلمه عليه السلام ان معاملات الأفراد في المجتمع ذات شطرين هما (الحقوق والواجبات) وكذلك العلاقات بين الأمة والحكومة قائمة على هاتين الدعامتين وان كانت هذه الحقوق والواجبات التي توجبها مصلحة الدولة وطبيعتها تختلف عن تلك من حيث الماهية والمبادئ الأساسية التي ترتكز كل منها عليها . ولما كان تنظيم المجتمع متوقفاً على تأمين هذه الحقوق والواجبات سواء التي تحدث بين الأفراد انفسهم ام بين أفراد الامة والحكومة وحيث ان تأمينها لا يتم وصيانتها لا تتحقق إلا بالاخذ بمبدأ العدالة ومد رواق الامن وبث روح المساواة وذلك لا يتوصل اليه الا بمعرفة حدود الحق ومعرفة تطبيق القوانين والشرايع وحيث ان فكرة تأسيس الدولة قائمة على هذه الاسس والمبادئ وبدونها ينعدم وجود الدولة وينهار كيانها ويتداعى بنيانها ولما كان الموظف الاداري هو هو رجل الدولة وهو وحده المسؤول عن حفظ جسم الدولة لانه في الحقيقة هو حجيرته النامية فيه . فاذا عرف هذا ثبت بالضرورة وجوب تثقيف الموظفين الاداريين بالثقافة العلمية القانونية وتزويدهم بالمعارف الحقوقية ليتمكنوا من تأمين الحقوق والواجبات

بين أفراد المجتمع وتأمينها بين الامة والحكومة على المبادئ العلمية والاخلاقية والطبيعية والعرفية التي قررناها والتي تقتضيها مصلحة الدولة ودوامها فى عالم البقاء والحياة ومن هنا يعرف الفرق العظيم بين وجائب الموظف الاداري والعدلي فى الدولة اي ان الموظف العدلي يقوم بتطبيق القوانين داخل حدود مرسومة لا يتعداها وهو غير مكلف ومسؤول عما ينتجه توزيع العدل بين الناس اذ المحتم عليه ألا تأخذه في الحق لومة لائم وكذلك لا يهمه ان حدثت ثورة في المجتمع من جراء تطبيقه القانون او لا حتى لو اطبقت الخضراء على الغبراء بخلاف الموظف الاداري فهو معروض لشتى المشكلات الادارية ومهدد بصنوف كثيرة من الصعوبات في سبيل التوفيق بين المسائل الادارية والقانونية فهو مكلف بان يقوم باداء واجباته بوجه يكفل تطبيق القانون وتأمين مصلحة المجتمع معاً وقد ضربنا للقراء فى الفصل السابق ضروباً من الامثلة فى هذا الباب ونزيد هنا على سبيل الايضاح فنقول : ان القضايا الادارية في كل مجتمع تتلون وتتغير حسب رقي المحيط وانحطاطه وبدرجة تدرجه في مضمار الحياة وصعوده وهبوطه على سلم الحضارة والمدنية وعليه فان الموظف الاداري في الامس هو غيره اليوم فكان الناس في الامس الدابر وعلى الاخص فى عراقنا لا يقدرون ما للحرية الشخصية من قيمة ولا لحرية النشر والتأليف والحرية الفكرية من اهمية لهذا ترى ان الموظف الاداري على قلة بضاعته العلمية والقانونية ان لم نقل على كثرة خموله وجموده وشرهه ناجحاً في سلوكه

الاداري وهو يعد من قبيل (المضاربات التجارية) كما يقول احد اساتذة الحقوق الادارية عليه الرحمة .

وأهم عناصر الثقافة للموظف الاداري هو وقوفه على التطورات التاريخية والتشريعية التي مرت بالاقليم الذى يعيش فيه لان التاريخ وحوادثه الكبرى خير استاذ له ومعين على تفهم الاخلاق والعادات والعرف وسائر التقاليد الاجتماعية المهمة الملتصقة بمحيطه والتي هي مصدر الامراض الادارية وعلى قدر تبحره وسعة اطلاعه فى تاريخ امته ومحيطه يستطيع من معالجة الامراض الادارية والسياسية وحل ما يجابهه من المشكلات والمعضلات منها وعلى هذا الاساس لفت عليه السلام نظر مالك الاشتر ﴿ رض ﴾ الى تاريخ مصر وما دالت عليها من دول وحكومات وقد شرحنا الغاية من ذلك فيما تقدم وانك تجد ان في قول الامام عليه السلام (وأمره ان يكسر نفسه من الشهوات ويردعها عند الجمحات) ثم قوله (وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح) ثم قوله الآخر (فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك . فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما احبت او كرهت) صراحة كافية بالزام عامله على التمسك بالمبادئ القرآنية واهداب الشريعة الاسلامية والسنة المحمدية السنة التي هي بالنسبة الى القرآن بمنزلة النظام من القانون بالنظر الى الشرائع الموضوعة ولا ريب فى ان تمسك الموظف الاداري في القانون الاداري وقيامه

بتطبيقه كما تقتضيه رعاية المصلحة العامة هو المعني من كسر النفس من الشهوات وضبطها عند الجمحات كما لا يعتبر عمله صالحاً اذا هو خالف نصوص القوانين والأنظمة المشترعة للمجتمع اما جملة (فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك الخ) تأكيد للتمسك فيما احاته الشريعة والسنة والأخلاق الأسلامية الصحيحة والابتعاد عما حرمته وهكذا الموظف الأداري اليوم وفي كل وقت وفى اي وسط كان محتوماً عليه قانوناً ونظاما ان يتحلى بزينة العفة والنزاهة والترفع عن الدنايا وخساس الأمور وان يتسربل بسربال الفضيلة والاخلاق الحسنة الرفيعة وهذا لا يتأتى له غالباً إلا متى درس مبادئ القانون ونهل من منهل العلوم الحقوقية عامة والحقوق الادارية خاصة وبهذه الواسطة يتمكن من معرفة (الحقوق والواجبات) وطرق تأمينها على مبدأ العدالة ورعاية مصلحة الدولة معاً ومما يدعم ما بسطناه قوله عليه السلام (واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم فانهم صنفان اما اخ لك فى الدين او نظير لك في الخلق الخ . . .) وسنبحث في فصل آخر عن قيمة هذا الكلام من ناحية العدالة الاجتماعية المطلقة ان شاء الله تعالى .

واتماماً للفائدة نبسط بعض المقارنات بين نظام انتقاء الموظفين الاداريين الذي وضعته حكومتنا الموقرة لسنة ٩٣٥ وبين ما نحن بصدد شرحه من كلام الامام [ع] وبسط المبادئ الحقوقية التي سار عليها اساتذة الحقوق الادارية من فقهاء وفلاسفة ومقننين في الممالك الغربية .

لقد علم القارئ الكريم كيف استخرجنا من كلامه ﴿ ع ﴾ ضرورة تثقيف الموظف الاداري بالثقافة الحقوقية وقد اخذت بها المادة الـ (٣) من نظام انتقاء الموظفين الاداريين لسنة ٩٣٥ المتبع عندنا والقائلة :

ينتقى مدراء النواحي من بين : —

أ — متخرجي كلية الحقوق العراقية او أي مدرسة عالية .

ب — الاكفاء من الموظفين .

والفقرة (ج) من المادة الرابعة منه المختصة بتعيين القائمقامين والقائلة ﴿ الاكفاء من المتخرجين من المدارس العالية عند عدم وجود كفوء من مداراء النواحي على أن يكون قد مضى خمس سنوات على تخرجه على الاقل وكذلك المادة الـ (٥) من النظام المذكور اشترطت ان ينتقى المتصرفون من الاكفاء من :

أ — القائمقامين من الدرجة الثالثة او القائمقامين من الدرجة الرابعة . . . . وعند عدم وجود كفوء منهم يجوز تعيين الاكفاء من متخرجي المدارس العالية على ان يكون قد مضى على تخرجهم ثماني سنوات على الاقل وقد اشغلوا وظيفة في الدولة لا تقل درجتها عن الثالثة او ما يعادلها أو سبق تسنمهم منصباً وزارياً اما الفقرة ﴿ ب و ج ﴾ من المادة المذكورة فقد سوغتا انتقاء المتصرفين من اصحاب الدرجة الاولى والثانية ممن لهم خبرة ادارية .

وقد استثنت الفقرة الـ « ٢ » من المادة السادسة من النظام متخرجي

المدارس العالية اما العلوم التي يجري الفحص فيها فهي :

أ — تاريخ العراق والبلاد العربية والمجاورة .

ب — جغرافية العراق والبلاد العربية والمجاورة .

ج — معلومات عامة عن ادارة العراق واحواله الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

د — معلومات عن القوانين العراقية الادارية والمالية والجزائية

وقد نصت الفقرة ﴿ د ﴾ من المادة الثانية منه ان يكون طالب الوظيفة الادارية ﴿ حسن السلوك والسمعة وغير محكوم بجناية عدا الجنايات السياسية او بجنحة تمس الشرف كالسرقة والاختلاس والتزوير والاحتيال وما ماثلها ﴾(١)

فهذه خلاصة القواعد التي اخذ بها نظام انتقاء الموظفين الاداريين وترفيعهم الذي سنته حكومتنا الرشيدة في سنة ٩٣٥ م وهذا احدث تشريع في هذا الباب وان الحاذق اللبق ممن درس الحقوق واصول

---

(١) قال اياس بن معاوية المزني : ارسل الي عمر بن هبيرة فاتيته فما كلمني فسكت . فلما اكلمت قال : أيه . قلت : سل عما بدا لك قال : اتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : هل تفرض الفرائض ، قلت : نعم . قال : فهل تعرف من أيام العرب شيئاً ، قلت : نعم . قال : فهل من أيام العجم شيئاً ؟ قلت . أنا بها اعلم . قال : اني اريد ان استعين بك قلت : ان في ثلاثاً لا اصلح معهن للعمل . قال : ما هن ؟ قلت . أنا دميم كما ترى . وأنا حديد . وأنا عي . قال : اما الدمامة فاني لا اريد ان احاسن بك الناس . واما العي فاني اراك تعبر عن نفسك —

القوانين وتقنينها يدرك ان الشروط القانونية المطلوبة في توظيف الموظف الاداري قد تضمنها عهد الامام عليه السلام باجلى بيان وافصح تعبير وان اختلفت اساليب البيان وتراكيب الكلام في التشريعين وهذا عائد لروح العصر الذي عاش فيه الامام ﴿ ع ﴾ وعصرنا الحاضر بل ان الذي ذاق طعم الادب العربي وفنون اللغة العربية واساليبها البيانية يجد البون شاسعاً بين القواعد التي تضمنتها لغة العهد والقواعد المقررة في لغة التشريع الحديث ، لانك تجد المرونة القانونية التي احتوتها لغة عهد امير المؤمنين ﴿ ع ﴾ لا تدانيها مرونة وهذه لا تأتي إلا لمن اوتي الحكمة البالغة وفصل الخطاب . هذا عدا ان لغة العهد قد جمعت اصولا دقيقة فى تشريع القوانين الادارية وعلم الدولة باوجز عبارة وابلغ اشارة مما يحتاج الى شرحها وتفريعها تأليف مجلد ضخم بلا مغالاة .

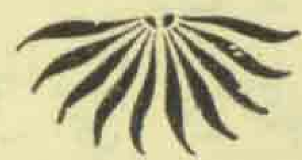
وصفوة القول ان الفشل حليف كل موظف اداري لم يثقف تثقيفاً علمياً كافياً او لم يرزق النصيب الوافر من الوقوف على الدروس الحقوقية

ـ واما سوء الخلق فيقومك السوط . قم . قد وليتك قال : فولانى واعطاني الفي درهم .

فانظر الى هذا الحديث الذي يدلك بوضوح الى اهتمام الاوائل بالناحية الثقافية التي يجب توفرها في موظف الدولة . وهي أهم ناحية من نواحي الكفاءة . واما غيرها فلا وزن لها عندهم . فما احرانا باتباع هذه السنة اليوم ! !

عن عيون الاخبار « ج ١ ص ١٨ »

والاضطلاع بالوجائب القانونية العديدة : ولا بد ان تكلل اعماله بالخيبة والخسران ان لم يكن ماهراً وعالماً بمقتضيات التأليف بين العلائق القانونية والصالح العام اذ قد تكون تصرفاته فى القضايا الادارية ضارة بمصلحة الشعب أعظم مما يؤمل منها سعادته او انها قد تؤدي الى هظم حقوق بعض الأفراد التي لم تكن في حسبانه وذلك رغم ما تجهز به من دربة ودراية فائقة على انه لا ينكر ان بعض المشاكل الادارية قد لا يحتاج حلها الى علم غزير في فنون الادارة والحقوق بل الى التدبير والحنكة والبذم(١) الاصيل الراجح اكثر في بعض المواقف الحرجة خاصة التي تحدث في الاوساط المتأخرة في الحضارة بيد ان وقوع هذه الاحوال ومعالجتها بالاختبار الاداري التجريبي يعد من الشذوذ والشاذ لا يبنى عليه حكم بل الطريقة المثلى للادارة العادلة هي كما قدمنا آنفاً .



(١) البذم : الرأي والحزم

الأدارة الكاملة

في عهد الامام علي وفى القانون الاداري الحديث

غرض القانون الاداري ، تعريفه ، موقف الشريعة الاسلامية منه ، ما هي العدالة ، ما هو العدل ، من هو الاداري العادل ، صفاته ، التعريف الفلسفي للفضيلة ، مبدأ التعاون الاجتماعي والانساني في شريعة القرآن والشرائع الغربية الحديثة ، تعريف العمد والخطأ في المذهب الفلسفي ، نظرية السرف في الحقوق في التشريع الحديث .

والآن نعيد النظر من جديد في الفقرات المتقدمة من كلام أبي تراب [ع] لنتحقق جيداً عما اذا كانت تضمنت قواعد علمية قانونية في الأدارة وهل احتوت على اصول تشريعية تسوغ لنا ان نطلق على ادارة ابن ابي طالب بالادارة الكاملة وما هي الاركان والحدود التي يجب ان تتوفر ليصح تعريفها بهذا التعريف الوجيز ومن ثم ما هي قيمتها من مصادر القانون الاداري الجديد من الوجهتين العملية والنظرية . واذا كان واجب التحقيق والتعمق في البحث يستلزم بل يحتم ذلك فعلينا اذن قبل كل شيء أن نمهد التمهيدات الكافية ليستطيع النابه من معرفة وتقدير تلك القواعد والحدود والأركان التي قامت على أسسها الادارة في الصدر الأول من الاسلام بعد ان اطلع على ما يجب أن يكون عليه الموظف الاداري من التثقيف من الناحية العلمية اما الفضيلة الاخلاقية والتهذيب الكامل اللازمان لحكام الادارة فا لبحث عنهما في هذا الفصل ما فيه الغناء التام للمتتبع اللامع .



ان من أهم الاهداف التي يجب ان يتوخاها واضع القانون في كل مجتمع مهما كان سعيداً أو تاعساً هو سعادة الرعية وصيانة حقوقها الطبيعية منها والمكتسبة مع رعاية الصالح العام وعلى هذا اجمع المتأخرون من جهابذة علماء الحقوق وفلاسفتهم بان اكمل القوانين الوضعية واضمنها للحق والعدل ما كانت محققة للخير العام ومنعشة لروح المساواة بين طبقات الامة على ما عليها من الاختلاف والتفاوت وما بينها من الفوارق في الجنسية او المذهبية ولأجله قالوا ان الرابطة بين القانون الوضعي والقانون الطبيعي والاخلاقي يجب ان تكون متينة محكمة وان اختلفت طرق تطبيقها من حيث النتيجة لأن طريقة تنفيذ القانون الوضعي هي الالجاء والقوة اما الاخلاقي فاختيارية محضة واما الطبيعي فيركن الى تطبيق قواعده عند عدم النص في القانون الحكمي أو عدم كفاية صراحته أو غموضه وقد اخذ بهذا الاصل القانون المصري(١) وبهذه الاعتبارات تكون الشريعة الاسلامية ممتازة كل الامتياز عن غيرها من الشرائع الالهية والوضعية وذلك للصبغة التشريعية التي انفردت بها والتي هي سر بقائها الى اليوم واستمرارها الى ماشاء الله لانها شريعة الفطرة ولانها ملائمة لروح العصور ومسايرة للمدنيات البشرية باختلاف الاصقاع والبقاع أي انها كافلة لسعادة الفرد ولخير

---

(١) المادة « ٣٤ » من لائحة ترتيب المحاكم المختلطة و [١١] مدني مختلط على ان القاضي يقضي بقواعد العدل والانصاف اي قواعد العدل والقانون الطبيعي . [عن اصول القوانين لمحمد كامل مرسي وسيد مصطفى]

المجتمع العام لما سن فى نصوصها من قواعد الحرية والمساواة والعدل والحق بدون تمييز وتفريق بين الأجناس والمذاهب والأديان كما انها جاءت باسمى المبادئ الأخلاقية فى سبيل محاربة الفحشاء والمنكر وخدمة الفضيلة وقمع الرذيلة فى المجتمع الأنساني وهي بهذه الأصول التشريعية الشريفة قد اصبحت مصدراً عذباً نقياً ومنبعاً صافياً لشتى النظريات الحقوقية سواء بالنسبة للقانون الحكمي أو الاخلاقي أو الطبيعي وعليه فان علماء اصول القوانين قالوا(١)﴿ وبالنسبة للشريعة الاسلامية فان أحكامها لم تكن قاصرة على علاقة المخلوقين بالخالق ، بل انها تعدت ذلك وشملت كل الاحكام التي شملتها القوانين الوضيعة في البلاد المختلفة من أحوال شخصية ومعاملات ، وعقوبات ، ومرافعات واحكامها تنفذ فعلا الآن بواسطة المحاكم ؛ وقد اقرتها القوانين الوضيعة ، فهي بذلك تختلف عن القوانين الآلهية بحسب الديانات الاخرى ، اي الغير الاسلامية ﴾

وقد اردنا من هذا التمهيد المختصر ان يعلم القارئ الاريب ان من الوسائل المهمة لجلب السعادة للفرد وللمجتمع ودفع الشقاء عنهما ولاستقرار الراحة والطمأنينة في البلاد هو القانون العادل واعتدال الموظف الاداري المستقيم الذي يتولى تطبيقه فى الناس ونقصد بالاعتدال هو نزعة حب العدالة والامانة والصدق والاخلاص والنزاهة والعفة التي يجب ان تكون شعار الموظف الاداري ودثاره قبل غيره كما

(١) عن كتاب اصول القوانين صحيفة (٦٢)

بسطناه سابقاً وحيث ان القانون الاداري من جملة قوانين الدولة بل هو في مقدمتها لانه هو الذي ينظم العلاقات بين الامة والفرد واعمال السلطات العامة اي انه يحدد عمل السلطات التنفيذية ودرجاتها من رئيس الوزراء إلى أصغر موظف وكذلك يبحث عن علاقة السلطة المذكورة مع الافراد ويشمل ايضاً تطبيق القوانين والبوليس والجيش وإدارة الاموال العامة ونظام التعليم الخ . ويلحق بالقانون الادارى القانون المالي وهو يبحث في النظام الخاص بالمسائل المالية العامة كجباية الضرائب(١)فيجب والحالة هذه ان تكون العدالة هي الصبغة الغالبة للقانون الادارى كما قدمنا ، وما دام الأمر كذلك فهلا يجب علينا ان نعرف ما هي العدالة ؟ وما هو العدل ؟ ومن هو العادل ؟

لقد رأى علماء القانون (ان العدالة هي الرغبة الدائمية في منح كل شخص ماله . فايقاف الانسان عند حده واعطاء كل ماله بمقتضى القواعد التي رسمها القانون هي إقامة العدل . وقواعد الاخلاق تساعد في كثير من المسائل على بقاء الحقوق في يد اصحابها والمحافظة عليها من الاعتداء والطريقة الفعالة فى تحقيق المساواة والحرية ، اى في تحقيق العدل هي توحيد القانون اى ان يكون كل أفراد الهيأة الاجتماعية ملزمين به(٢)

وقد عرّف الفيلسوف (سيموندس) العدالة (بان يرد

(١) عن كتاب اصول القوانين الانف الذكر

(٢) عن كتاب اصول القوانين الانف الذكر

لكل ماله)(١)اما شيخ الفلاسفة سقراط فقد اعتبر(٢)أن فضيلة النفس المهذبة هي العدالة فلا تستطيع النفس اتمام عملها اتماماً حسناً دون سلامة فضيلتها وان العادل في نظره « هو الحكيم الصالح » والصادق الامين باعتبار العلاقات المتبادلة بين الحاكم والمحكوم . وأن السعي الحميد يؤدى إلى طلب الفضيلة والسعي الذميم الى الانغماس فى الرذيلة . وأن الأفضل للانسان ان يحكمه مبدأ إلهي عادل وغرض العادل الخاص حفظ التلاؤم بين الظاهر والباطن .

أما ارسطو فقد عرف العدل بانه(٣):الفضيلة التامة ولكنه ليس فضيلة مطلقة وشخصية محضة بل هو متعد الى الغير وهذا هو الذى يجعله في الغالب يشبه أن يكون أهم الفضائل « فما شروق الشمس ولا غروبها أحق منه بالاعجاب » ومن هنا يجيء مثلنا « كل فضيلة توجد في طي العدل » فضيلة تامة لأن صاحبها يمكنه ان يحقق فضيلة في حق الاغيار لا لنفسه فقط . وكثير من الناس من يستطيعون أن يكونوا فضلاء فيما يتعلق بهم شخصياً ، ولكنهم غير أهل للفضيلة فيما يتعلق بالاغيار لهذا أرى كلمة « بياس » مليئة معنى إذ كان يقول « السلطان محك الانسان » ان شر الناس هو ذلك الذى بفسوقه يضر نفسه والناس غير ان الرجل الاكمل ليس هو هذا الذي يستخدم فضيلته لنفسه بل هو ذلك الذي يستخدمها لغيره لأن

(١ و ٢) عن جمهورية افلاطون

(٣) عن كتاب الاخلاق (ج: ٢)

هذا أمر شاق دائماً . حينئذ لا يمكن ان يعتبر العدل مجرد جزء من الفضيلة بل هو الفضيلة كل الفضيلة وان الظلم الذي ضده ليس جزءاً من الرذيلة بل هو الرذيلة بتمامها .

ومن التعاليم العصرية في تعريف العدالة ما اعلنه (بودان)(١) { العدالة هي خدمة المصلحة العامة وهي تتطلب ضرورة استقامة الحكومة }

وعلى ضوء هذه النظريات الفلسفية والآراء العلمية القانونية المبسوطة نقوم بتطبيق ما أوصى به أمير المؤمنين [ع] عامله الاشتر والزامه ببث روح الادارة الكاملة فى الناس القائمة على فضيلة العدل والمساواة وتوحيد القانون اى اخضاع الجميع إلى اتباع الشريعة المحمدية { ص } ومبادئها العالية ومما يدلك على ذلك قوله (وأمره أن يكسر نفسه فى الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله) وقد طلب بهذا التعبير الوجيز الفصيح إلى عامله أن يغالب شهواته التي تسوقه إلى الهلكة فيمسك زمام نفسه ويزعها عن الاسترسال وراء الرغبات وان ضبط النفس على هذه الحالة قد أطلق عليه في اصطلاح فلاسفة الاخلاق { بالاعتدال } واليك ما قاله ارسطو الحكيم(٢)[يرتكب غالب الناس في أمر اللذات الخطايا والخطايا الاكثر تنوعاً لأن الناس الذين يسمون باسماء مختلفة

(١) عن كتاب علم الدولة الجزء الثاني لمؤلفه الاستاذ احمد وفيق المصري

(٢) عن كتاب الاخلاق صحيفة (٣٢١) الجزء الاول

كذلك تبعاً للشهوات التي تستولي عليهم فيجرمون سواء بحبهم أشياء لا ينبغي حبها، أم انهم احبوها بلا حدود ، أم بانهم يستمتعون بها بصورة غير مهذبة كما هو شأن العامي أم بانهم يستمتعون بها لا كما يليق الاستمتاع أو في وقت غير لائق وهكذا يقترف الناس عديمو الاعتدال افراطات من جميع تلك الجهات . فتارة يتلذذون باشياء لا يحق ان تلذ لهم لانها مكروهة وتارة فى الأشياء المباح الأستمتاع بها ويتجاوزون بالاستمتاع الحدود ويتعاطونه كما يتعاطاه أجفى الناس حسبنا هذا القدر في إيضاح ان عدم الاعتدال هو افراط في أمر اللذات وانه مذموم .

هذه خلاصة المناقشات في فلسفة الاعتدال الذى انطوى عليه تعبير الامام أمير المؤمنين ﴿ ع ﴾ ولكن يخال الانسان ان كلام الفيلسوف العظيم ارسطو جاء شارحاً لكلام أبي الحسن الذي هو أول تلميذ تخرج من مدرسة سيد البشر محمد ﴿ ص ﴾ بعد مئآت السنين من عهد ارسطو وافلاطون وسقراط .

هذا واذا عطفنا النظر الى التعريف الأول للعدالة كما بسطه فلاسفة القانون نراه مطابقاً تمام المطابقة ومتوافقاً أشد الموافقة لكلام أبي الحسن ﴿ وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن احب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما احبت او كرهت ﴾ فمن العمل الصالح الرغبة الدائمة في منح كل شخص

ماله . وايقاف الأنسان عند حده واعطاء كل ماله . بمقتضى القواعد التي رسمها القانون وذلك هو إقامة العدل وذلك من أهم قواعد الاخلاق التي تحتم بقاء الحقوق في يد اصحابها وصونها من العبث ، وخير فعال لتحقيق الحرية والمساواة انما هو العمل الصالح فالعمل الصالح إذن من ابرز الآثار لعدالة النفس واسطع صفات العدالة الاجتماعية ثم ارأيت كيف اثرت كلمة (بياس) « السلطان محرك الانسان » فى نفس ارسطو واعتبرها مليئة معنى وبنى عليها قوله في تعريف العدل وما فرع منه في معانيه وعدد من صفات الرجل العادل .

أليست هي كما قال أمير المؤمنين عليه السلام (الامارة مضامين الرجال) وكلامه لعامله الأشتر (ثم اعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور[1] وان الناس ينظرون من امورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم) (مؤداه انه يريد ان يكون عامله على حد الحديث الشريف) ﴿ يا ابن آدم حاسب نفسك قبل أن تحاسب ﴾ لأن الفقرة الأخيرة من كلامه وهي (فانك فوقهم ووالي الأمر عليك والله فوق من ولاك) مؤيد هذه الاشارة التي

---

(١) الجور خلاف الاستقامة في الحكم وهو اشد الظلم واقبحه تقول جار الحاكم في حكمه والسلطان في سيرته والجور العدول عن الحق وجار عن الطريق اذا عدل وانحرف ونقيض الجور العدل وهو العدول بالفعل الى الحق .

اشرنا اليها وان مدلول كلامه المتقدم يدلك بكل وضوح وجلاء انه اراد افهام عامله فى ان طابع العدل لم يكن فضيلة مطلقة وشخصية محضة فحسب وانما تعتبر من أهم فضائل الانسان اذا تعدى اثرها الى الغير ولهذا قال عليه السلام الامارة مضامين الرجال او كما قال بياس السلطان محك الانسان مشيراً اليه بان هذه الفضيلة التي كنت تراها معدومة فى غيرك من الولاة يجب ان تستخدمها فى سبيل الرعية وإلا فسوف يقولون فيك ما كنت تقول فيهم اذا أنت لم تقم بما يفرضه عليك سلطان العدل وفضيلته لان الرجل الاكمل ليس الذي يستخدم فضيلته لنفسه بل هو الذي يطعم ثمارها للغير .

ويترتب على هذا الفصل وجوب السير في الرعية من قبل اولي الأمر بقلب مليء بالرحمة مغمور بالعطف والرأفة زاهد بما في أيديهم من حطام الدنيا موفر عليهم حاجاتهم لأن من خصائص العدل أن لا يدفع الوالي الى التمسك بالحق(١) الى غاية التحرج المنكر ، بل هو على ضد ذلك يتخلى عنه ولو ان له من القانون نصيراً ، ذلك هو الرجل العدل وهذا الاستعداد الاخلاقي الخاص هو العدالة التي هي نوع من العدل : ولأجله خاطب الامام عامله الاشتر (واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والعطف فيهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم(٢) فانهم

(١) كتاب الاخلاق لارسطو الجزء الثاني صفحة ١٠٨

(٢) جاء في سيرة عمر بن عبد العزيز [رض] عن الفهري عن ابيه قال : ـ كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفيء فتناول ابن له صغير تفاحة فانتزعها من فيه فاوجعه فسعى الى امه فارسلت الى السوق فاشترت له ـــ

صنفان اما أخ لك في الدين او نظير لك في الخلق) ثم انظر يا رعاك الله الى جملة ـــ اما أخ لك في الدين او نظير لك في الخلق ـــ كيف قرر ﴿ ع ﴾ قاعدة تشريعية عامة مهمة في التضامن الاجتماعي بل التعاون الانساني قد استمدها من روح الشريعة الاسلامية السمحاء (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) ومن قوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ ومن قوله عز من قائل [ان الله يأمر بالعدل والاحسان] ومن الحديث المأثور الشريف « كلكم لآدم وآدم من تراب » ويقضي هذا الأصل التشريعي برفع الفروق والتمييز بين طبقات رعايا الدولة فى التمتع بحرياتهم المشروعة .

ثم أنظر الى مبادىء الشرائع الغربية ، شرائع مدنية قرن العشرين كيف سوغت لاكبر مؤسسة دولية وهي عصبة الامم والمحكمة (لاهاى) الدولية أن يفرضا على الدول الضعيفة في سنة ١٩١٩ و ٩٢٠ و ٩٢١ حماية الاقليات بينما آراء فلاسفتهم وفقهائهم المدونة توجب ان تكون

ـــ تفاحا . فلما رجع عمر وجد ريح التفاح فقال : يا فاطمة : هل اتيت شيئاً من هذا الفيء ؟ قالت : ـ لا . وقصت عليه القصة فقال : ـ والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما انتزعتها من قلبي لكن كرهت اذ اضيع نفسى بتفاحة من فيء المسلمين . (فتأمل) ! ! : وجاء في الحديث الشريف [اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم] رواه مسلم وغيره عن جابر .

الدولة مطلقة اليد والحرية في التصرف فيما يتعلق برعاياها دون اي استثناء لقاعدة الأقليات ولكن بالوقت نفسه قد اجمعوا تقريباً بلزوم التدخل فى حالة انتهاك حرمة الحقوق الانسانية والدينية في سبيل الغايات الاستعمارية الذميمة . هذا وقد أيد ارسطو الحكيم في كتابه الأخلاق (بان الانسان ما دام يجهل ما يفعل او ان يفعل غير مجهول ولكنه لا يتعلق بك بل اضطررت اليه بالقوة فهذا الفعل هو لا ارادي ويجري هذا المجرى كثير من الأشياء التي هي في مجرى الطبيعة العادي والتي نفعلها او تقع علينا ونحن على علم تام بعلتها دون ان يكون من قبلنا شيء ارادي او لا ارادي وعليه يمكن في المعاملات الاجتماعية ان يضر الانسان مواطنيه على ثلاث صور مختلفة مبدياً من الاضرار ما يرتكب جهلا وما هي إلا الاخطاء ووقع الامر على خلاف ما يفكر .

حينئذ متى وقع الضرر على رغم كل احتياط معقول فذلك هو النحس ومتى لم يكن بالضبط على رغم كل احتياط ولكن بلا سوء قصد فتلك هي الخطيئة أما الاضرار غير الارادية فان بعضها محل للعطف والاخرى لا محل لها ، بل حتى التي يأتيها بناء على جهل لكن جميع الخطايا التى ارتكبت لا بالجهل تماماً بل بعماية الشهوة التي ليست طبيعية ولا جديرة بانسان فهي جرائم لا تغتفر .

نعم هذا ما قرره ارسطو الفيلسوف بخصوص أعمال الانسان التي يأتي بها في العمد والخطأ وها هو أمير المؤمنين يبين لعامله هذا الحال

ويأمره ان يعطي الرعية من عفوه وصفحه بقوله (ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فاعطهم من عطفك وصفحك(١) مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه) غير ان الفرق بين النمطين هو ان ارسطو سار على النمط المدرسي والطريقة التي اتخذها الامام في عهده طريقة بلاغة ارشادية . وقد جاءت الفلسفة القانونية الحديثة مؤيدة لهذا الاصل وقررت قاعدة لها اهميتها التشريعية في علم الحقوق وهي : « نظرية السرف في الحقوق »(٢) وهذه النظرية عصرية شكلا ، ولكنها قديمة موضوعاً ولما كانت هذه النظرية قد تولدت عن الوقائع . فانها قد فرضت نفسها دواليك على الفقه والعلم والتشريع الوضعي إذ جعلت نفسها أداة للمشروعية والسلام الاجتماعي في محاولة اخضاع جميع الجهود الانسانية للاسراف القضائي شيئاً فشيئاً ولقد استطاعت هذه النظرية ان تغزو جميع ميادين القانون الداخلي والخاص والعام .

راجع ان اردت التوسع الجزء الرابع من علم الدولة للاستاذ المحقق أحمد وفيق المصري .

وتلخص النظرية [بمزاولة الحق مزاولة شاذة] .

(١) العفو يقتضي اسقاط اللوم والذم ولا يقتضي ايجاب الثواب ولهذا يستعمل في العبد فيقال عفا زيد عن عمرو الا ان العفو والغفران لما تقارب معناهما تداخلا واستعملا في صفات الله جل اسمه . والصفح التجاوز عن الذنب وترك مؤآخذة المذنب بالذنب ـ عن كتاب الفروق اللغوية ـ

(٢) كتاب علم الدولة الجزء الرابع صحيفة ٣٣٨ وما بعدها .

لا شك ان القارئ الكريم قد لاحظ معنا كيف ان عهد الامام علي (ع) الذى كتبه الى عامله سنة ٣٧ هـ حين بعثه والياً على مصر قد حوى أهم النظريات العلمية واصوب الآراء الفلسفية في الاخلاق والاجتماع واحدث المسائل القانونية في الحقوق الادارية ولاحظ كيف اصل اصولا حكيمة لا تزال محافظة على جدتها وروعتها فكان نصيبها الخلود على كر الجديدين .

وحباً بفائدة القارئ النبيل نثبت هنا ماله مساس في موضوعنا من كتاب له (ع) [اما بعد فان دهاقين اهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرهم اهلا لان يدنوا لشركهم ، ولا ان يقصوا ويجفوا لعهدهم . فالبس لهم جلبابا من اللين تشوبه بطرف من الشدة . وداول لهم بين القسوة والرأفة وأمزج لهم بين التقريب والادناء والابعاد والاقصاء ان شاء الله] وقد علق عليه العلامة الاستاذ محمد كرد علي بقوله : —

فيه جماع سياسة المخالفين والموافقين اذا جعله كل عامل دستوره في عمله .

فهل يا ترى ان صاحب هذا الكلام العالي في العلم والادارة والسياسة والحكمة والاصالة لم يعد من الساسة الماهرين كما يقول قصار البصر والبصيرة وهل تخفى هذه الحكمة السديدة وألق نورها على من له أقل مسكة من العقل اللهم إلا على الاجهر(١) الذي ينظر بعين الخفاش نعوذ بالله وحسب القارئ ما شرحناه من حكمته البالغة في الادارة الكاملة وفيه الكفاية لمن أمعن وتدبر .

(١) الذي لا يرى في النهار كالاعشى في الليل .

وصايا الخلفاء واهل الكياسة

حول

اقامة المملكة وحسن الادارة والسياسة

كتب امير المؤمنين علي « ع » الى بعض عماله : —

« اما بعد : فانك ممن استظهر به على اقامة الدين واقمع به نخوة الاثيم واسد به لهاة الثغر المخوف(١) فاستعن بالله على ما اهمك واخلط الشدة بضغث(٢) من اللين . وارفق ما كان الرفق ارفق . واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك الا الشدة . واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك وألن لهم جانبك . وآس بينهم في اللحظة والنظرة والاشارة والتحية . حتى لا يطمع العظماء في حيفك . ولا ييأس الضعفاء من عدلك . والسلام »

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يصلح لهذا الامر الا اللين من غير ضعف . القوي من غير عنف .

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه : كلكم يترشح لهذا الامر . ولا يصلح له منكم الا من كان له سيف مسلول ومال مبذول وعدل تطمئن اليه القلوب .

كتب الوليد بن عبدالملك الى الحجاج بن يوسف يأمره ان

(١) مظنة طروق الاعداء في حدود الممالك . (٢) بخالط .

يكتب اليه بسيرته فكتب اليه :

اني ايقظت رأيي وأنمت هواي . فادنيت السيد المطاع في قومه ووليت المجرب الحازم في أمره . وقلدت الخراج الموفر لأمانته وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً اعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري وصرفت السيف الى النطف(١) المسيء والثواب الى المحسن البريء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

قال ازدشير لابنه : يا بني ان الملك والعدل اخوان لا غنى باحدهما عن صاحبه فالملك أس والعدل حارس فما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع . يا بني اجعل حديثك مع اهل المراتب وعطيك لأهل الجهاد وبشرك لأهل الدين . وسرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول

وقالت الحكماء :

مما يجب على السلطان . العدل في ظاهر افعاله لاقامة امر سلطانه وفي باطن ضميره لاقامة امر دينه فاذا فسدت السياسة ذهب السلطان . ومدار السياسة كلها على العدل والانصاف . لا يقوم سلطان لاهل الكفر والايمان الا بهما ولا يدور الا عليهما مع ترتيب الأمور مراتبها وانزالها منازلها وينبغي لمن كان سلطاناً ان يقيم نفسه حجة السلطان . وليكن حكمه على غيره بمثل حكمه على نفسه فانما يعرف حقوق الاشياء من عرف مبلغ حدودها ومواقع اقدارها ولا يكون احد سلطاناً حتى يكون قبل ذلك رعية(٢)

(١) النطف . العيب والفساد . يقال هم اهل الريب والنطف .

(٢) كأنه يشير الى نظام الجمهورية .

وكتب ارسطو الحكيم الى الاسكندر : —

أملك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها فان طلبك ذلك باحسانك ادوم بقاءً منه باعتسافك . واعلم انك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب (بالمعروف) واعلم ان الرعية اذا قدرت ان تقول قدرت ان تفعل فاجتهد ان لا تقول تسلم ان تفعل .

قال معاوية :(١)

اني لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك ؟ قال : كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها .

كتب ملك الى ملك(٢): بما انتظمت مملكتك ، واستقامت رعيتك ؟ فقال في الجواب : بثمان خصال ، لم اهزل في امر ولا نهي ، ولا اخلفت موعداً ولا وعيداً قط ، وعاقبت للجرم لا للحقد ، ووليت للغناء لا للهو واستعملت قلوب الرعية من غير كره ، وسهلت الأذن من غير ضعف ؛ وعممت بالقوت ، وحسمت الفضول .

قال زياد : ما غلبني معاوية بشيء من امر السياسة الا في شيء واحد قيل ما هو ؟ قال : وليت رجلا (دستميسان) فكسر عليّ الخراج وهرب . فلحق بمعاوية فكتبت اليه أسأله ان يبعث به اليّ فكتب اليّ : أما بعد : فانه ليس ينبغي لمثلي ومثلك ان يسوس الناس بسياسة واحدة .

(١) هذا الكلام وما قبله اقتبسناه من العقد الفريد « ج ١ : ١٤ »

(٢) عن تذكرة ابن حمدون

ان نشتد عليهم جميعاً فنخرجهم . او نلين لهم فنمزجهم . ولكن تلي انت الفظاظة والغلظة . وألي انا الرأفة والرحمة . فاذا هرب هارب من باب وجد باباً يدخل فيه . ولقد نظر معاوية الى نفسه واختار احب السياستين واحبهما الى الناس . ومن عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما :

« واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وانما سمي اهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم . تأخذ منهم ما اعطوك من عفوهم(١) ومقدرتهم وتنفقه في قوام امرهم وصلاحهم وتقويم أودهم فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل . والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت واسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل . ولا يصرفنك عنه صارف . فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب . استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة في عملك . واحترزت النعمة من رعيتك . واعنت على الصلاح . فدرت الخيرات ببلدك . وفشت العمارة بناحيتك . وظهر الخصب في كورك فكثر خراجك وتوفرت اموالك . وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك . وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك . وكنت في امورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة . فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً . تحمد مغبة امرك ان شاء الله .

(١) اي الفضل من دخلهم

واجعل في كل كورة من عملك أميناً(١) يخبرك اخبار عمالك ويكتب اليك بسيرتهم واعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأمره كله وان اردت ان تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما اردت من ذلك . فان رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه . والا فتوقف عنه . وراجع اهل البصر والعلم ثم خذ فيه عدته . فانه ربما نظر الرجل في أمر من امره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك واعجبه . وان لم ينظر في عواقبه اهلكه ونقض عليه امره . فاستعمل الحزم في كل ما اردت . وباشره بعد عون الله بالقوة . واكثر استخارة ربك في جميع امورك وافرغ من عمل يومك . ولا تؤخره لغدك . واكثر مباشرته بنفسك . فان لغدٍ اموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه . فاذا اخرت عمله اجتمع عليك امر يومين فشغلك ذلك حتى تعرض عنه . فاذا امضيت لكل يوم عمله ارحت نفسك وبدنك واحكمت امور سلطانك

وولى المنصور رجلاً من العرب (حضرموت) فكتب اليه والي البريد : (انه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد اعدها) فعزله وكتب اليه(٢)

« ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك . ما هذه العدة التي اعددتها للنكاية في الوحش ؟ إنا انما استكفيناك امور المسلمين . ولم نستكفك امور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا الى فلان بن فلان . وألحق باهلك

(١) يقوم اليوم بهذه المهمة في الحكومة [المفتشون الاداريون]
(٢) عن كتاب جمهرة وسائل العرب للاستاذ احمد صفوة

ملوماً مدحوراً » .

وجاء في رسالة (الصحابة) لابن المقفع التي كتبها للمنصور :

« وقد علمنا علماً لا يخالطه شك ان عامة قط لم تصلح من أنفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها . وان خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، وانها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها ، وذلك لأن عدد الناس في ضعفهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ، ولا يحملون العلم ، ولا يتقدمون في الأمور فاذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ، ينظرون اليهم ويسمعون منهم واهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليها بجهد ونصح ومثابرة وقوة . جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم . وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغاً الى الخير كله وحاجة الخاصة الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك فبالامام يجمع الله أمرهم . ويكبت أهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم . ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والأيد (١) والمقال على من نكب (٢) عن سبيل حقهم » .

قال عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) : « أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير جهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترضن فيما لا يعنيه » .

وكتب الى أحد عماله : « أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل

(١) القوة (٢) مال وعدل .

أهل الحق ، يوم لا يقضي بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون » .

وكتب إلى عامله على اليمن : « أما بعد فاني اكتب اليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف احداث الموت ، حتى لو كتبت اليك أن أردد على مسلم مظلمة شاة ، لكتبت أردها عفراء أو سوداء ، فانظر ان ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني (١) » .

وكتب الى عامله على الكوفة (٢) : « انه يخيل إلي اني لو كتبت اليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت الي أضأن أم ماعز فان كتبت باحدهما كتبت الي أصغير أم كبير ، فان كتبت اليك ، كتبت الي أذكر أم انثى ، فاذا أتاك كتابي هذا في مظلمة فاعمل به ولا تراجعني » .

وكتب الى آخر : « انك تردد إلي الكتب فنفذ ما أكتب به اليك من الحق فانه ليس للموت ميقات نعرفه (٣) » .

قال أفلاطون : (٤) من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس .

وقال حكيم : (٥) من استعان بصغار رجاله ، على كبار أعماله ضيع العمل واوقع الخلل . ففوض كل أمر إلى أهله وابتدء في عقده وحله تأمن الزلل وتبلغ الأمل .

(١ و ٢ و ٣) تدلك على ان ادارة الامام عمر بن عبد العزيز كانت مبنية على توسيع المأذونية واللامركزية كما شعرت بضرورتها حكومتنا الرشيدة فقامت بتعديل قانون إدارة الالويه الذي سيرفع الى مجلس النواب القادم .

(٤ و ٥) عن كتاب لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ . .

وقال : فمن لم تقمعه بسياستك اطمعته فى رياستك وعد اضعف اعدائك قوياً . واجبن أضدادك جريا تكف الغيلة . وتأمن الحيلة .

وقال هذا الحكيم : ﴿ لا تصطنع من خانه الأصل ، ولا تستنصح من فاته العقل ، لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح . ومن لا عقل له يفسد من حيث يصلح وذلك مما يعز توقيه ويفوت تداركه وتلافيه واذا وليت فول الملئ الوفي الذي يحسن كفايته غناؤه ويجمل رعايته وفاؤه . ويعلم بواطن الأمور وظواهرها ويعرف موارد الاعمال ومصادرها . فالولاة أركان الملك . وخزان الملك . وحصون الدولة . وعيون الدعوة وبهم تستقيم الاعمال وتجتمع الاموال . ويقوى السلطان وتعمر البلدان . فان استقاموا استقامت الامور . وان اضطربوا اضطرب الجمهور ﴾ .

وقال آخر أربعة لا يثبت معها ملك : غش الوزير . وسوء التدبير وخبث النية . وظلم الرعية .

طبقات الهيئة الاجتماعية

قاعدة « الانسان مدني بالطبع » ، انواع الجماعات في نظر علماء الاجتماع ، وظائفها في المجتمع ، المعلم الاول لعلم الاجتماع في الاسلام .

رجع الى الاصل

(واعلم ان الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة . وكل قد سمى الله له سهمه . ووضع على حده وفريضة فى كتابه ، أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً) .

ان من العلوم الحديثة الخطرة الشأن « علم الاجتماع » وهذا العلم لا يزال فى مبدأ نشأته وإن ظهرت عدة مؤلفات قيمة لبعض الاساطين فى الغرب والشرق وكانت لجهودهم المحمودة ثمرات طيبة رفعت من شأن هذا العلم الجليل ونبهت أذهان النوابغ الى مكانته بين العلوم السياسية والاقتصادية والقضائية والاخلاقية وغيرها . وان اقدم من ألف بهذا العلم فى اللغة العربية

هو ابن خلدون في مقدمته وقد اعتبره بعضهم أول أستاذ كتب وبحث في موضوعاته في الشرق كما أن الفيلسوف الفرنسي « كونت » أول من صاغ عنوان علم الاجتماع في الغرب عام ١٨٣٩ وحدد موضوعه بدراسة الفرد من حيث تركيبه الفسيولوجي والعضوي وانفصالاته النفسية وملكاته الذهنية باعتبار انه الوحدة التي يتألف منها المجتمع (١) غير أن هذا النصل من العهد العلوي يثبت لابناء المشرقين ان غارس نواة هذا العلم وواضع سننه المطردة هو الامام ابن أبي طالب عليه السلام وذلك بعد البعثة المحمدية المشرقة .

من القضايا المسلّم بها والتي قررها طبقات الفلاسفة كافة وعلماء التاريخ والاجتماع هي : ان الانسان مدني بالطبع ومعناه خلق خلقة لابد معها من أن يكون منضماً الى غيره من بني نوعه ومتمدناً في مكان يعينه وليس المراد بالمتمدن ساكن المدينة ذات السور والسوق بل لابد ان يقيم في موضع مامع قوم من البشر وذلك لأن الانسان مضطر ومكره الى ما يأكله ويشربه ليقيم صورته ومضطر الى ما يلبسه ليدفع عنه أذى الحر والبرد والى مسكن يسكنه ليرد عنه عادية غيره من الحيوانات وليكون منزل له ليتمكن من التصرف والحركة عليه ومعلوم ان الانسان وحده لا يستقل بالأمور التي عددناها بل لابد من جماعة يحرث بعضهم لغيره الحرث وذلك الغير يحوك للحراث الثوب وذلك الحائك يبني له غيره المسكن وذلك البناء يحمل له غيره الماء وذلك السقاء يكفيه غيره أمر تحصيل الآلة التي يطحن بها الحب

(١) المقدمة في الاجتماع للاستاذ عبد الفتاح ابراهيم .

ويعجن بها الدقيق ويخبز بهـا العجين وذلك المحصل لهذه الاشياء يكفيه غيره الاهتمام بتحصيل الزوجة التي تدعو اليها داعية الشبق فيحصل مساعدة بعض الناس لبعض ولولا ذلك لما قامت الدنيا فهذا معنى قوله عليه السلام « انهم طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غناء ببعضها عن بعض . هذا ولنتوسع في البحث عن أسرار كلامه المتقدم من ناحيته العلمية على ضوء علم الاجتماع الحديث وسننه ومذاهب علمائه :

يقول الفيلسوف المعاصر (جوستاف لوبون) في كتابه « روح الاجتماع » : كان المؤثر في الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأي الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلاً في الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هي التي اصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذي يرسم للملوك خططهم وهو الذي يجهد الملوك في الاصغاء اليه وأصبح مصير الامم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات .

وان سلطة الجماعات هي وحدها التي لا يهددها طارئ بل هي تعظم وتنمو وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة .

ثم يقول : ان الاجتماع هو الذي ولّد في الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكاً تاماً فهو ثابت متين . والاجتماع هو الذي جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات « السنديكات » التي تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف

التجارة « البورصات » التي تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت في حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة .

والجماعات هي التي تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأي الا ما تراه اللجان التي انتخبتهم وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية :

اولاً الجماعات المختلفة العناصر وفيها	(١) الجماعات التي لا اسم لها كجماعات الطريق العام . (٢) الجماعات التي لها اسم خاص كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا .
ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها	(١) الافناء كالجموع السياسية والدينية وهكذا . (٢) الطوائف كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا . (٣) الطبقات كجموع الاوساط وجموع أهل الريف وهكذا .

ثم بيّن الفيلسوف المشار اليه بقول مفصل مميزات كل نوع من هذه الانواع كما عدد الامام « ع » باسهاب صنوف الجماعات ايضاً واهمية وظائفها في المجتمع . والذى يلاحظ كلام أمير المؤمنين ويقارنه بما قرره « لوبون » يجد مقدار البون بين الفلسفة الشرقية والغربية ومنه يدرك أن الشرق لا يزال أستاذ الغرب وان جهل الغرب أو تجاهل حق أخيه

ورأى من الفضيلة عقوق أساتذته العرب الاحرار .

أما الأستاذ (نيقولا حداد) فقد بحث في كتابه علم الاجتماع عن الطبقات الاجتماعية فى المجتمع تحت عنوان (أنواع الجماعات) ومما ذكره : ان الجماعات صنفان جماعة سلالية وجماعة أممية وان طبقات الجماعة السلالية الاجتماعية هي : (١) الشراذم (٢) الجماعات الشرذمية (٣) الجماعات الشعبية .

أما الجماعات الأممية فطبقاتها الاجتماعية هي : (١) الطبقات الأولية وهذه تنقسم الى ثلاثة انواع (آ) حيوية (ب) شخصية (ج) اجتماعية أي متفاوتة فى القوى الأدبية وهناك طبقات للجماعة ثانوية ؛ كالطبقة السياسية والطبقة الصناعية ، والطبقة الاقتصادية . الخ .

على أن هذه الطبقات ممتزجة بتلك . فقد تجد صانعاً أو سياسياً أو تاجراً مثلاً فى كل من الطبقات الرئيسية وقد شرح منشأ ومميزات كل من هذه الطبقات والفروع وقد عد فئات العمال الفقراء فى المدن هم من فئة الطبقات الحيوية والنوابغ ذوي المواهب والناس الاعتياديين والمعطوبين (١) من فئة الطبقات الشخصية ثم صنف جميع تلك الطبقات والشعب فى الطبقات الآتية :

(١) الطبقة الاجتماعية .

(٢) الطبقة اللااجتماعية .

---

(١) المعطوبون هم المصابون بالآفات العقلية كالمصروعين والممسوسين والمجانين واكثر المصابين بالآفات الجسدية .

(٣) الطبقة الاجتماعية الزائفة .

(٤) الطبقة المضادة للاجتماع .

(أ) الطبقة الاجتماعية : تؤلف من الأفراد الذين ارتقت فيهم الفكرة الاجتماعية وادركوا وحدة الجماعة وتضامنها فمن هـذه الطبقة ينشأ الساسة والمهتمون بالسياسة العمومية . والقادة والزعماء وأصحاب المشروعات العمومية التي يشترك بفائدتها الجمهور كله . واصحاب المشروعات الخيرية . والمصلحون والأفراد الغيريون الذين يضحون بمصالحهم وأخيراً بأنفسهم لأجل خير الجماعة ولو لا هذه الطبقة لما كانت الجماعة تستطيع أن تسير فى طريق النجاح وبقدر ما في الجماعة من هؤلاء الافراد يكون نجاحها .

(ب) الطبقة اللا اجتماعية : تؤلف من الأفراد الزمانيين الذين لايهتمون إلا بأنفسهم . ومن طبعهم أنهم قليلو الميل للتضامن فلما يقبـلون معروفاً أو يسدون معروفاً .

(ج) الطبقة الاجتماعية الزائفة : تؤلف من طبقة الفقراء الذين انحطت قيمة الوحـدة الاجتماعية في يقينهم . وقلما يثقون بتضامن الجماعة بل هم يائسون منه . ولذلك قلما يعرفون أن ينتفعوا من هذا التضامن بل يرغبون أن يعيشوا عالة على غيرهم فيكونون على الغالب فريسة النحس .

(د) الطبقة المضادة للاجتماع : وهي تشتمل جميع الآثمين الذين في انفسهم غريزة الاجرام وهم الذين لم تطرق أذهانهم فكرة وحدة الجماعة وتضامنها بل بالعكس يكرهون النظامات الاجتماعيـة ويريدون أن يعيشوا على اختلاس حقوق الغير .

أما الطبقات الثانوية التي مر التنويه عنها فتتكون بفعل تنوع العلائق الاجتماعية المختلفة من مذهبية وسياسية ومعاشية وعملية . الخ . وهي متعددة بقدر ارتقاء الأمة في المدنية .

ثم قال الأستاذ « نيقولا » ان غاية الاجتماع تعاون الأفراد في الدفاع والاسترزاق واشتراكهم في التمتع بملذات الحياة ولكنك تعلم بالاختبار أن الناس غير متشاطرين الرزق وملذات الحياة بالتساوي . لأن اختلاف احوالهم وظروفهم قضى بهـذا التفاوت بينهم . وكذلك قضى ايضاً أن يتفاوت الافراد في نموهم العقلي ، والادبي ، والجسدي ايضاً .

أما الفيلسوف الاجتماعي (بلاكار) صاحب كتاب روح الاجتماع فقد رتب فئات الهيئة الاجتماعية الراقية ترتيباً مبنياً على وظيفة كل فئة في المجتمع واليك ذلك (١) .

(١) — أ — الفئات المعاشية — اقتصادية .

(ب) فئة المنتجين — زراع .

(ج) فئة المستخرجين — المعدنون وأمثالهم .

(د) فئة الممولين — صناع .

(هـ) فئة الناقلين — تجار .

(و) فئة المقايضين — صيارفة البنوك وسماسرة . الخ .

(٢) — أ — الفئات الكافلة دوام الجماعة — حيوية العائلة .

(ب) فئة الطبيين .

(١) عن كتاب علم الاجتماع للاستاذ نيقولا حداد .

(ج) فئة الصحيين .

(٣) — أ — فئات المواصلة — لازمة للفئات الاقتصادية .

(ب) فئة الطباعة — الصحافيون والمؤلفون الخ .

(ج) « التلفون — التلغراف .

(د) « النقل — الملاحة والسكك الحديدية ، والركبات .

(٤) — أ — الفئات المهذبية — عقلية .

(ب) المعابد — أهل الدين .

(ج) المدارس — الأساتذة والطلبة .

(د) الجمعيات العلمية — أهل العلم ، الاندية ، الملاعب ونحوها .

(٥) — أ — الفئات المنظمة والحامية — سياسية وادارية .

(ب) النظام الدولي .

(ج) التشريعي .

(د) القضائي .

(ه) التنفيذي .

(و) نظام الشرطة — وهو أوسع من النظام التنفيذي .

(ز) النظام الحربي .

(٦) — أ — نقابات العمال .

(ب) أحزاب سياسية .

(ج) شركات ضمانات .

(د) شركات مالية .

[ه] جمعيات تعاون .

[ز] جمعيات خيرية .

[ح] اخويات .

وقال الفيلسوف الاجتماعي « بنيامين كد » [١] في معالجته موضوع المجتمع في دائرة المعارف البريطانية وفي مؤلفاته « ان المجتمع مؤسسة لها كيان خاص قائم بذاته ، نشأ عن الروابط التي جمعت بين الأفراد لغرض الفوز في معترك البقاء » ويرى هذا الفيلسوف ان حياة المجتمع منوطة بقدرته على التطور ، وبمبلغ اندماج الفرد في الكيان الاجتماعي ، فكل ما تهيأت للمجتمع أسباب التطور واندماج الفرد في المجموع نمت فيه كفاية الفرد بالبقاء ، ولذلك كانت حرية الرأي وتوفر أسباب العدل ، في الاقتصاد والسياسة من أهم مقومات المجتمع واطراد تقدمه .

وذهب بعض المفكرين الى ان المجتمع كالوحدة العضوية ؛ يسري عليه ما يسري على الأجسام الحية من نواميس البقاء وكان من جملة من ذهب هذا المذهب الفيلسوف الانكليزي « توماس هوبس » الذى صوّر على غلاف كتابه «   » عملاً مؤلفة اعضاؤه من أجسام بشرية كناية عن المجتمع المؤلف من الأفراد واستناداً الى هذا الرأى مثّل بعض علماء الاقتصاد فى القرن الثامن عشر نظام الاقتصاد فى المجتمع ، بالدورة الدموية في الأجسام الحية وافرطت طائفة الخياليين

(١) عن كتاب « مقدمة في الاجتماع للأستاذ عبدالفتاح ابرهيم »

فزعمت أن الانسان صنع المجتمع على شاكلته وبلغ هذا الرأى منتهى الرواج عنـد ما حرر « دارون » نظرية التطور في عالم الحيوان فاقتبسها علماء الاجتماع .

وبعد فلا أظن القارىء المنصف يطلب إلي أن أتبسط في الشرح وامعن في التوضيح بعد أن اطلع بفضل هذه المقارنات على روح المعاني التي احتوى عليها كلام أمير المؤمنين « ع » وما تضمنتها من مقاصد وأغراض سامية في تحقيق التضامن الاجتماعي بين طبقات الهيئة الاجتماعية ثم ألست ترى ايها القارىء المنصف وتتفق معي في نصرة الحقيقة في أن ما قرره الفيلسوف المعاصر « جوستاف لوبون » عن أنواع الجماعات وتقسيم الطبقات وعن قواعد علم الاجتماع التي قامت عليها ولم يكن هذا العالم الاجتماعي قـد تفرد وحـده في تقرير هذه الأصول الاجتماعية للجماعات وانواعها وطبقاتها وأهمية تقسيمها بل يشترك معه في ذلك جمهور الحكماء والعلماء ممن تفرغوا لدراسة المجتمعات البشرية في المغربين كما رأيت مما تقدم وبأنهم ما كانوا إلا كالشارحين لكلام ابن أبي طالب العظيم .

وبعد فهل بقى من شك إذا قلنا ان الامام أمير المؤمنين هو أول من وضع قواعد هذا العلم الخطير والمعلم الأول له بعد شروق شمس الاسلام المشرقـة .

خصائص طبقات المجتمع

رجع الى الأصل :

(فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج ، الذي يقوون به على جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ، لما يحكمون من المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بايديهم ممـا لا يبلغه رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك ، إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه ، فيما خف عليه أو ثقل)

لم يكتف عليه السلام بقوله : « واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض » . ولا بتعيين أنواع الجماعات بل فصّل وعدد مميزات وخصائص كل طبقة منها مع تبيان أهمية مركزها في المجتمع والطرق التهذيبية والاصلاحية التي يستعان بها على تقوية عناصرها واصلاح معايشها وفق ما تقتضيه سنة البقاء والتطور . وقد قسمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيداً لما يذكره فيما بعد فانه قد شرع بعد هذا الفصل فذكر طبقة طبقة ، صنفاً صنفاً وأوصاه في كل طبقة وفي كل صنف منهم بما يليق بحاله وكأنه مهد هذا التمهيد كالفهرست لما يأتي بعده من التفصيل واليك هو : —

---

(١) طبقة الجنود :

القيادة العسكرية العليا

علاقتها بحياة الأمة ، القائد العام وكيف يجب أن يكون .

الأصل :

(فولّ من جنودك ، أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك ، وانقاهم جيباً ، وأفضلهم حلماً ، ممن يبطئ عن الغضب ، ويستريح الى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الأقوياء ، وممن لايثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف ؛ ثم ألصق بذوي المروءات والاحساب ، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وان قل ، فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك ، وحسن الظن بك . ولا تدع تفقد لطيف أمورهم أتكالا على جسيمها ؛ فان لليسير من لطفك موضعاً

ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . وليكن آثر رؤس جندك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم ، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو ، فان عطفك عليهم ، يعطف قلوبهم عليك ، وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وانه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم ؛ فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم ، وتعديد ما ابلى ذوو البلاء منهم ، فان كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع ؛ وتحرض الناكل ان شاء الله تعالى .

ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفن بلاء امرئ الى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ الى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما ؛ واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور فقد قال سبحانه وتعالى لقوم أحب ارشادهم (يا أيها الذين آمنوا

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم . فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول .) فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .)

قال ابن أبي الحديد في شرحه :

هذا الفصل مختص بامراء الجيوش ، أمر الامام عامله بان يولي أمر الجيش من جنوده من كان أنصحهم لله فى ظنه واطهرهم جيباً أي عفيفاً أميناً ويكون عن العفة والأمانة بطهارة الجيب لأن الذى يسرق يجعل المسروق فى جيبه فان قلت واي تعلق لهذا بولاة الجيوش انما ينبغي أن تكون هذه الوصية فى ولاة الخراج ، قلت لا بد منها فى أمراء الجيوش لأجل الغنائم ثم وصف ذلك الأمير فقال ممن يبطئ عن الغضب ويستريح الى العذر أي يقبل أدنى عذر ويستريح اليه ويسكن عنده ويرأف على الضعفاء ﴿ ولا يثيره العنف ﴾ أي لا يهيج غضبه عنف وقسوة ولا يقعد به الضعف أي ليس عاجزاً ثم أمره أن يلصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات أي يكرمهم ويجعل معوله فى ذلك عليهم ولا يتعداهم الى غيرهم وكان يقال عليكم بذوي الاحساب فانهم ان لم يتكرموا استحسبوا ثم ذكر بعدهم أهل الشجاعة والسخاء ثم قال فانها جماع من الكرم وشعب من العرف والعرف المعروف وقوله تفقد من أمورهم أي الاخبار ما يتفقد الوالدان من حال الولد وأمره ان لا يعظم عنده ما يقويهم به وان عظم وأن لا يستحقر شيئاً تعهدهم به وان قل وان لا يمنعه تفقد جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها وأمره

أن يكون آثر رؤوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم اليه من واساهم في معاونته . وقوله من خلوف أهليهم أي ممن يخلفونهم من أولادهم وأهليهم ثم قال لا يصح نصيحة الجنـد لك الا بحيطتهم على ولاتهم أي بتعطفهم عليهم وتحننهم وهي الحيطة على وزن الشيمة مصدر حاطه يحوطه حوطاً وحياطة وحيطة أي كلاءة ورعاة وقوله وقلة استثقال دولهم أي لا تصح نصيحة الجند لك الا إذا احبوا امراءهم ثم لم يستثقلوا دولهم ولم يتمنوا زوالها . ثم امره ان يذكر في المجالس والمحافل بلاء ذوي البلاء منهم اي أعمالهم المحمودة في الجهاد واخلاصهم في المقاتلة وتضحيتهم في سبيل الأمة والوطن . فان ذلك مما يرهف عزم الشجاع ويحرك الجبان . وقوله ولا تضيفن بلاء امرئ الى غيره أي اذكر كل من أبلى منهم مفرداً غير مضموم ذكر بلائه الى غيره كي لا يكون مغموراً في جنب ذكر غيره ثم قال له لا تعظم بلاء ذوي الشرف لأجل شرفهم ولا تحقر بلاء ذوي الضعة لضعة أنسابهم بل اذكر الامور على حقائقها ثم أمره أن يرد الى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب أي ما يؤده ويميله لثقله وهذه الرواية اصح من رواية من رواها بالظاء وان كان لتلك وجه .

نقلنا هذه الخلاصة من شرح ابن أبي الحديد ليلم القارئ اولا بمعاني هذا الفصل بصورة مجملة وقد رأينا قبل الخوض في شرح ما تقدم من كلام الامام من الناحية الفنية العسكرية ونقارنه بتعاليم وآراء قواد الجيوش المعاصرين الباحثة عن شخصية القائد العام في الحرب والسلم أن ننوه ولو بصورة موجزة عن علاقة الجنـدية بحياة الشعب ونهوضه وتقدمه وذلك

تفسيراً لكلامه عليه السلام الوارد في مقدمة الفصل السابق وهو : ﴿ فالجنود باذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم . ﴾

أنظر رعاك الله الى هذه الجمل الأربع كم حوت من أسرار بليغة ومقاصد عجيبة ولا يدهشك قولي إذا قلت لك انها جمعت فأوعت جميع فصول كتاب ﴿ المشيرفون لودندروف ﴾ الألماني وهو « الأمة في الحرب » بل جميع فصول المدونات والموسوعات الحربية الاوربية من المانية وايطالية وانكليزية وفرنسية ويابانية في هذا العصر . والوضع الدولي الحالي في الغرب والشرق ونضال الحكومات في يومنا اكبر دليل وشاهد على ما نقول وسترى قيمة هذه الجمل العلوية فيما يأتي ان شاء الله .

نعم ! الجندية [١] ركن من أركان الدولة ولا يتم بناؤها ويصح تعريفها إلا به . وهي أهم مظهر من مظاهر عظمتها بل هي رمز حياتها وخلودها .

الجندية بوتقة الابطال الحديديين الخالدين وهي خير معمل يتمرن فيه الشباب الناهض على اتقان صناعة الموت والتضحية في سبيل المجد والعظمة وما الجندي إلا الحارس الامين والحامي الصادق عن عزة الوطن وشرف الأمة .

الجندية نظام خاص يخلق في الرجال من الضعف قوة ؛ ومن الجبن

---

[١] من مقال للمؤلف عنوانه (الجندي حارس الوطن الأمين) نشر في جريدة الهاتف النجفية .

شجاعة . ومن التردد ارادة حديدية ومن الذلة والصغار عزة وحمية . ومن الخور والهوان حزماً وعزماً لا حد لها ومن التواني والتقاعس همة تدك الجبال .

والجندية تخلق من الموت حياة لانها تبيح القتل منعاً للقتل .

وعليه لا تجديد لحياة الشعوب ولا نشور لها بعد موتها إلا بالجندية .

للجندية تعاليم قل من يدرك أسرارها وأعظم مصداق لها قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم . ﴾ وهذا هو قانون الجندية ونظامها وفي الطاعة العسكرية فناء الفرد وحياة المجتمع . فالجنود إذاً حصون الرعية وليس تقوم الرعية إلا بهم .

الجندية تحرم الرذيلة على الجندي وتحضه على حب الفضيلة والفضيلة هي أعظم وسام يتحلى به لانه الحارس الامين لامته وبلاده ورذيلة الخيانة وفضيلة الامانة ضدان لا يجتمعان .

أجل !

أن للجندية مبادىء شريفة سامية قائمة على الصدق والاخلاص وحب التضحية والنخوة والشهامة والشجاعة الادبية والرجولة وفوق كل ذلك الانانية الشريفة لحفظ السلام العالمي وحفظ كرامة الوطن .

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾

فالجنود إذاً زين الولاة وعز الدين وسبب الامن . كما قال سيدنا ابن أبي طالب « ع » . الجندية وسيلة من وسائل نشر الثقافة والتهذيب

في الوسط الاجتماعي وثكنة الجند خير مدرسة يتدرب فيها أبناء الأمة على العزة القومية والاعتزاز بتقاليد الجيوش العربية الغابرة التي حملت مشاعل المدنية الى العالم في الشرق والغرب .

الجندية تعمل على بث روح الثقة الاجتماعية بين الأفراد وحب الطاعة للنظام العام ، والكراهة للتفرقة والانقسام ، والحث على الاخوة والوئام والتعاون والتكاتف في سبيل مصلحة المجموع وتقديس الواجب وهذا الخلق الروحي هو جوهر ما ترمي اليه تعاليم الجندية ونظامها .

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة . ﴾ الآية وقد ذم القرآن أشرار الجند فقال « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون »

وقال تعالى : ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أي ذم أعظم من هذا الذم الإلهي ـ والعياذ بالله ـ لأعداء الجندية والتجنيد لا ريب ان هذا الاحتقار والازدراء والسخرية بشأنهم هو أحر من القتل وأحر من نار جهنم وأفضع من ذل الموت مع الخنوع والاستلذاذ بالعبودية .

وهذه الأسرار الشريفة والعوامل الحيوية قال عليه السلام « فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبب الأمن وليس

تقوم الرعية إلا بهم » والآن نرجع إلى تحليل الفصل الذي بأيدينا المختص بقيادة الجيش وأركانها في حالة السلم والحرب. يحدثنا « المشير فون لودندورف » في كتابه (١) الأمة في الحرب بما يأتي :

القائد العام هو الذي يقوم بالحرب الاعتصابية في سبيل حفظ حياة الأمة بدماغه وارادته وقلبه وليس لأحد أن يتحمل المسؤولية التي يتحملها هو . ويتطلب مركزه هذا أشق الأعمال الشخصية وأعظم مقدرة وأقوى إرادة .

ويقتضي أن يكون للقائد العام المحل الأول فكل ما عدا ذلك غير معقول ومؤد الى الخطر ولا يتمكن القائد العام من الاحتفاظ بوحدة أعماله ومفعولها والتي ترمي الى كسر العدو وحفظ حياة الأمة إلا بمنحه السلطة التامة . ويجب أن تكون أعماله هذه شاملة كما تشمل الحرب الاعتصابية حياة الأمة بأجمعها .

ويجب أن يكون للقائد العام حق القرار في كافة نواحي النشاط وأن تكون إرادته مطاعة والحرب وحدها هي التي تبرهن على كون الشخص القائم بادارة الحرب الاعتصابية من القواعد العظام أم لا . فان النظريين بل الثقات العسكريين زمن السلم قد لا يكونون من القادة العظام في الحرب وكثيراً ما يفشلون فى مهمتهم بينما تكون الحرب فرصة اسفرهم تمكنهم من اظهار قوتهم أو مقدرتهم .

يجب أن لا تسند القيادة الحربية الى رئيس الاركان ولا الى

(١) تعريب الرئيس عبد المطلب السيد محمد أمين .

« مدير الادارة الاول » بل الى القائد العام . والقائد العام هو الوحيد الذي عليه إدارة الحرب حسب الآراء التي يراها هو وهو الذي عليه اصدار الأوامر بموجبها . وليس لاحد أن يقترح عليه أى اقتراح بصيغة الأمر أوان يتخذ المسؤولية عنه بأي صورة كانت . وليس لاحد أن يتخذ عنه تلك المسؤوليات الملقاة على عاتقه من النواحي الأخرى فى الحرب الاعتصابية . أن لوضوح مركز القائد العام ومسؤولياته الاهمية العظمى فى إدارة الحرب جميعها ولكل أمة . ومجمل القول يجب أن يكون مركز القائد العام فى الحرب الكل فى الكل وغير محدود بقدر ما كان عليه مركز الملك « فره دريك » الكبير .

ويجب أن يكون اتباع القائد العام من القادرين على اتباع ميل آرائه وتنفيذ كل ما يختص بالقيادة وادارة القوات المسلحة ويجب فى هذه الحالة النظر بالاعتبار اللازم الى تجارب الحرب العالمية بكل أمانة حسب وصاياه ؛ قادرين على ادامة حياة الأمة والوحدة القومية وكسر جيوش العدو ومراقبة الدول المحايدة .

ان القائد العام يحتاج الى رئيس أركان كضابط للتنفيذ وكشخصية مستقلة في حل المشاكل التي عددتها فهو بذلك الذراع الأيمن للقائد العام ويجب أن تتألف هيأة الأركان من أليق الرجال وأحسنهم وأقدرهم ذوي كفاية في معرفة الحرب بالبر والبحر والجو وبالدعاية وبفن الحرب والاقتصاد والسياسة وان يكون لهم الاطلاع التام على الحياة القومية . .

ان ضباط الركن ـ حتى وان تدربوا التدريب الكافي ـ لا يمكنهم القيام

بواجباتهم الشاقة إلا إذا تجردوا تماماً من الأنانية واتصفوا بالثبات . لا في النظريات بل في الحقيقة ودرسوا التاريخ العسكري درساً دقيقاً كما درسوا جوهر الحرب الاعتصابية وماهيتها .

ليست حياة القائد العام حياة سهلة وعليه ان يركن الى تلك الحياة في مسؤولية شخصيته العظيمة . وتفرض اسمى المطالب على مزايا القائد العام والقائد في ساحة القتال بل وعلى مزايا الجندي . لأن المزايا في معظم الأحيان أهم من المعرفة . فالحرب تتطلب صفات فولاذية وكلما ازدادت المسؤولية وعظمت كلما وجب ازدياد تلك الصفات ثباتاً ووثوقاً في الشخص المعين .

وهذه المزايا وحدها هي التي تتمكن من بعث روح الاعتماد والمطالبة بها . ولا يمكن التفكير بقائد عام أو قائد في ساحة القتال تجرد عن هذه الصفات ولا حاجة لتأكيد أهمية ذلك .

ان المقدرة على استخدام الجنود استخداماً صحيحاً ومعرفة قوتهم وضعفهم وقراءة مافي نفوسهم والنظر الى ما في ضمائرهم وفهم الدوافع المؤثرة بهم أمور يجب اضافتها الى صفات القائد العام كما ان السكون والاعتدال صفتان لا يستغني عنهما القائد العام .

ويجب تعيين القائد العام في منصبه منذ زمن السلم ليتمكن من اتخاذ المسؤولية التي ينتظر أن يتحملها والقيام بالحرب الاعتصابية .

وهو الشخص المسؤول في حالة الحرب عن وجود كامل قوة الأمة اما مباشرة بهيئة القوات المسلحة أو غير مباشرة في الداخل تحت تصرفه .

وعلى القائد العام أن يلاحظ في زمن السلم تربية تراص الأمة على أساس قومي . وان تربية النشء على هذا الاساس لا تقل درجة عن تربية البالغين من السكان . وان الجيش وخاصة الضباط هم من الموالين والثابتين على مبدئهم . وعليه ان يرى بان أهمية التراص القومي للحرب الاعتصابية قد أصبحت من الأمور البديهية في الحكومة وفي ادارة الدولة وفي الامة نفسها .

وعلى القائد العام ايضاً ان يتحقق من ان مالية البلاد والاقتصاد الداخلي يسدان احتياجات الحرب الاعتصابية وان التدابير المتخذة ترمي الى ادامة الحياة القومية وتأمين اعاشة الشعب والقوات المسلحة .

وعلى القائد العام الاهتمام بصورة جدية في الحالة الاقتصادية والاشراف على امر إعاشة الجيش والامة ذلك هو واجب القائد العام الذي يرتكب ظلماً نحو الجيش والامة إذا لم يستخدم كامل سلطته . وعلى القائد العام بين آن وآخر ان يتثبت من أن السلطة الاعتصابية في خدمته وعليه القضاء على كل دسيسة في مهدها .

وعلى القائد العام ان يدرس بكل دقة التقارير الخاصة بالحالة النفسية . والروحية . والعقلية السائدة في جيوش العدو وشعوبه .

ان هدم الحياة الاقتصادية في بلاد العدو بجميع الوسائل اللازمة كالحصار البحري واستخدام الدعاية بغض النظر عن الانتصارات في الميدان كلها وسائل لغاية ؛ والغاية هي كسر ارادة العدو الروحية للمقاومة .

فالقائد العظيم والامة واحد لايمكن التفريق بينهما . وإلا فيا لخسارة

القائد على الامة . . .

لقد علمنا من خلاصة أقوال هذا القائد العظيم المحنك من هو « القائد العام » للامة في الحرب والسلم وكيف يجب أن يكون إذا آذنت ساعة الخطر أو قبل نزول النوازل ومدلهمات الخطوب . على البلاد وقد ارشدنا هذا العسكري الخطير بآرائه الصائبة الناضجة التي دونها بعد بعد أن وضعت الحرب العظمى أوزارها والتي تركها انجيلاً لامته تستنير به على تعاقب اجيالها . الى المركز والموضع الذي يحله قائد الجيوش العام من أمته في السلم والحرب والى واجباته الكبرى وحقوقه الكثيرة التي تمنحها « القيادة الحربية العليا » اياه . وقد فهمنا من بيانات المشير « لودندورف » العظيم مقدار الصلاحيات الواسعة التي يحق له استعمالها بدون جشع وأنانية في سبيل حياة الامة الى غير ذلك من السلطات العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية . وإذا كانت منزلة القائد العام كما نوه عنها رئيس أركان الجيوش الالمانية في الحرب العامة ودماغ القيادة العسكرية العليا لها بعد الحرب في الخلاصات المتقدمة وجب على القيادة الحربية العليا في كل أمة ان تختار وتنتخب قائد الامة العسكري العام ممن وصفهم الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب « ع » ونرجو من القارئ الكريم ان يرجع اليها ويعيد النظر فيها . لأن تكرارها مرة ثانية او ذكر جملها ومقارنتها مع كل جملة من جمل المشير الخبير « لودندورف » أو غيره ممن ننقل عنهم من العلماء والعظماء قد يضيع علينا الوقت ويشوش على المطالع المحترم . نعم ! نرجو

من القارئ المنصف أن يقرأ مرة أخرى كلام أبي الحسن عليه السلام ليقف على درجة التفكير العربي في صدر الاسلام وعلى عظمة قادة الفكر الاسلامي الخالدين اولئك الذين رفعوا للناس وللاجيال القادمة منار العلم والهداية .

أجل ! أليس قوله عليه السلام لعامله الاشتر (رض) : (فولّ من جنودك . أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك . وانقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطئ عن الغضب . ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء . وينبو على الاقوياء . وممن لا يثيره العنف . ولا يقعد به الضعف . الخ .

قد انطوى على كل ما اشترطه نابغة الغرب المشير « لودندورف » من الصفات والمزايا العسكرية في القائد العام وحاشيته من الضباط الاركان في السلم والحرب . . على أن في كلام الامام امير المؤمنين أموراً أخرى جليلة تهم حياة الامة في الحرب والسلم وقد اهتدى نابغة الغرب في القرن العشرين بفضل ثقافته العلمية والفنية العسكرية الى معرفة ما انتجته القريحة العربية قبل مئات السنين وقد بحث عن بعضها في فصول أخرى من كتابه ﴿ الأمة في الحرب ﴾ ومن الامور الدقيقة الجليلة التي أشار اليها الامام في كلامه المتقدم هي :

« وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته . وافضل عليهم من جدته . بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم . حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو . فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم

عليك . وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية . وانه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم . ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم . وترك استبطاء انقطاع مدتهم . فافسح في آمالهم وواصل حسن الثناء عليهم . وتعديد ما ابلى ذوو البلاء منهم . فان كثرة الذكر لحسن افعالهم تهز الشجاع وتحرّض الناكل ان شاء الله تعالى »

هذه الصفحة وما بعدها من كلامه (ع) تختص بسياسة الجيش في السلم والحرب واليك ما دوّنه نابغة الغرب في كتابه « الأمة في الحرب » في إدارة الجيش وسياسته قال :

لما كانت الحرب هي المحك النهائي للامة في حماية وجودها فعلى السياسة الاعتصابية لهذا السبب ان تضع في زمن السلم خططاً للاستحضار الضروري المطلوب في كفاح الامة الحيوي في الحرب . وأن تحكم الاسس لهذا الكفاح الحيوي احكاماً قوياً بصورة يمكن انتقالها عند اشتداد الحرب بدون ان يطرأ عليها أى خلل أو تهدمها أى تدابير يتخذها العدو .

ان الحرب والسياسة كلاهما لحماية الشعب لكن الحرب هي اسمى تعبير « للارادة القومية في الحياة » لذلك على السياسة ان تكون تابعة لادارة الحرب .

وقال : لم يكن الاختلاف الحادث بين الامبراطور والجيش واسقاط الاول وتحطيم الجيش القديم إلا واسطة لغاية وكان بين الآلات

التي استخدمها اليهود وروما ، بعض الألمانيين من مختلف الطبقات الذين سممت أفكارهم الماسونية وانتعاليم الحرة الأخرى واضلتهم . وكذلك المستائين من الطبقات العاملة من الألمان الكاثوليك الذين دربتهم روما فاقتنعوا بلزوم اتخاذ موقف عدائي نحو الدولة والجيش . وكان الزعماء السياسيون قبل الحرب ينظرون الى أعمال هذه العناصر دون أن يحركوا ساكناً أو يبدوا مقاومة ، فاهملوا بذلك الشعب وسلموه الى يهودا وروما وأذنابها من الماسونيين والأحرار . وسمحوا لجميع هذه العناصر في توحيد جمعياتهم السرية واخفاء انفسهم ضمن الجيش وقد انكشف أمر هذا التفكك الروحي وكانت طلائعه بادية للعيان قبل الحرب العالمية .

وبعد أن تم لهم ذلك عام ١٩١٧ صار بامكانهم اخيراً الشروع باعمال التخريب على مرأى من العالم وهدم الوحدة الروحية والعصبية في الأمة لتقليل ما تتمكن من أن تقوم به الأمة من مساعدة الجيش الى الحد الأدنى . وبث الآراء الثورية داخل صفوف الجيش لتحطيم قوة مقاومته ثم يقول :

ان الواجب الأهم على كل أمة هو معرفة خصوم وحدتها وتراصها المستائين الذين وصفتهم آنفاً وأسباب تفككها معرفة جيدة . واتخاذ التدابير اللازمة واكتشاف الوسائل التي يمكن حصول الوحدة والعصبية بها .

ان أهم واجبات القادة في الحرب الاعتصابية مطالبة الزعماء السياسيين بسياسة اعتصابية لايجاد هذه الوحدة والعصبية في الأمة لانها بالحقيقة

الواجب القومي لهذه السياسة . ويقتضي فهم نفسية الخصوم وطبيعة هذه الوحدة والعصبية وأسسها فهماً صحيحاً .

ان العصبية الظاهرة التي هي نتيجة القهر والتي لا تشترك بهما روح الأمة التي تشعر بحياتها القومية والدينية المشتركة ليست هي العصبية التي تحتاج اليها الأمة والجيش في الحرب . انها عصبية ميكانيكية وخداع خطر على الحكومة والدولة .

ان اتباع القوانين العرفية والروحية الأساسية وحدها هو الذي ينجح في صهر الأمة وإدارة الحرب والسياسة ويجعلها وحدة قوية على أساس الحياة القومية .

ثم انظر ما يقول :

ويتوقف على التنظيم المالي واجب تموين الأمة والجيش بالميرة والطعام وكافة المواد اللازمة ومن الواضح قبل كل شيء بأن كلما زادت كمية الأرزاق والعلف والمواد الخام التي تتمكن البلاد من انتاجها في أرضها تلك الأرض التي يقوم الجيش بالدفاع عنها زمن الحرب كان بذلك خيراً للأمة والجيش وادارة الحرب الاعتصابية وسهل واجب السياسة الاعتصابية .

ان المهم قبل كل شيء أن يعيش الانسان وان تدوم حياته ليتمكن من العمل والكفاح كما تحتاج الخيل والمواشي الى علف لحفظ حياتها وتحتاج الآلات الى قوى محركة تستمر في حركتها .

يتذكر الجيل الذي شاهد الحرب العالمية كيف أصبحت قضية اعاشة

الجنود وعلف الحيوانات تدريجياً من القضايا الخطرة أثناء الحرب العامة في البلاد . وانظر الى قوله الآتي الخطير الذي يفسر لك كلام أبي الحسن عليه السلام أحسن تفسير :

وقد برهنت تضحية الأيادي العاملة على خطورتها فكانت نتيجتها أن العمال كانوا لا يعملون إلا قسراً وأخذوا يتراخون في أعمالهم على ممر الأيام نظراً الى التحريض المتزايد بين طبقات كبيرة من العمال . وتناقصت كمية العمل الذي كانوا يقومون به فاصبح من الضروري استدعاء عدد اكبر من العمال ولم تر السلطات المسؤولة عن معالجة مشكلة التراخي هذه علاجاً خيراً من ارسال رؤساء المستائين الى جبهة الحرب . الأمر الذي كان من أهم الاسباب في نقص المرونة النفسية بالجيش وقد برز عدم وجود التراص النفسي في الامة وحدث رد فعل مناسب في أقصى شدته مما أدى الى ظهور احوال لم يكن من السهل ازالتها .

وازداد الموقف العام خطورة عند ما قيل للجنود فى الجبهة بان اخوانهم فى داخلية البلاد تدفع لهم رواتب جيدة يتمكنون بها من اعالة عوائلهم بينما هم براتبهم الضئيل لا يمكنهم القيام بذلك رغم مخاطرتهم بحياتهم فى الجبهة . وان الاعانة التي تدفعها الحكومة الى العوائل أقل بكثير مما يتمكن العمال من دفعه الى عوائلهم . ان الادارة والارشاد أمران ضروريان حتماً إلا انه يجب التحاشي من الاستبداد والتسيير القهري . انتهى .

هذا ولو نشاء لأتينا بخلاصات أخرى قيّمة لاشهر قواد الأمم العظام

في هذا الموضوع والذي تقدمه إلا اننا فضلنا الايجاز المفيد على الاسهاب الممل وقد اتضح مما تقدم ان الاغراض الادارية والسياسية والاقتصادية التي جاءت في العهد العلوي والذي حرره أمير المؤمنين لعامله سنة ٣٩ هجرية لا تزال آية من آيات التفكير العربي ومعجزة من معجزات الثقافة الاسلامية العالية . على كر الدهور وتعاقب الأجيال . والذي نرجوه من المطالع المحترم هو الرجوع الى الشرح المجمل الذي افتتحنا به هذا الفصل ليقف على حقيقه المقارنة بين الآراء السياسية العسكرية العصرية وبين القواعد السياسية الحربية في صدر الاسلام . لأننا قلنا أن تكرار الجمل يولد السأم في النفس وينفرها عن حب المطالعة والدرس . هذا واذا علمنا مما تقدم ومما سيأتي بان فوز الامة وبقاء حياتها يتوقفان على اتحاد الجيش وتماسك وحدته النفسية وتقوية الوعي القومي والعصبية في نفوس الاجناد وان القوات المسلحة هي جزء متمم للأمة وتناسب قوة هذه القوات في الحرب الاعتصابية قوة الشعب الطبيعية والاقتصادية والنفسية . والقوة النفسية هي التي تخلق الوحدة في القوات المسلحة وفي الشعب . وهي المطلوبة في الكفاح الحيوي لحفظ الأمة وفهمنا أيضاً أن الوحدة النفسية والعصبية هما العاملان الحاسمان في سير الحرب لحفظ الأوطان وحياة الشعب . أدركنا اسرار كلام أبي الحسن (ع) الذي يوصي به القائد العام لجيشه :

« ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى . ولا تضيفن بلاء امرئ الى غيره . ولا تقصرن به دون غاية بلائه . ولا يدعونك شرف امرئ

الى ان تعظم من بلائه ما كان صغيراً . ولا ضعة امرئ الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيماً . » وذلك لئلا يتسرب الى نفوسهم الشك بعدم عدالة القواد فتتغير نياتهم الحسنة . ويتأثر صدق جهادهم لأنه لا تصح نصيحة الجند إلا إذا أحبوا امراءهم ولم يستثقلوا دولهم ويتمنوا زوالها . ولهذا حذره من ضم بلاء امرئ وصدق جهاده الى غيره وإن يذكره مفرداً كي لا يكون مغموراً في جنب ذكر غيره . وهذه الامور من الأمور النفسية التي يجب على القائد العام ملاحظتها بكل دقة وفوق ذلك فانها من جملة واجباته في تطبق العدل بين الاجناد ولذلك قال له : « وان افضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودة الرعية . » فتأمل .

معرفة الله وتأثير مخافته في التربية العسكرية

وقبل أن نختم هذا الفصل نود أن ننوه عن نقطة مهمة وردت في كلام الامام علي ﴿ ع ﴾ وان جميع وصاياه وكتبه وعهوده لا تخلو منها وكذلك رسائل خلفاء المسلمين وصلحاء امرائهم تبدأ بذكر هذه الجهة وتنتهي بها على الاغلب وهذه المسألة هي رأس المسائل وغاية الغايات لاعمال الانسان وبدونها ينقلب الانسان من حياته الانسانية الراقية الى الحياة الحيوانية البهيمية المنحطة وهذه المسألة هي ﴿ معرفة الله ومخافته ﴾ وهي رأس الحكمة بلا تردد واشكال وكنا نريد أن نبحث عنها في فصل ﴿ القوة الروحية ﴾ للجيش غير ان المشير « لودندورف » نبهنا اليها وأبى إلا أن نتناولها فى هذا الفصل وعليه أحببنا ان نجعل كلمة المشير المشار اليه فى (معرفة الله) ومخافته فى نفوس الجنود كمقدمة موضحة لكلام أمير المؤمنين عليه السلام واليك ذلك :

لقد برهن الشعور الألماني بالله على أن أهمية الوراثة العرقية والمعرفة العرفية (لله) لعظيمة لحفظ حياة الأمة وللياقتها الى الخدمة العسكرية الناتجة عن التراص النفسي الذي يأتلف معها .

ان شعور الالمان بالله ومعرفته تبعد ايضاً حياة الامة عن الجبر الباطني اليابانى أو البلشفيكي المادي كما تبعده عن الحرية المسيحية . ان شعور الالماني بالله ومعرفته يتطلبان حرية العمل ولكنهما يعترفان بالالزام المعنوي لحفظ الامة . وهما يتطلبان زعامة سياسية ويرفضان كل اجبار أو الزام

يتجاوزها كما انهما يرفضان كل تدخل فى الشعور بالله .

ان الحرية المعنوية المضمونة بالحق القومي هي التعبير الظاهري لمعرفة الله التي تأتلف عرقياً بتطور حياتنا الوطنية وتكوينها وهي أساس قناعة أبناء قومنا ووحدة أمتنا .

ولا يتصور احد ان بالامكان الاغضاء عن حقيقة تأثير معرفة الله فى حفظ الأمـة .

ليس تأثير الشعور الألماني بالله الذي يضمن المعرفة الألمانية له ، والذي هو أساس العصبة الروحي لأمتنا مثل كل معرفة أخرى بالله . فهو يكيف حياة الشعب ويطورها ويقدمها وفضلا عن ذلك يولد الضبط ويهيئ القوات المحاربة التي تقوم بجميع ما تتطلبه الحرب الاعتصابية . ان تكييف الحياة في معرفة الله الملازمة للقومية تسفر عن تربية الجنسين تربية سليمة . وتروض قوة ارادتهما وتجعلهما أعضاء مهيمنين في الأمة قائمين بواجباتهم . ومميزين اعداء أمتهم . وتحفظ كذلك قوتهم الجسدية ونفوسهم الممتلئة شباباً من كل نوع من الأذى . وفضلا عن ذلك فهي تقوم بواجب آخر هو حفظ نفوس الشبان الناشئين من أبناء الأمة كما تحفظ اجسامهم من الاذى والضرر وان معرفة الله المبنية على أساس قومي ايضاً هي التي تهيئ الاسس الصحيحة لتكييف حياة الأمة والفرد .

إذا عرفت هذا فاسمع ما يقول الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن أبي وقاص :

« أما بعد ، فاني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم « لله » ، ولو لا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا ان عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ؛ ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وان اسأنا حرب قوم قد سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا) . واسألوا الله العونة على انفسكم ؛ كما تسألونه النصر على عدوكم . اسأل الله ذلك لنا ولكم . »

ولاجل تحقيق هذه المعرفة وغاياتها وما تنتجه من القوة الروحية في نفوس القواد والاجناد أوصى عليه السلام عامله ان يختار القواد على الجيش أنصحهم في نفسه « لله » ولرسوله ولامامه ثم ختم وصيته بقوله :

« واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور ؛ فقد قال سبحانه وتعالى لقوم أحب ارشادهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم . فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ﴾ فالرد الى الله الآخذ بمحكم كتابه

والرد إلى الرسول الآخذ بسنته الجامعة غير المفرقة . »

وقوله الجامعة غير المفرقة هي كل ما استهدفه المشير (لودندورف) من بحثه في معرفة الله وتأثيرها على تكييف الوحدة الألمانية .

وبعد أما آن أن يعقل شباب العرب والمسلمين عظمة تعاليم القرآن كما عقلها أبناء الألمان .



الحرب والصلح

الحرب ، ضرورتها ، علاقتها بحياة الأمة ، تعريفها ، مشروعيتها تحريمها ، منشأ مسؤولياتها وتبعاتها ، شريعة الحرب في الاسلام ، مبدأ عصبة الأمم في الفقه الاسلامي ، الهدنة ، الصلح ، مشروعيته ، فوائده الخدعة في الصلح ؛ المعاهدات وقيمتها في السلم والحرب ، الوفاء بالعهود ، تأثير المدالسة والمخاتلة في عقد العهود بين الأمم ؛ عواقب الغدر والخيانة ؛ لغة المعاهدات ، والأسباب المبررة لفسخها ، قواعد السلم في الاسلام ، المعاهدات في الاسلام والوفاء بها ، الغدر والخيانة في العهود الدولية في العصر الحاضر .

رجع الى الأصل :

« ولا تدفعن صلحاً دعاك اليه عدوك لله فيه رضاً ، فان في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فان العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن ، وان عقدت بينك وبين عدو لك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شيء ، الناس أشد

عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فانه لا يجترئ على الله إلا (١) جاهل شقي ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً افضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون الى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته ، خير من غدر تخاف تبعته ، وان تحيط بك من الله طلبة لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » انتهى .

نقول قبل أن نبدأ بتفصيل هذا الموضوع المهم ونشرح غوامضه القانونية ونوضح أسراره ومضامينه الحقوقية وما تضمنه من القواعد التشريعية الدولية نرى من الضروري المحتوم أن نفرد كلمة وافية عن الحرب وخطرها في حياة الشعوب ليقف القارئ المحترم على أهمية السلم والمهادنة وقيمة المعاهدات التي تعقد بين الأمم في حالتي السلم والحرب إذ لا صلح

(١) تخون أو تنكث .

بلا حرب أو خلف وهذا الخلف يسمى بعرف علماء القانون الدولي بالعمل الحربي وهو مجرد استعمال القوة كما في حالة الثأر .

يقول ابن خلدون في مقدمته : ان الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله واصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منهم أهل عصبية فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهي أمر طبعي في البشر لا تخلو عن أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام فى الاكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه وأما غضب للملك وسعي فى تمهيده .

ويرى الاجتماعيون أن الحرب ربما كانت أقدم التقاليد (١) لأنها أهم ميراث ورثه الانسان من الحيوان ، فقد كانت بين فرد وفرد من الناس كما كانت بين فرد وفرد من الحيوانات ولعلك تجد بين الحيوانات حرباً اجتماعية للدفاع وقليلا للهجوم ، كتألب الفيلة للدفاع أو الهجوم ؛ وكتألب الابقار البرية للهجوم ، كما لوحظ فى أمريكا فى أوائل عهد اكتشافها . كذا كانت الحروب فى اوائل نشوء الانسان ، فكانت بين فرد وفرد ثم بين جماعة وجماعة . فكانت صراعاً اولاً ، ثم رمياً بالحجارة ، ولما نشأت الصناعة تطورت الحرب ، إذ صنعت لها الحراب والسهام والرماح . ولما أخذت اجتماعية الشرذمة من الناس تتوثق صار البطل قائداً ثم صار القائد حاكما ، ثم تاله ذكره . بعد ذلك يرشدنا

(١) عن علم الاجتماع للاستاذ نقولا الحداد .

التاريخ كيف تطورت الأنظمة الحربية فنشأ نظام الجيش وفرقه وفيالقه وكتائبه بقوادها وضباطها ، وتنوعت عدده من حراب وسيوف وسهام الى مقاليع ، ثم الى بنادق ومدافع وقنابل وغازات سامة ، ومن متاريس الى حصون وقلاع وخنادق ، والى أساطيل كما ترى الآن .

كل سلسلة هذه التطورات حدثت بتأثير ما قام الى جنبها من الانظمة الصناعية والسياسية والدينية والاقتصادية وهذه الأنظمة كيفت الحروب وغيرت انظمتها كما أن الحروب نفسها أثرت فى هذه الانظمة وطورتها ايضاً فانشغال الجماعة فى الحروب وانهماكها فيها استكد قرائح نابغيها فى استنباط وسائل النقل ، فتحسنت المركبات والسفن وفى استنباط وسائل الدمار والقتل تحسن السلاح وبناء الحصون والقلاع والمعامل ، وبذلك ترقت صناعة البناء وصناعة المعادن المختلفة ، وفى استنباط الادارة السياسية تحسن نظام الادارة والحكم . وهكذا كانت الحرب تترقى بترقي أدواتها وانظمتها ؛ وفى الوقت نفسه ترد هذا التأثير لتلك الأنظمة التي كانت تعمل فى ترقيها .

يعتقد المفكرون أنه لو لا الحروب العالمية العظمى الأخيرة لما ترقى فن الطيران بهذه السرعة التي ترقى بها ، بل لاستغرق ارتقاؤه نصف قرن على الأقل .

وهناك أمور كثيرة احدثتها هذه الحرب كتحسن فن الجراحة واختراع كثير من الاختراعات التي أصبحت بعد الحرب تستخدم اقتصادياً وصناعياً كالغوص فى البحار وكالدبابات التي يرجى أن تفيد فى الزراعة الى غير ذلك .

وعليه فان الحرب سنة من السنن الطبيعية وعلاج يلجأ اليه فى معالجة أمراض وادواء « الانسانية » والامم والحرب من العناصر الفعالة القوية لتقدم الحضارة والمدنية احيانا . وهي ضرورة اجتماعية للتفاعل الاجتماعى والتوازن الأممى ويشاهد الانسان اثرها حتى فى توازن الكون ولولا التصادم الموجود فى عالم الحيوان والانسان لتعطلت سنة الكون ولتعطل العمران وتأخرت البشرية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » لأن الناس والجماعات مختلفو المصالح والأغراض والمآرب فهم يعملون متناهضين متعارضين وعلى تعبير الرياضيين الميكانيكيين يتحركون متقاطعين وفى هذه الحالة يتصادمون وتصادمهم ينتهي بتدمير بعض انظمتهم ﴿ قلنا اهبطوا فيها بعضكم لبعض عدو . . . ﴾ الآية فاذا لم يكن ثمة من وسيلة لكبح جماح القوة الاجتماعية المتفوقة أو الزائدة ، حتى تتوازن مع غيرها كانت النتيجة دمارا للاجتماع .

إذاً يجب أن يكون في روح الاجتماع ما يسيطر على تلك القوى الاجتماعية المعتركة ويدربها فى سبيل التوازن حتى تستقر فى نظام — هو العقل الاجتماعى — .

فالارتقاء فى التمدن يستلزم هذا التغيير فى الانظمة وتقيحها أو ابدالها بأنظمة اكثر موافقة للحالة التمدنية الجديدة التي يتجه اليها المجتمع فى نموه إذاً اعتراك القوات مفيد للاجتماع البشري ولازم له (١)

(١) علم الاجتماع الآنف الذكر .

يقول اللورد ﴿ لوثيان ﴾ (١) سفير انجلترا في الولايات المتحدة :

ان الحرب ضرورة ورثتها الأمم القوية لتحديد علاقتها فحيث يفشل الاتفاق الودي لا تجد الأمم القوية مفراً من الحرب للدفاع عن كيانها واسترداد حقوقها فسواء حاولت هذه الامم ان تعمل كل منها على انفراد أوفضلت التحالف أو الاتحاد الدولي تحت نظام خاص كعصبة الأمم فهذه الحقيقة لا تتغير .

ان قوة الأمم معناها الملجأ الاخير الذي تلجأ اليه ، إذا لم تفلح سياسة الاتفاقات الودية مع الامم الاخرى . هي سياسة القوة أو الحرب ويترتب على هذه السياسة ان الحكومة ترى نفسها مسوقة الى تضحية حقوق ابنائها واستقلالهم لزيادة قوتها واستعدادها للدفاع عن كيانها كما هو ظاهر اليوم ، ومن النتائج المحققة لسياسة القوة والسيادة انتشار الفقر بين جمهور الشعب وازدياد عدد العمال العاطلين ، وانتشار الفساد واليأس بين السكان . وتقود هذه السياسة الى الحرب الاقتصادية بين الأمم حيث تحاول كل أمة ان ترعى مصالحها الاقتصادية بصرف النظر عن مصالح الامم الاخرى ، فترتفع الضرائب وتمتنع الهجرة ويوقف تصريف رؤس الاموال . وهذه القيود والحواجز الاصطناعية من شأنها ان تزيد في محصول كل أمة ؛ فيضيع التوازن بين محصول الأطعمة والخامات والقوة الصناعية ، لا في هذه الامم فحسب ولكن في العالم أجمع .

(١) مجلة الرسالة عدد ٣١٨ .

ويقول نابغة ألمانيا « لودندورف » (١) ان العامل الاساسي للكفاح هو حفظ العرق أو العنصر فالحروب الاستعمارية التي يثيرها الجشع والطمع ليست من الحروب الاعتصابية لأنها لا ترمي الى حفظ حياة الأمة . وان الحرب هي الكل في الكل وان السياسة خادمة لغايات الحرب .

ان أساس العلاقات بين الامم هو الكفاح او الحرب وما السلم إلا أمر طارئ .

ان الحرب والسياسة كلاهما لحماية الشعب لكن الحرب هي اسمى تعبير « للارادة القومية » للحياة لذلك على السياسة ان تكون تابعة لادارة الحرب .

وقال الفون « كلاوزه فج » الأستاذ الاعظم لفن الحرب في كتابه « الحرب » :

كلما عظم الدافع للحرب وقوى شملت الحرب وجود الامة بكامله . وكلما ازداد التوتر السابق للحرب شدة اقتربت الحرب من الهيئة المجردة واصبحت تستهدف القضاء على العدو بصورة أعظم واتفقت الغايات السياسية والحربية وظهرت الحرب بمظهر حربي اكثر من مظهرها بمظهر سياسي . أما من الجهة الاخرى فكلما ضعف التوتر والعوامل قل الاتجاه الطبيعي للعنصر الحربي وعظم الاختلاف الموجود بين الغايات السياسية والاهداف التي تتوخاها الحرب المثلى وبكلمة أخصر اتخذت الحرب مظهراً سياسياً .

(١) عن كتاب الامة في الحرب .

وقد عرف هذا الأستاذ الأعظم الحرب بقوله : ان الحرب هي دوماً عمل اعتدائي تحاول بواسطته احدى الدول وضع دولة أخرى تحت سلطانها وعرفها « لودندورف » بقوله : الحرب هي اسمى تعبير « للارادة القومية للحياة » لذلك على السياسة أن تكون تابعة لادارة الحرب .

وعرفها علماء قانون الدولي العام (١) :

الحرب حالة عداء مسلح بين دولتين فأكثر أو بين حكومات وما دامت الحرب قائمة فان الدول المشتبكة فيها تعد اعداء بعضها لبعض وتوقف بينهـا كل العلاقات السياسية المألوفة ولا يبقى إلا مقارعة القوة بالقوة (٢) .

وحالة الحرب هي حالة قانونية يتولد عنها علاقات معينة مع الدول المحايدة التي لا تشترك فى الحرب كما انها تنظم علاقات الدول المتحاربة على وجه خاص .

وأهمية التمييز بين حالة الحرب وبين مجرد استعمال القوة عظيمة فان حالة الحرب وحدها هي التي يتولد عنها واجبات الحياد وتخول المتحاربين حقوقاً تقيد حرية غيرهم .

وهذه الحقوق والواجبات مقررة فى القانون الدولي ويعمل بها

(١) لأن حالة الحرب قد توجد بين جماعات المتحاربين الذين لم يعترف بهم كدولة .

(٢) عن كتاب القانون الدولى العام للأستاذ الكبير علي ماهر باشا رئيس الوزارة المصرية الحالية .

بصرف النظر عما اذا كانت أسباب الحرب مشروعة أو غير مشروعة .

وتكون الحرب مشروعة إذا أعلنت من سلطة عامة وفى سبيل تحقيق غرض عام وان حالة الحرب قد توجد :

أولاً : بتوجيه دولة أعمالاً عدائية ضد دولة أخرى بقصد محاربتها كما إذا سلطت دولة قوتها الحربية على دولة ضعيفة متاخمة فجأة ومن غير انذار لتنال بالحرب ما عجزت عن نيله بالوسائط الأخرى .

ثانياً : من عمل صريح من جانب الحكومة يصدر دالا على أنها تعد تصرف حكومة أخرى — مهما كان قصد هذه الأخيرة — قد أوجد بالفعل حالة الحرب وذلك كما فعلت الحكومة الأسبانية / ٢١ ابريل سنة ١٨٩٨ حينما صرحت لوزير امريكا فى مدريد انها تعد قرار المؤتمر الامريكي الذي أيد الرئيس « مكنلى » فى انكار سيادة اسبانيا الشرعية على (كوبا) وفى التهديد بالتدخل بالقوة المسلحة فيها مساويا لاعلان الحرب . وكما فعلت فرنسا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ حينما أعلنت قيام الحرب بينها وبين تركيا بسبب العمل العدائي الذي أتاه الأسطول التركي فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٩١٤ .

ثالثاً : إذا لم تعبأ دولة بانذار نهائي ابلغ اليها وكان فى هذا الانذار تصريح بأن الحرب تبدأ إن لم تقم هذه الدولة فى ميعاد محدد باجابة طلبات معينة . أما ان هي لم تعتبر عدم اجابة الطلبات فى الميعاد معيناً لبداية حالة الحرب فان الانذار لا يعد إلا منبئاً لسبب الحرب ومبرراً له فقط . مثال ذلك ان المانيا أنذرت روسيا فى ٣١ يوليه سنة ١٩١٤

بوجوب الشروع فى تسريح جيوشها فى ظرف اثنى عشرة ساعة فلما لم تفعل أعلنت اليها المانيا اعلاناً جديداً بأن عدم التسريح قد أوجد حالة الحرب . وقد انذرت بريطانيا العظمى فى ٤ اغسطس سنة ١٩١٤ المانيا بأنها تلجأ الى القوة فى دفع الاعتداء على حياد بلجيكا ان لم تصرح المانيا قبل نصف الليل تصريحاً مؤكداً بوقف انتهاكها لحرمة حياد بلجيكا فلما لم تجب المانيا اعلنتها بريطانيا العظمى بالحرب .

ومثال ذلك ما قام به الامام علي عليه السلام عند ما أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد ارساله جريراً بن عبد الله البجلي الى معاوية (للمفاوضة بشأن أخذ البيعة) أجابهم : ان استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم اغلاق للشام ، وصرف اهله عن خير ان أرادوه ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً . والرأي عندي مع الاناة فارودوا (١) ولا اكره لكم الاعداد ولقد ضربت انف (٢) هذا الأمر وعينه وقلبت ظهره وبطنه فلم أر إلا القتال أو الكفر » .

ومن كلامه هذا يرى القارئ كيف ان أمير المؤمنين لم ينقطع أمله في مفاوضة معاوية وأهل الشام في أخذ البيعة له فاستعداده للحرب وجمعه الجيوش وسوقها لأرضهم اغلاق لابواب السلم على أهل الشام وصرف لهم

(١) أي سيروا برفق .

(٢) مثل تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر . وانما خص الانف والعين لأنهما اظهر شيء في صورة الوجه وهما مستلفتا النظر .

عن الخير ان كانوا يريدونه ولكنه لا يكره الاعداد أي : ان يعد كل شخص لنفسه ما يحتاج اليه في الحرب من سلاح ونحوه ويفرغ نفسه مما يشغله عنها لو قامت حتى إذا دعي اليها لم يبطئ في الاجابة ولم يجد ما يمنعه من اقتحامها .

ومثال ذلك ايضاً ما أوصى به الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص بقوله : —

ثم لا تعاجلهم المناجزة ، ما لم يستكرهك قتال ؛ حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله .

وكوصية الامام علي عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدو بصفين « لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم ، فانكم ـ بحمد الله ـ على حجة ؛ وتركـكم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لـكم عليهم »

وقد استمد خلفاء المسلمين هذه القاعدة (١) القانونية السامية من حديث الشرع الأعظم (ص) ومنه :

(وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى خصال ثلاث فايتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واعلمهم ان فعلوا ذلك كان لهم ما للمهاجرين وان عليهم ما على المهاجرين فان ابوا أن يتحولوا منها فاخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون

[١] هـذه القاعدة قررها الاسلام في القرن السابع الميلادي ولم يتوصل اليها المشرعون في اوروبا إلا في القرن التاسع عشر ـــ فتأمل ـــ

لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبوا فاسألهم الجزية فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)

ولما غزا سلمان الفارسي المشركين من أهل فارس قال : كفوا حتى أدعوهم كما كنت أسمع رسول الله (ص) يدعوهم فأتاهم فقال : انا ندعوكم الى الاسلام فان أسلمتم فلكم مثل ما لنا وعليكم مثل ما علينا . وإن أبيتم فاعطونا الجزية . وان أبيتم قاتلناكم . فدعاهم كذلك ثلاثاً فابوا عليه فقال للناس انهدوا لقتالهم .

رابعاً : وتوجد حالة الحرب باعلان حرب رسمي ترسله دولة الى أخرى يبين منه ان حالة السلام بينهما انتهت وحلت محلها حالة الحرب ، وليس الآن من نظام معين لاصدار مثل هذا الاعلان ولا من صيغة مخصوصة له فيكفي فيه مجرد بلاغ بسيط . ويقع اعلان الحرب قبل الشروع في أي عمل عدائي كما يقع بعد بدء الأعمال العدائية . فقد أعلنت اليابان الحرب على روسيا في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٤ مع ان الأسطول الياباني كان قد بدأ أعماله العدائية في ٦ فبراير سنة ١٩٠٤ إذ أسر سفينة روسية واستمر في عدائه فاطلق التوربيد على سفينة أخرى في ٨ فبراير ثم هجم الاميرال (توجو) هجمته المشهورة في ٩ فبراير التي قضى فيها على أهم وحدات الاسطول الروسي في الشرق الاقصى قبل اعلان الحرب رسمياً وأعلن المؤتمر الامريكي في ٢٥ ابريل سنة ١٨٩٨ الحرب على أسبانيا بعد بدء الحرب بالفعل لذلك قرر في اعلانه أن بداية الحرب تعتبر من يوم ٢١ ابريل وقد غزت المانيا أراضي فرنسا في ٢ أغسطس

سنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب في اليوم التالي .

معاهدة لاهاى سنة ١٩٠٧ [١]

تقضى المادة (   ) من هذه المعاهدة بأنه لايجوز بدء الاعمال العدائية قبل صدور تنبيه سابق صريح يصاغ بشكل اعلان حرب مسبب أو بشكل انذار نهائي يتضمن اعلان الحرب معلقاً على عدم تحقيق ما هو مطلوب من الشروط [٢]

وقد علق علي ماهر باشا على هذه المادة بقوله :

ان هذه المادة غير وافية بالغرض فان المفاجأة والغدر لايمنعها اعلان حرب مسبب ولا انذار نهائي قصير الاجل الى آخره . . .

ويقول الفيلسوف (وُلف) [٣] في تبعة الحرب ومسؤوليتها :

ان الفائدة وحدها ليست سبباً مشروعاً للحرب ، وان بواعث المنفعة قد

---

[١] القانون الدولي العام المار الذكر .

[٢] ان طريقة اعلان الحرب قبل بدء الأعمال العدائية بعثت بوجه عام من جديد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فان القائم باعمال سفارة فرنسا في برلين سلم الوزارة الخارجية اعلانا رسميا بالحرب قبل بدء الحرب بين فرنسا وبروسيا وقد وقع مثل ذلك بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧ ولكن في القرن الثامن عشر كانت القاعدة بعكس هذا أي البدء بالاعمال العدائية قبل اعلان الحرب كما وقع بين النمسا وتركيا سنة ١٧٨٧ و ١٧٨٨ .

[٣] عن كتاب علم الدولة للاستاذ المحقق احمد وفيق .

يجوز أن تكون مدعمة فقط للاسباب القانونية ، وهي اسباب اذا انعدمت فلا يمكن ان تكفي البواعث المصلحية لتدبير الحرب . فالحرب التي تعلن بلا سبب مشروع تكون حرباً ضد العدالة (١) وأما إذا لم تقم على مصلحة جدية فهي على نقيض الانسانية . ومن الجائز معاملة من يضرم نارها كعدو مشترك لجميع الأمم .

شريعة الحرب في الاسلام [٢]

ان القتال لم يكن أول رأي ذهب اليه صاحب الشريعة الاسلامية فقد كان مأموراً فى الابتداء بالصفح الجميل والاعراض عن المشركين ثم أمر بالدعاء الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ومكث بضع عشرة سنة ينذر بالدعوة بغير قتال صابراً على شدة أذى العرب بمكة واليهود بالمدينة . فكان يأتيه أصحابه بمكة ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم (ص) « اصبروا لأني لم اؤمر بالقتال » وأخيراً لما استقر أمر المسلمين في المدينة أمر بالقتال اذا كان البدء به من المشركين (فان قاتلوكم فاقتلوهم ، وان جنحوا للسلم فاجنح لها . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين

---

(١) كما تتهم انكلترا وفرنسا اليوم المانيا بمطالبتها ضم (الدانزغ) والممر في اراضي بولونيا وان مطالب المانيا بذلك لم تكن عادلة ولم تقم على مصلحة جدية .

[٢] عن كتاب الشرع الدولي في الاسلام للأستاذ المدقق نجيب الأرمنازي .

أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

ثم اذن في القتال ولكن في غير الاشهر الحرم : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) ثم أمر به وجوباً من غير تقييد بشرط ولا زمان (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وقاتلوهم كافة كما يقاتلونكم كافة) .

وفريضة الجهاد على نوعين : أحدهما فرض عين على كل من يقوى عليه بقدر طاقته وهو ما إذا كان النفير عاماً . وهجم العدو على بلدة من بلاد المسلمين فتخرج المرأة بدون إذن زوجها والعبد بدون اذن سيده والمدين والكفيل حتى الولد لدفع العدوان والذود عن البيضة . وثانيهما فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين لحصول المقصود من اعزاز الدين وكسر شوكة المشركين .

والجهاد يكون بغير حمل السلاح بالقول والبذل والعمل الصالح في سبيله .

وإذا دخل المسلمون دار الحرب (١) فحاصروا مدينة او حصناً دعوهم الى الاسلام فان أجابوا كفوا عن قتالهم واذا امتنعوا دعوهم الى أداء الجزية فان بذلوها فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين فان أبوا

(١) عن الشرع الدولي في الاسلام .

ذلك لجأ المسلمون الى القتال .

ولا يجوز أن يقاتل من لم تبلغه الدعوة الى الاسلام إلا أن يدعوه فقد ثبت أن النبي ﴿ ص ﴾ ما قاتل قوماً حتى دعاهم الى الاسلام (١) وكان يقول في وصية أمراء الجيوش « ادعوهم الى شهادة أن لا إله إلا الله ولأنهم بالدعوة يعلمون انما نقاتلهم عن الدين لا طمعاً في أموالهم وسبي ذراريهم » .

فالجد في الانذار ربما ينفع على ان امير الجيش مخير في قتال هؤلاء بفعل ما علم انه الأصلح للمسلمين وانكأ لاعدائهم من قتالهم وانذارهم فقد صح ان النبي أغار على بني المصطلق وهم غادون .

فاذا بدأ الأمير بالقتال قبل الدعاء الى الاسلام والانذار بالحجة وقتلهم غرة وبياتاً ضمن ديات نفوسهم وكانت على الأصح من مذهب الشافعي كديات المسلمين وهذا مذهب الامامية الاثنىعشرية ايضاً .

وقال ابو حنيفة : لا دية على قاتلهم ونفوسهم هدر وهو آثم بالقتال قبل الدعوة لوجود النهي .

وقد مر فيما تقدم حكم حالة الحرب واعلانها في الاسلام كما جاء في الحديث الشريف ووصايا الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله .

تحريم الحرب

إذا نظرنا الى الآراء الاجتماعية المتقدمة وفي مقدمتها رأي ابن خلدون

(١) ان هذه القاعدة لم تأخذ بها الامم الغربية إلا في القرن التاسع عشر كما مر — فتأمل —

نجد ان جميع المحاولات التي تبذل في سبيل تحريم الحرب بين الشعوب فاشلة وما هي إلا تدابير لا يراد بها عند أعظم المشرعين للشرائع الدولية إلا تخفيف الشرور الانسانية والأخذ بقاعدة « اهون الشرين » وعلى الرغم من شيوع المذهب القائل بتسوية ما يقوم من الخلاف بين الدول بالوسائط الودية أو بالطرق القضائية عند الامكان فان الدوائر الدولية لا يزال يعول فيها على أن طريق التسوية الوحيد المعقول الذي يتفق مع الشرف (١) هو الحرب .

وهذا الرأي الذي لم يضعف مطلقاً يستند الى الواقع الذي يجب أن يكون محلاً للنظر والاعتبار . هذا الواقع المحسوس هو الذي تبني عليه الدول المستنيرة تصميماتها وبياناتها الحربية براً وبحراً .

وستستمر قواعد الحرب من الأصول الجوهرية في قواعد القانون الدولي ما دام موجوداً بين الدول من يرى الحرب هي الوسيلة الأخيرة لحل المنازعات .

والاحتجاج بالضرورات الحربية كثيراً ما كان الغرض منه التخلص من القيود الدولية الموضوعة لضبط النفس عن الأهواء والشهوات . ولكن الأسباب التي دوت بها الحرب العظمى في أنحاء العالم ربما تبعث الدول على التفكير في وضع قواعد للحرب تكون اكثر ملاءمة لخير الانسانية (٢) ولتخفيف هذه الويلات ومقاومتها بذل فقهاء القانون الدولي جهودهم

[١] القانون الدولي العام المار الذكر .

[٢] نفس القانون الدولي .

لغرض انماء التضامن الدولي وهو التزام الكف عن أي اعتداء يلحق بالتضامن أي أذى (١) ثم أنشأوا فكرة الواجبات الوضعية الدولية وبهذه الواسطة حاولوا تحقيق فكرة الجماعة المدنية الكبرى التي استخلصها « سباريس » بشكلها القانوني بعدان كانت فكرة أدبية (٢) .

مبدء عصبية الامم في الفقه الاسلامي :

ان الجهاد واجب عند أبي حنيفة على المسلمين إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج اليهم وهذا مذهب الامامية من الشيعة ايضاً . وكان الثوري يقول : قتال المشركين ليس بفرض إلا أن يكون البداية منهم فحينئذ يجب قتالهم دفعاً وذلك لقوله تعالى (فان قاتلوكم فاقتلوهم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وهذا مذهب الامامية ايضاً وسندهم في ذلك الخبر المروي عن أمير المؤمنين (ع) حينما سئل عن المشركين أيبدأهم المسلمون بالقتال في الشهر الحرام ؟ : فقال (٣) إذا كان المشركون يبدأونهم باستحلاله ثم رأى المسلمون انهم يظهرون عليهم فيه وذلك قول الله عز وجل (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) ويستدل معارضوهم في رأيهم بآيات وأحاديث أخرى .

ومهما يكن من هذا الخلاف بين الائمة (٤) فيما إذا كانت الحرب

(١) ولكن الحوادث الحاضرة في اوربا قد ضربت هذه القاعدة عرض الحائط .

(٢) عن علم الدولة . (٣) عن كتاب وسائل الشيعة .

(٤) عن الشرع الدولي في الاسلام .

تجوز ابتداء أو لا تجوز فانا ننظر اليه من وجهتين : الوجهة الاولى ان الذي يتأمل في المواضع التي ورد فيها القتال في القرآن يجد أن القتال لم يشرع إلا للدفاع عن النفس وحماية الدعوة من أن تقف الفتنة في سبيلها مع النهي الصريح عن الاعتداء والأمر بالمحاسنة في بعض الاحيان ، وأحسن ما يوضح ذلك ما جاء في سورة (الممتحنة) (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) .

والوجهة الثانية : ان الامام الثوري وسواه انكروا فريضة القتال ابتداء وهم من كبار المجتهدين وأئمة الاسلام في عهده الاول . وهذا المذهب في حرب الدفاع من الامور التي نظرت فيها كثيراً عصبة الأمم . وعقدت لأجلها المجامع والمؤتمرات فأخذت العهود والمواثيق لتحريم حرب الاعتداء كما جاء في احدث القواعد الدولية (١) فكذلك وجد عند المسلمين قبل ألف سنة مثل الامام الثوري من يقول في تحريم حروب الاعتداء ومن المذاهب الاسلامية القائلة بذلك مذهب الامامية من الشيعة لقول أمير المؤمنين (ان الداعي باغي والباغي مصروع) ويستحب عندهم امساك اهل الحق عن الحرب حتى يبدأهم به أهل البغي) .

(١) غير ان هذه القواعد الدولية قد خرقتها الدول الاوربية في هذه الايام وقد اصبحت حديث خرافة يا ام عمرو .

التصـــابح :

يرى علماء الاجتماع (١) ان في بعض الأحيان تشتد الاخطار فلا ينجو منها إلا القوي إذ يسابق غيره الى وسائل النجاة مثال ذلك : ان الجماعة يهلك فيها أولاً الضعفاء لعجزهم عن تحصيل رزقهم واذا اشتدت قليلاً كان الخطر عليهم أشد إذ يجرء الأقوياء على اختلاس أشياء الضعفاء واستلابهم بل نهبهم عنوة واذا اشتدت كثيراً جعل الاقوياء يقتلون الضعفاء لكي يخلو مكان هؤلاء اولئك واذا اشتدت ايضاً بحيث لم يبق رزق حتى للأقوياء أكل الاقوياء الضعفاء والارجح ان اشتداد المجاعات هو سبب نشوء عادة أكل البشر لحوم البشر (٢)

النواميس قضت أن * لا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيفاً * أكلته الأقوياء

ويقولون : ان المناهضة تلطف المناهضة كثيراً الى درجة تكاد أن تزول حتى تنتهي في التساهل أو التوافق أو المداراة بين من يكون بعد انتهاء المناهضة . القوي يقتل الضعيف والاقوياء إذا لم يؤآلفوا رفاقهم بل بقوا خطراً عليهم تألب هؤلاء عليهم فالفريق الظافر يقتل الفريق الآخر أو يطرده وان تفوق فريق على فريق أرشدهم طول عهد النزاع الى التوافق والمسالمة وتساهل كل فريق مع الآخر في هذه الحالة تكون قوتا الجانبين متوازنتين ومع ذلك لا ينفك كل من الفريقين حيناً بعد حين

(١) عن علم الاجتماع لنقولا الحداد .
(٢) كما وقع ذلك في الموصل في الحرب العظمى سنة ١٩١٦ م .

يمتحن قوة خصمه حتى إذا توسم منه ضعفاً نازعه .

فنرى مما تقدم أن تصادم القوات هو منشأ التساهل والعدالة والتلاقي عند مركز الحق . وليس منشأ التساهل والعدل ، « الحكم العقلي » في الحق والباطل وما وظيفة العقل في هذه الحالة إلا اقناع الشهوات والعواطف بأن استمرار النزاع يقضي الى هلاك الخصمين فمن الصواب لا بل من العدل ان يتفقا .

أما تعريف الصلح باصطلاح القانون الدولي (١) هو العقد الذي يجعل كل عمل عدائي يعقبه غير مشروع بصرف النظر عن جهل الفاعلين بأن القتال قد انتهى . فاذا وقعت افعال عدائية أدت الى نتائج فى مصلحة أحد المتعاقدين وجب إعادة كل شيء لأصله ودفع التعويض عما لحق الآخر من الضرر الذي لا يمكن اصلاحه والصلح فى مقدمة الوسائل الناجعة لوضع حد للقتال وفض النزاع إذا دبت فى المتحاربين الرغبة فى الصلح . على أنه لا يعد من التعنت فى شيء امتناع متحارب عن الدخول في مفاوضات قبل التأكيد من اخلاص عدوه في الرغبة في الصلح أو في قبول أساس معين له ففي هذه الحالة تكون المفاوضات التمهيدية ضرورية . وهذه المفاوضات تكون للمصارحة في قواعد الصلح وفي الشروط التي تقترح بشأنه أو للمفاوضة الحرة من كل قيد أو لوضع قواعد وقتية يعمل بها مباشرة فتقرب عقد الصلح عما إذا تركت حالة العداء مستمرة من غير ضابط فيتفق على وقف القتال في الحال مثلا وتعقد هدنة عامة تمهيداً للمفاوضات .

(١) عن القانون الدولي الآنف الذكر .

ومتى صرحت دولة متحاربة بصفة رسمية باستعدادها لقبول شروط صلح معينة عرضت عليها كان هذا دليلا على أن الدول المتحاربة قد اتفقت على المسائل الجوهرية قبل عقد مقدمات الصلح واذا ما فهمنا هذا علمنا سر وصية الامام عليه السلام لعامله الأشتر : « ولا تدفعن صلحاً دعاك اليه عدوك لله فيها رضا ، فان في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من هومك ، وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن » .

هذا وقد اشترط علماء القانون الدولي (١) في القرن العشرين العناية في المفاوضات التمهيدية التي يقوم عليها أساس المعاهدة فلا توضع في مقدمات الصلح عبارات يكون من شأنها أن تقيد الحق في اتخاذ موقف خاص في مسألة لم يبت فيها نهائياً . والأعمال السابقة على مقدمات الصلح هي التي تسمى بالمفاوضات التمهيدية سواء كان التفاهم فيها بين المتحاربين حاصلا بطريق التعاقد أم بمجرد قبول أساس عرض بانذار نهائي .

ومقدمات الصلح هي عبارة عن كل اتفاق وحتى يضع أساس معاهدة نهائية يراد عقدها ويمهد لنظام المفاوضات فيها . وهذه الاتفاقات التمهيدية ليست مفيدة فقط بل هي تكاد تكون ضرورية للتعجيل بنهاية الحرب وان الفائدة من التمهيد بمقدمات الصلح متوقفة على العناية التى تبذل في تحريرها وإلا كانت عقبة فى سبيل الصلح بدلا من أن تكون عونا على بلوغ الشروط المرغوبة فيه وذلك لأن من يتعاقد بمثل هذا الاتفاق التمهيدي يلتزم به فلا

[١] نفس المرجع .

يملك ان يفرض على خصمه شروطاً اقسى مما جاء فيه . فتقصر أحد المتعاقدين فى تدوين أية ميزة جوهرية عند الاتفاق على اساس يمنعه فى الغالب من الحصول عليها بعد . إلا إذا قدم تضحية خاصة فى مقابلها أو كان خصمه لا يجد فى التنازل عنها ضرراً بمصالحه . واذا لوحظ ان من حق المتحارب ان يمتنع عن المفاوضة فى موضوعات غير منصوص عنها فى الاتفاق التمهيدي ما لم تكن من المسائل الأصلية فى الصلح والتي لا تخلو منها معاهدة توضع لانهاء الحرب يقدر الانسان حينئذ أهمية العناية بالتحرير من اول الأمر .

ولأجله من المناسب فى المعاهدات الدولية المهمة ان تتضمن نصاً يحيل فض الخلاف فى التفسير أو فى التطبيق على محكمة تحكيم خاصة . على انه اتقاء للخلاف فى التفسير تجب العناية فى تحرير الشروط التى يتفق عليها فلا تستعمل فيها الا العبارات البسيطة التى لا تحتمل التأويل . ويجب التزام الضبط فى البيان والصراحة التامة فى الشروط والاحكام فلا يعدل عنها لاخفاء طبيعة امتياز ممنوح أو للمحافظة على كرامة المانح وظاهر انه غير مسموح بحال ان تدون فى المعاهدة عبارات مبهمة لاقتناص رضا أحد الفريقين فى غير اتفاق يقصد اثارة الجدل بعد (١) .

ومن قواعد القانون الدولى العامة هي انه اذا لم ينص فى معاهدة الصلح على امر ما بقى على حالته التى هو عليها وهذا ما يبين بوضوح أهمية الضبط فى تحرير المعاهدة النهائية .

[١] نفس المرجع .

هذا ما توصل اليه علماء حقوق الدول فى هذا العصر واليك ما قاله علي بن أبي طالب عليه السلام لعامله حين ولاه مصر فى هذا الباب : « ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة » فترى ان هذه الجملة قد تضمنت القواعد الحقوقية الدولية المتقدمة بكل دقة ووضوح ومن آثار الصلح انقضاء الحرب وأسباب قطع العلاقات السياسية فيهيء السبيل الى اعادة علاقات الصداقة بين المتحاربين والدول لا تتأخر عادة فى اعادتها . والقضاء على حالة الحرب يقضي على أسباب وقف ما بين المتحاربين السابقين من الاتفاقات والعقود التي لم تلغها الحرب فتصبح نافذة المفعول وتزيل جميع العوائق بين المملكتين ويترتب على ذلك ايضاً انجلاء القوات العسكرية عن البلاد التي احتفظت بها الدولة صاحبة السيادة عليها وبالجملة فان الرجوع الى حالة السلام يجعل جميع الاعمال التي كانت تبررها الحرب غير مشروعة .

ومن مبادىء القانون الدولي العام هو تنفيذ المعاهدات الواجبة التنفيذ فان القواعد الدولية تقضي بأن المعاهدات التي تبادل المتعاقدون التصديق عليها تنتج أثرها القانوني بين الدول من يوم التوقيع عليها فتسري أحكامها على ما سبق من الحوادث وتنفذ المعاهدات بروح الاخلاص والولاء (١) .

ومن المبادىء المقررة ان المعاهدات التي عقدت وفقاً للدستور يجب تنفيذها فى البلاد باعتبار كونها تشغل الذمة العامة للدولة وهي تعد قانوناً سامياً فى البلاد فيجب على القضاة رعايتها ما دامت لم تنقضها سلطة مختصة

(١) نفس المرجع .

وقد ذهبت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة الى تقرير قاعدة ان المعاهدات التي عقدت وصدق عليها وفق الدستور تنسخ ما يخالفها من القوانين المحلية

وبعد أن نوهنا عن المبادىء والقواعد الحقوقية الدولية التي وضعها فقهاء القرن العشرين بشأن تنفيذ المعاهدات نشير الى ما قرره بهذا الخصوص أمير المؤمنين علي عليه السلام فى عهده الذي بين ايدينا :

« ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله طلبة لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » .

وقال عليه السلام : لو لا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس الا ان لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة الا وان الغدر والفجور والخيانة فى النار .

ومن المبادىء والقواعد الحقوقية الدولية فى عصرنا الحاضر هو تفسير المعاهدات فأساس التفسير (١) هو تبيين معنى العبارات العام لا معناها عند الطرفين لأن الغرض تفسير العقد ومقاصد الطرفين لا تفسير ما أراده أحدهما والكلمة العادية تفسر بمعناها العادي والفنية تؤخذ بمعناها الفني والعبارات المبهمة أو المشكوك فيها تفسر بما يجعل احكام المعاهدة متوافقة لا متناقضة ومن المهم الرجوع الى تصريحات المفوضين عند نهاية المفاوضة أو عند تبادل التصديقات فانها تدل على ما فهمه الخصوم من معنى العبارات

[١] نفس المرجع .

التي سطرت ويلاحظ فى التفسير أيضاً أن لا يجعل من اغراض الطرفين مخالفة قواعد الأدب الدولي أو دواعي الاعتدال ولا تسهيل ارتكاب غش أو حماية بل يفرض عند التفسير حسن النية وسمو الغاية وما ينير الطريق لتبين مقاصد الطرفين ما جريا عليه فى تنفيذ عقد الاتفاق .

ومن مبادىء هذا العلم فى القرن العشرين فسخ ونقض المعاهدات إذ لا يجوز الخلط بين حق الدولة قانوناً فى نقض معاهدة وبين قدرتها على القضاء عليها بالقوة (١) لأن استعمال الحق كلما وجد لا يبرر شكوى أحد بخلاف استعمال القوة فانه لا يعد مشروعاً إلا إذا كان واقعاً فى حدود حق .

والقانون الدولي يقرر ان المعاهدات (انما تعقد لتحترم) لأنه ان سمح للدولة أن تتخلص من عهودها متى أرادت لما بقي شيء ثابت فى الحياة الدولية فاستخدام القوة فى الاخلال بالتزام دولي لا يفيد المعتدى فى التخلص من تعهداته فى نظر القانون الدولي (٢) .

والآن تأمل ما يقوله الامام علي كرم الله وجهه لعامله فى هذا السبيل قبل ١٣١٨ عاماً :

(وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما اعطيت فانه ليس من فرائض الله شيء ، الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك

(١ و ٢) نفس المرجع .

المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فانه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي وقد جعل الله عهده وذمته أمناً افضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه) .

قواعد السلم فى الاسلام [١]

ذهب جمهور الفقهاء الذين عاشوا فى أيام الفتح الاسلامي الى أن حالة الحرب هي القاعدة عند المسلمين وان السلم ليست إلا هدنة يستعد بها لاستئناف القتال وخوض غمراته من ذلك ما جاء عن ابي حنيفة انه لا ينبغي موادعة أهل الشرك اذا كان بالمسلمين عليهم قوة لأن فيه ترك القتال المأمور به قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وان لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة لأن الموادعة خير للمسلمين وقد قال تعالى : ﴿ وان جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ لأن هذا من تدبير القتال واستدل على جواز الموادعة بمباشرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك والمسلمين الى يومنا هذا . وعلاوة على ما هو معروف مشهور من هدنة الحديبية فقد وادع النبي ﴿ ص ﴾ منذ قدومه المدينة اليهود كما جاء فى حديث محمد بن كعب القرظي : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وادعته اليهود كلها وكتب بينه وبينها كتاباً

[١] نقتبس هذا الفصل وما بعده عن كتاب شرع الدولي في الاسلام بزيادات لم يتناولها مؤلف الكتاب .

والحق كل قوم حلفاءهم ، وكان فيما شرط عليهم ان لا يظاهروا عليه عدواً ، ثم لما قدم المدينة بعد وقعة بدر بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله من العهد .

ومع ما ورد مثل هذه الاخبار العامة ونزول آية مطلقة مثل قوله تعالى ﴿ فان جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ ونزول غيرها فى الذين اعتزلوا الفتن ولم يقاتلوا المسلمين مثل قوله : ﴿ فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ فالفقهاء مجمعون على تقييد الموادعة برؤية مصلحة المسلمين وتحديدها بقدر ما استطاعوا ولا يتركون للامام الخيار فى شأنها (١) الا على ان لا يخرج عن حكم الله ، فلا يجوز ترك القتال مع أهل الحرب إلا ان يكون خيراً للاسلام واهله وحينئذ تكون الموادعة جهاداً معنى . لأن المقصود وهو دفع الشر حاصل بها . ولا بأس بموادعة المرتدين الذين غلبوا على دارهم لأنه لا قوة للمسلمين على قتالهم فكانت الموادعة خيراً لهم ولكن يكره اخذ الجعل منهم على الموادعة بخلاف اهل الحرب . واذا اراد قوم من هؤلاء موادعة المسلمين سنين معلومة على أن يؤدوا اليهم الخراج كل سنة شيئاً معلوماً ولا تجري احكام الاسلام في بلادهم لم يفعل ذلك — على ما جاء في المبسوط — إلا أن يكون فيه خير المسلمين لانهم بهذه الموادعة لا يلتزمون احكام الاسلام ولا يخرجون من أن يكونوا أهل حرب .

[١] باستثناء الامامية الاثنى عشرية فهم يرون الامام العادل غير مقيد فيما يراه من صالح المسلمين .

وقد استدل بعض الفقهاء بقوله تعالى : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ انه اذا لم تدع الى عصر المهادنة ضرورة لم يجز ان يهادنهم ويجوز ان يوادعهم اربعة اشهر فما دون ولا يزيدها عليها وذلك عند قوة المسلمين وأمنهم على أن النبي (ص) وادع اهل مكة عام الحديبية على أن يضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين . ولا يقتصر الحكم على المدة المروية عند الحنفية كما ورد في فتح القدير . لتعدى المعنى الى ما زاد عليها (مما قد يكون فيه مصلحة المسلمين) ويشترط الماوردي في كتاب (الاحكام السلطانية) الذي وضعه على مذهب الامام الشافعي ، ان لايجاوز اكثرها عشر سنين ، فان هادنهم اكثر منها بطلت الهدنة . وذلك استناداً على المدة المروية في صلح الحديبية .

واذا حاصر العدو المسلمين فابى موادعتهم الا أن يؤدوا اليهم شيئاً معلوماً كل سنة فلا ينبغي للامام أن يجيبهم الى ذلك لما فيه من الدنية والذلة الا عند تحقق الضرورة . وهو ان يخاف المسلمون الهلاك على انفسهم وقد جاء في الحديث : « اجعل مالك دون نفسك ونفسك دون دينك » فاذا رأى الامام ان ذلك خيراً لهم فحينئذ لا بأس أن يفعله لما روى في غزوة الخندق ان الرسول (ص) بعث الى عيينة بن حصن وطلب منه بأن يرجع ومن معه على ان يعطيه كل سنة ثلث ثمار المدينة فأبى الا النصف ، فلما حضر رسله ليكتبوا الصلح بين يدي رسول الله (ص) قام سيدا الانصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما وقالا يا رسول الله ان كان هذا عن وحي فامض لما أمرت به وان كان رؤيا

رأيتها فقد كنا نحن وهم في الجاهلية ، لم يكن لنا ولا لهم دين فكانوا لا يطمعون في ثمار المدينة ، الا بشراء أو قرى ، فاذا اعزنا الله بالدين وبعث فينا رسوله نعطهم الدنية ! ، لا نعطيهم الا السيف ، فقال (ص) اني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة ، فاحببت ان اصرفهم عنكم فاذا أبيتم ذلك فانتم واولئك اذهبوا فلا نعطيكم الا السيف ، فقد مال رسول الله الى الصلح في الابتداء . لما احس الضعف بالمسلمين وحين رأى القوة فيهم امتنع من ذلك . وكان يعطي المؤلفة قلوبهم من الصدقة لدفع ضررهم عن المسلمين ، فانهم لو ظهروا على المسلمين اخذوا جميع الأموال وسبوا الذراري ، فدفع بعض المال ليسلم المسلمون في ذراريهم وسائر أموالهم أهون وانفع .

وان وجد الامام الحريص على سلامة المسلمين ودفع الاخطار التي تهددهم من ضرورة المعاقدة على سلم دائم لم يجز له عند الفقهاء ان يفعل لأنه الغاء لفريضة الجهاد (١) وكل موادعة يعاقد عليها يستطيع نقضها اذا راعى القواعد ولكن مع ذلك فقد رأينا سلاطين العثمانيين يعاهدون الدول على السلم الدائم ، كذلك فعلوا في معاهدتي قينارجه سنة ١٧١٤ وبخارست سنة ١٨١٢ مع روسية وفي معاهدة باريس سنة ١٨٠٢ مع فرنسا .

وقد ذهب فقهاء الامامية الاثنى عشرية الى انه يجوز للامام العادل الحريص على مصلحة المسلمين العامة أن يعقد مثل هذه المعاهدات في سبيل السلم الدائم ولا يجوز ذلك لغيره .

(١) بخلاف مذهب الامامية من الشيعة .

هذه خلاصة قواعد السلم في الاسلام ومن أراد التوسع فليرجع الى دراسة آراء الفقهاء المدونة في الموسوعات الفقهية .

المعاهدات في الاسلام :

لم يجتمع الناس على تعظيم شيء اجتماعهم على تعظيم الوفاء بالعهود والمواثيق فاخذوا به انفسهم في كل جيل وقبيل وقد اعتنى الدين الاسلامي كذلك أشد عناية في امرها فوردت في تأييدها الآيات والأحاديث الجمة وقد اسلفنا ذكر بعض منها ونحن نذكر الآن ما جاء من النصوص المؤكدة في الكتاب العزيز فقال : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة أربى من أمة (١) » . وقوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » (٢) وقوله تعالى : « إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق واستنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

ويحسن بنا أن نتأمل هاتين الآيتين الأخيرتين فالأولى تنص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي الواصل اليها والثانية تجعل حق الميثاق فوق كل حق وتمنع نصر المستغيثين من الاخوان في الدين . وعهود المسلمين التي أعطاها الرسول والخلفاء موجزة اي ايجاز فهي تقتصر

(١) سورة النحل . (٢) سورة براءة .

على الكلمة التي ينبغي ان تقال في سطرين أو ثلاثة ، وهذه العهود تمثل لنا النفس العربية في تلك الأيام في بعدها عن الفضول والزوائد وبساطة كل شيء فيها . والصفة الثانية لها انها كانت مع شمولها للفريقين المتعاقدين تكاد تظهر بانها معطاة من جانب واحد ولأجل توثيقها وتوكيدها تضاف في ذيلها أسماء الأعلام الذين حضروا وكان المسلمون وسواهم في الأيام الخالية يحلفون الايمان لتثبت العهود . ويأخذون الرهائن . وقد كره صاحب السير الكبير ان يعطي المسلمون رهائن بدون تحقق الضرورة لان المشركين لا يؤمنون على رجال المسلمين وان كانوا يعطون رهناً مثل ذلك من رجالهم . ولا يجوز للمسلمين ان يقتلوا ما في ايديهم من الرهائن إذا نقض اصحاب العهد وقد نقض الروم عهدهم في زمن معاوية وفي يده رهائن فامتنع المسلمون جميعاً من قتلهم وخلوا سبيلهم . وقالوا « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » وقال النبي ﴿ ص ﴾ « أدّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك » فاذا لم يجز قتل الرهائن لم يجز اطلاقهم مالم يحاربهم فاذا حاربهم وجب اطلاق رهائنهم ثم ينظر فيهم فان كانوا رجالا وجب ابلاغهم مأمنهم وان كانوا ذراري نساءً واطفالاً وجب ايصالهم الى أهليهم لانهم اتباع لا ينفردون بأنفسهم (١) .

ومن اول الاعمال ـ الاعمال التي عملها الرسول الاعظم عليه السلام ـ أن كتب كتاباً بين المهاجرين والانصار ودعا فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم واموالهم واشترط عليهم واشترط لهم وقد جاء فيه :

[١] الماوردي .

(وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) وفيه : (وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فانه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته) وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه : (وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله [ص] ، وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وانه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه (٢) .

وجرى صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة نحو ٦٢٨ م وكان النبي واصحابه خرجوا يريدون دخول مكه معتمرين ولا يريدون حرباً فساروا حتى إذا كانوا بالثنية التي يهبط منها على قريش جاءهم بديل ابن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل تهامة فقال : اني تركت كعب بن لؤي

(١) أي لا يهلك [ووتغ يوتغ وتغا] أثم وهلك في الدين والدنيا . واوتغ دينه بالاثم اى افسده . .

(٢) تاريخ الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣

وعامر بن لؤي نزلوا اعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله [ص] (إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وان قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فان شاؤا ان يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ؛ وان هم ابوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله امره) فقال بديل سأبلغهم ما تقول فانطلق حتى اتى قريشاً فقال انا قد جئناكم من عند هذا الرجل وقد سمعناه يقول قولاً فان شئتم ان نعرضه عليكم فعلنا . . فحدثهم بما قال النبي (ص) ثم جرت الرسل بين الفريقين واراد المسلمون مناجزة القوم وبايعوا النبي بيعة الرضوان تحت الشجرة وبعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له أيت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ؛ فوالله لا تتحدث العرب عنا انه دخلها علينا عنوة ابداً . فأتى سهيل بن عمرو العامري الرسول وتكلم معه في امر الصلح واتفقا على ان الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة واذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب بعد ان تخرج منها قريش ، ووضعت الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . وان لا اغلال ولا اسلال . ومن أتى محمداً من قريش من غير اذن وليه رده عليه ومن جاء مع محمد لم يردوه عليه . وقال الرسول لما كتب هذه واستكثرها المسلمون : (نعم انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن

جاء نا منهم سيجعل الله فرجاً ومخرجاً . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه) .

ثم دعا النبي علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو اكتب : باسمك اللهم فاجاب الرسول اليها . ثم أملى هذا ما قاضى عليه رسول الله . . . فقال سهيل والله لو كنا نعلم انك رسول الله . . . ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتب الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله ودخلت بنو بكر في عهد قريش . .

وهذا نص كتاب معاهدة الحديبية :

« باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد بن عبد المطلب ابن عمرو العامري ، على ان تخلي قريش بيننا وبين البيت تطوف به في العام المقبل وان من جاء نا منهم رددناه وان كان مسلماً . ومن جاء قريشاً ممن اتبعنا لا يرد الينا وان من دخل في عقد محمد وعهده دخل . ومن دخل فى عقد قريش وعهدها دخل » .

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء ابو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين . فقال سهيل هذا يا محمد أول ما اقاضيك عليه ، وأخذ بتلبيب ابنه . وابو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوني فى ديني . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا جندل قد لجت القضية بيننا

وبينهم ولا يصلح لنا الغدر .

ودخل المسلمين أمر عظيم من هذا الصلح وظن بعضهم ان شروطه لا تليق بهم حتى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال فعلام نعطي الدنية فى ديننا قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ثم نزلت سورة الفتح التي سمت هذه الحادثة فتحاً مبينا .

ولما دخل المسلمون مكة من عام قابل على نحو ما اشترطوه قالت قريش لعلي هذا آخر يوم من شروط صاحبك فأمره فليخرج فقال الرسول نعم فخرج . واراد ان يؤدب لقريش مأدبة فلم يجيبوا اليها .

وبقيت الهدنة بين الفريقين الى ان وقعت بين كعب وبين بني بكر حرب فامدت قريش بكراً بسلاح وطعام وظلت عليهم حتى ظهروا على بني كعب وقتلوا منهم وكان ذلك نقضاً للعهد . وحاول ابو سفيان ان يجدد الحلف ويصلح بين الناس فلم يجب النبي لبني كعب ثم سار الى مكة وفتحها .

وقد جرت فى مفاوضات هذه الهدنة امور تدلنا على مقدار ما كان عند هؤلاء القوم من شدة الحذر اذا أرادوا أن يعقدوا عهداً سياسياً . فقد استعملوا مثل ساسة اليوم التأجيل والأخذ والرد . وعملوا على أن يجتنبوا في العقد كل ما من شأنه ان يخلق سابقة أو أن يكون حجة تفضيل لفريق على فريق . وقد تسامح النبي كثيراً في وضع صيغة العهد ولكنه هو الذي كان في الحقيقة الفائز على خصومه ففي هذا العهد اعترفت قريش

المتكبرة بان ذلك الشريد المهاجر أصبح رئيس جماعة وعظيم ملة . وتيسر للمسلمين أن ينصرفوا لدعوة الناس الى دينهم وتمكين سلطانهم واعلاء كلمتهم . وفي ذلك العهد الذي عملت قريش ما أدى الى نقضه . وضعت القواعد لدخول مكة ومهدت السبيل لفتحها .

والمعاهدات الاولى التي عقدها المسلمون كانت مع الروم وقد عاقدهم ملوك بني أمية بادئ الرأي اضطراراً لسبب انتقاض الخارجين عليهم والنازعين لهم . فكانوا يريدون أن يأمنوا جانب الروم حتى يتخلصوا من عدوهم الداخلي . وقد بذل معاوية وعبد الملك مالاً للقياصرة لدفع هجومهم .

أما المعاهدات التي عقدت بين الروم والعباسيين فكانت على قسمين : قسم منها لتقرير هدنة بين الفريقين وكان الروم يبذلون المال احياناً لتحصيل هذه الهدنة وقد جرى ذلك في زمن الأوائل من الخلفاء العباسيين وأما القسم الثاني من المعاهدات فقد كان للمفاداة وفك الأسرى . وهذا مما كان يهم المسلمين والنصارى في تلك الأيام فيجمع الفريقان الأموال لتحرير الرقاب من ذل الاسار ويحتفلون في أيام المفاداة احتفالات لا نظير لها باجتماع العدد الوفير من الناس على أحسن ما يكون من شارة ومن زينة وهذا العمل الانساني في ارجاع الأسرى كان كذلك عملا تجارياً فان الفريق الذي في يده عدد كبير من الأسرى كان يستفيد اموالاً عظيمة من الفدي .

وقد جرت مفاداة عظيمة في زمن هارون الرشيد سنة ١٨٩ هجرية وقد سبقتها معاهدة وقعها القاسم بن هارون ومندوبو نقفور الأول . ثم

كانت عقود المفاداة تتعاقب بين الخلفاء والقياصرة . ولما كانت حروب نقفور الفقاسي وسيف الدولة كثر عدد الأسرى من المسلمين فدعا الناس سيف الدولة ليجمعوا الأموال والصدقات لفك العتاة فاجتمع مال كثير (١)

وكان الأمر كذلك بين نصارى اوربا وعرب أسبانيا وافريقيا فالفريقان كانا يعنيان أشد عناية فى فك الأسرى وحضر الناس على جمع الأموال للقيام بهذا العمل الصالح .

وبعد أن تعاقبت الأجيال على الملك الاسلامي واستقرت العلاقات الحربية والسلمية بينه وبين دول اوروبا على أسس ثابتة ولاسيما بعد الحروب الصليبية وتشابك المصالح والمتاجر . اخذ المؤلفون يضعون القواعد لسن العهود وكتابتها . وقد خص القلقشندي فى كتابه (صبح الاعشى) ثلاثة ابواب فى الهدن وعقود الصلح والفسوخ الواردة عليها وذكر منها عدة أمثلة . وبين الأصول والشروط التي يعتمد عليها فى وضعها وما يتفقان به وما يختلفان فيه . وما يلزم الكاتب فى تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام معاقدها . وكيف تكون الهدن بين أهل الاسلام واهل الاديان الأخرى وعقود الصلح بين ملكين مسلمين وان كل متعاقد يأخذ نسخة ويوضع التاريخ الهجرى وسواء على العقود التي تكون من جانب واحد واكثر . كما ان من المفاسخة ما يكون من جانب واحد أو ما يكون من الجانبين جميعاً .

[١] انظر في كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي تفاصيل ماجرى من عقود المفاداة .

والذي يتأمل هذه القواعد الموضوعة للهدن وعقود الصلح والفسوخ يجد تشابهاً يذكر بها وبين ما يوضع فى هذه الايام مثلاً فى الكتب التي تؤلف عن المعاهدات وأساليب وضعها واثباتها وابرامها ونقضهـا . وفى الأمثلة من المعاهدات التي يذكرها القلقشندي يجد المتأمل تفصيلا لكل شيء يمكن حدوثه بين المتعاقدين ورعاياهما مما يخص الشرائع الخاصة والعامة . غير ان هذه العقود حافلة بالمبالغات التي اصبحت سنة فى منشئات المسلمين بعد ان كادت فى صدر الاسلام تكون من جوامع الكلم .

وقد وضع (دولا ماترى) كتـابًا ضخما عن العهود والعقود التي جرت بين الدول الاسلامية في افريقيا والدول الاوربية منذ القرن الحادي عشر وهو يقول لنا في هذا الكتاب الواسع : ان العقود والعهود والمنح السلطانية لم تكن إلا صيغة خاصة لابرام المعاقدات التجارية . فهي تحوي قبل كل شيء الضمانات الكافلة حماية اشخاص النصارى واموالهم وما يقابلها من الواجبات التي تتعين على النصارى أو دولهم بمقابل الحقوق المعطاة لهم مع العناية بالنص على الغاء القرصان . وكانت العهود في الغالب والتى عقدت في القرن الثاني عشر تذكر اسماء المتعاقدين والمندوبين ثم تشهد الله على ما كتب . ويضاف في بعض الاحيان ان المتعاقدين وضعوا أيديهم بايدي بعضهم . عنوانًا للكلام بينهم وانهم تبادلوا النسخ المسجلة . وكان يذكر في القرن الثالث عشر غالبًا اسماء الشهود من العرب والنصارى وكذلك اسم الكاتب والمترجم . وجرى العرف على تعيين المكان الذي تعقد به المعاهدة وتتم فيه المفاوضات وفي الغالب ايضًا تكتب النسخة

الأصلية باللغة العربية وأما النسخة التى تعطى للنصارى فانها تكون مسجلة مثبتة عند كاتب عدل نصراني ماهر مترجمة عن النسخة الأصلية بتلخيص كثير . والنسخة المترجمة تختلف عن النسخة العربية بايجازهـا خصوصًا فى المقدمة والخاتمة والشروط الايجابية .

العهود الدولية والغدر بها فى العصر الحاضر :

والآن وجب أن نشير هنـا إلى العهود والمواثيق الدولية التي قامت الحكومات المتمدينة من غربية وشرقية بخرقها ونقضها بدون حق . ولا مبرر ولا تملك من الحجج لتسويغ ذلك إلا القوة القاهرة وحدها وهي كل اسبابها المشروعة التي تتمسك بها فى هذا السبيل وحسبنا من هـذا البحث عرض المعاهدات والمواثيق التي ارتبطت بها دول القرن العشرين قرن المدنية والراديو والكهرباء وليس من غرضنا مناقشة وجهة نظر تلك الحكومات فيما تدعيه وتزعمه من حق وباطل . إذ أن ذلك يهم المشتغلين بالفلسفة السياسية والتاريخ السياسي والحقوق الدولية .

ان أهم ميثاق لم تتقيد به بريطانيـا العظمى بعد أن قطعته على نفسهـا وأكدته في ظروف ومناسبات كثيرة هو الميثاق الذي تعهدت به للمغفور له المرحوم صاحب الجلالة الملك (حسين) بن علي المنقذ الأعظم بشأن استقلال البلاد العربية على اختلاف أقطارها ولم تنفذ تلك الوعود والعهود ، ولا حاجة الآن للاسهاب في عهود بريطانيا للعرب التي ذهبت ادراج الرياح بعد أن كان بعضها يأخذ برقاب بعض ، على ان بريطانيا قد قطعت عهوداً لعدة دويلات سرعان ما تلاشت وتبددت وكان نصيبها الخيانة والغدر !!

أما فرنسا : وهي كما يقال عنها انها امة الحرية والمساواة والمشرعة لحقوق الانسان وتحريم عذاب الحيوان فلا تقل عن حليفتها بريطانيا العظمى في خيانة العهود والغـــدر بالصديق ، وأقرب عهد لها قطعته على نفسها (معـاهدة الصداقة والتحالف) التى عقدتها مع الشعب السوري العربي ونكتفي هنا بالتعليق عليها بكلمة الكاتب الكبير الأستاذ المازني : (١)

« وما نظن ان احداً سيدعى ان فرنسا ارغمت على ذلك أو ان سوريا أملتها عليها بحد السيف ، ومع ذلك راحت تماطل في ابرامها ثم نقضت سياسة المعاهدة جملة وتفصيلا وقضت على الحكم الدستوري وقطعت البلاد أربا ، وزادت فاقتطعت الاسكندرون وتنصلت فأهدتها الى تركيا . وليس ماصنعته المانيا بجيكوسلوفاكيا بشر مما صنعت فرنسا . فما كانت جيكوسلوفاكيا أمانة في عنق المانيا وانما كانت شوكة في جنبها وضعتها هناك سياسة فرنسا . وأخيراً قيامها باهمال المعاهدة التى عقدت في سنة ١٩٣٦ بعد أن قسمت البلاد السورية الى محافظيات مستقلة ادارياً وقضائياً ومالياً وحكمها جميعاً حكما مباشراً » .

وهذه ألمانيا الهتلرية فلا تقل عن بريطانيا وفرنسا فى هـذا الباب مع انهن أمهات المدنية الغربية فى عصرنا الحاضر عصر « الراديو » فقد خطب المستشار هتلر خطبته الجامعة (٢) فى ٢٨ أبريل الماضي ، وأعلن فيها نقض الميثاق الألماني البولوني ، بحجة أنه عرض على بولونيا اقتراحاً

(١) مجلة الرسالة عدد [٣٢٠] من السنة السابعة .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ١٩ و ٢٠ من السنة الاولى .

عادلاً لتسوية مسألة « دانتسيج » والممر فرفضت عرضه ، وآثرت ان تشترك مع انكلترا . وان استقلال بولونيا قدضمنته معاهدة « فرساي » سنة ١٩١٩ على اثر انتهاء الحرب الكبرى . حيث انتهزت فرصة انهيار روسيا القيصرية وأعلنت استقلالها على يد جمعية وطنية تأسيسية سنة ١٩١٨ واعترفت معاهدة الصلح « معاهدة فرساي » بالدولة البولونية الجديدة ورسمت حدودها المواد ٨٧ — ٩٣ من المعاهدة . بعد ان عانت محنة الاستعباد زهاء قرن وربع قرن . وزادت معاهدة الصلح على ذلك بأن قضت بتمزيق بروسيا الشرقية الى شطرين يخترقها « ممر » يصل بولونيا ببحر البلطيق ، وفيـه يقع ثغر دانتسيـج والمنطقة الحرة على مصب نهر « فستولا » نهر بولونيا الرئيسي ، وعليه تقع عاصمتها وارشو ، وهذا هو الممر البولوني الشهير . وأما ثغر دانتسيج فقد قضت معاهدة الصلح باقتطاعه من بروسيا وجعله منطقة حرة ، ووضعت له نظاماً خاصاً ويتلخص دستور دانتسيج حسبما قررته معاهدة الصلح في المواد (١٠٠ ـ ١٠٨) في جعل ثغر دانتسيج منطقة حرة داخل الممر البولوني تحت اشراف عصبة الأمم . ويتولى حكم الثغر لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء بولونيين وخمسة اعضاء ألمان من ثغر دانتسيج ، ورئيس سويسري ولبولونيا حق الاتصال بالبحر عن طريق دانتسيج لاغراض تجارية وهي التى بنفسها تتولى علائق دانتسيج الخارجية وادارة الجمارك .

ان الهر هتلر نفسه هو الذي فكر غداة توليته زمام الحكم في تسوية العلائق بين المانيا وبولونيا على قاعدة الاعتراف بالحالة القائمة ، فعقـد

مع الماريشال « بلسودسكي » في سنة ١٩٣٤ ميثاقاً بعدم الاعتداء بين الدولتين هو ميثاق برلين ، وفيه تتعهد المانيا الا تثير مسألة المنطقة الحرة أو تطالب باي حق في الممر أو في تغيير نظامه لمدة عشر سنين . وقد كان عقد هذا الميثاق من متناقضات السياسة الهتلرية . وغاية ما تمسك به هتلر لنقض والغاء الميثاق الألماني البولوني المتقدم هو اقدام بولونيا على عقد ميثاق دفاعي مع انكلترا يقضي بان تتخذ بولونيا اجراآت حربية ضد المانيا اذا وقعت حرب بين المانيا ودولة أخرى واشتبكت فيها انكلترا .

وقد رد على الرئيس روزفلت رئيس الولايات المتحدة في خطابه الذي القاه في مجلس الريخستاج في ٢٨ ابريل ، ومما جاء فيه : (١)

(١) ان ضم المانيا لبلاد التشيك (بوهميا ومورافيا) وقع لضرورات تاريخية .

(٢) ان المانيا قررت نقض الاتفاق البحري الذي عقدته مع انجلترا ، والتزمت فيه تحديد قواتها البحرية نظراً لما تبين من انكلترا تعمل الآن لتطويق ألمانيا .

(٣) ان المانيا قررت نقض ميثاق عدم الاعتداء الألماني البولوني لأن بولونيا رفضت مطالب المانيا المعتدلة في دانتسيج وفي الممر ولأنها انضمت أخيراً الى خصوم المانيا .

وختم خطابه هذا بقوله : « ان المانيا ترفض المثول في أي مؤتمر دولي بعد ما ظهر من عقم المؤتمرات الدولية » .

(١) الثقافة عدد [١٩ و ٢٠] من السنة الاولى .

وقد خاطب المستر تشمبرلين ، رئيس الوزارة البريطانية الشعب الالماني بقوله : — (١)

« يؤسفني ان أقول انه ليس هناك من يثق بالعهود التي يقطعها زعيمكم على نفسه : فقد تعهد باحترام معاهدة (لوكارنو) فنكث بذلك . وصرح انه لا يميل لضم النمسا الى المانيا فخالف قوله . واعلن قبل (مونيخ) انه سوف لا يضم (تشيكوسلوفاكيا) الى الريخ فنكث بوعده هذا وصرح بعد مونيخ انه ليست له مطامع اقليمية في اوربا فلم يبر بوعده ، وقال ايضاً انه ليس له مطامع في بولونيا فنكث بذلك ، وأعلن دائماً انه اعدى اعداء البلشفية فتحالف معها اليوم .

وبذلك لا يكون لوعده اي قيمة بقدر الورقة المكتوبة . »

وها هي الدولة اليابانية الشرقية قلدت أمهات المدنية الغربية في نقض العهود والغدر بالصديق فقد غزت اقليم منشوريا (٢) وضمته اليها سنة ١٩٣١ وانسحبت من عصبة الأمم كي تجتنب مناقشاتها وتدخلاتها العقيمة . ثم توالت غزواتها وفتوحاتها لاقاليم الصين الشمالية تحت ستار مختلف الاعذار والحجج . واليابان تمضي في توغلها واجتياحها لاراضي الصين غير عابئة بالمعاهدات والعقود أو باحتجاج الدول .

وتكتفي بريطانيا العظمى وفرنسا بلفت نظر اليابان الى احترام المعاهدات

(١) وهو من خطاب للمستر تشمبرلين اذاعته محطة لندن ، اثناء طبع هذا الفصل فآثرنا ذكره .

(٢) الثقافة المصرية عدد ٣٤ السنة الاولى .

المعقودة لا سيما معاهدة الدول التسع التي عقدت مع الصين في واشنطون سنة ١٩٢٢ والتي ترتبط فيها اليابان مع الصين وباقي الدول ذوات المصالح فيها وهي امريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وهولندة والبرتغـال ، بوجوب احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الاقليمية والادارية .

وفي اثناء طبع هذه الكلمة اعلنت روسيا السوفتية التي تدعي نصرة الضعفاء وتحريرهم من البؤس والشقاء وتحارب الاستعمار اينما وجد خرق (اتفاقية عدم الاعتداء) بينها وبين بولندة وقد احتجت بتبرير غدرها ونكثها العهد باسباب هي أوهى من بيت العنكبوت وفيما يلي نص المذكرة الروسية التي سلمتها الحكومة السوفيتية للسفير البولندي في موسكو :

لقد اظهرت الحرب البولندية الالمانية انقراض الحكومة البولندية وفي العشرة أيام الاولى من هذه الحرب فقدت بولندا جميع صناعاتها وقواتها الدفاعية وانهارت حكومتها ولم تبق وارسو العاصمة ولا تظهر في هذه الحكومة معالم الحياة بل قد زالت من الوجود .

اما اتفاقية عدم الاعتداء بين روسيا وبولندا فقد اعتبرت كأنها لم تكن .

ولما كانت بولندا قد اصبحت طعمة لهذه الحرب فان روسيا تعتبرها خطراً على حدودها وبالرغم من ان الحكومة الروسية ملازمة الحياد الا انها لا يسعها ان تواجه هذه الحقيقة بموقف الحياد ايضا او تتغاضى عن مصير الروس والاوكرانيين في بولندا لهذا اوعزت الحكومة السوفيتية الى قيادة الجيش الاحمر العليا ان تأخذ على عاتقها حماية حياة وأملاك سكان اوكرانيا وروسيا البيضاء الغربيتين .

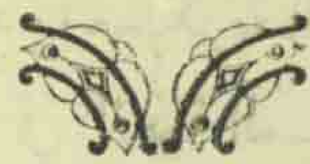
وتنوي الحكومة الروسية ايضاً اتخاذ التدابير لحماية الشعب البولندي الذي غرر به قادته وان تعطي هذا الشعب السلم والطمأنينة .

هذا هو نص المذكرة الروسية التي قدمتها حكومة السوفيت الى السفير البولندي في موسكو غير ان السفير أبى استلامها ولكنه ابلغ حكومته بمضامينها .

واذا علمت هذا جيداً عرفت مقدار سماحة الشريعة الاسلامية وتشددها في احترام حرمة العهود والوفاء بها كما بسطناه مفصلا فيما تقدم ويكفي أن نلفت نظرك الى عهد الامام أبي الحسن عليه السلام الذي نحن في صدد شرحه مع هذا اسمع جواب الامام جعفر الصادق عليه السلام لطلحة بن زيد (١) قال : سألته عن قريتين من أهل الحرب لكل واحدة منهما ملك على حدة اقتتلوا ثم اصطلحوا ثم ان احد الملكين غدر بصاحبه فجاء الى المسلمين فصالحهم على أن يغزوا تلك المدينة فقال الامام عليه السلام : « لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا ولا يأمروا بالغدر ولا يقاتلوا مع الذين غدروا ولكنهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم ولا يجوز عليهم ما عاهدوا عليه الكفار » .

هذا هو الفرق بين الشرع الدولي في الاسلام في القرن السابع الميلادي وبينه في الشرائع الغربية في القرن العشرين . . . .

تم الجزء الاول ويتلوه الجزء الثـاني



(١) عن كتاب وسائل الشيعة .

مواضيع الجزء الأول من كتاب

« الراعي والرعية »

صفحة

دراسة فلسفية في :

الدين والأخلاق

و

(الواجبات الوطنية)

حررت فصوله حسب المنهج المقرر للصفوف

الثالثة من المتوسطة

بقلم

توفيق الفكيكي

١٣٥٧ هـ

١٩٣٨ م

مطبعة الغري

النجف



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ أَوْزِعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق و الصلاة و السلام على سيد الأنبياء و المرسلين الموصوف بمحكم الكتاب الحكيم (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) وعلى آله الغرّ الميامين الأطهار و أصحابه البهاليل الأخيار .

﴿ أما بعد ﴾ فقد اقترح علي أخي وصديقي الفاضل الأستاذ المهذّب السيد عبد الرسول نجم مدير المدرسة المتوسطة في كربلاء أن أقوم بقسط من الواجب المقدس الملقى على عاتق المربين من الأساتذة الأماثل وأن أشاركهم فى المسؤلية التي يشعرون بها في أداء مهمتهم الشريفة فى سبيل تثقيف الناشئة وتهذيب عقول النابتة من فلذات اكبادنا وتقويم المعوّج من أخلاق شبابنا . وذلك بأن أغتنم الفرص واختلس الوقت لوضع كتاب يحتوي على ما حواه منهج وزارة المعارف الجليلة من الدروس في فلسفة الدين والواجبات الأخلاقية و الوطنية للصفوف الثالثة من المتوسطة فأخذت أفكر فى

هذا الأمر ملياً ، احجم تارةً وأقدم أخرى و بقيت متردداً بين الاحجام والاقدام حتى قويت الرغبة و تغلبت الارادة واشتدت العزيمة وأخيراً تدرّعت بالجلد و المثابرة لتنفيذ اقتراح الأخ الكريم وانجاز الوعد الذي قطعته على نفسي في تحقيق الطلب لسموّ غايته المتوخاة و نيل المقصد المنشود . وما الغاية والمقصد إلا المساهمة في خدمة العلم والمعرفة وغرس روح الفضائل الأخلاقية في نفوس الشباب والشابات من أبناء جلدتنا وقد وطّنت النفس على تحمل الصعاب و المشاق فى هذا السبيل مع أن الوقت - يعلم الله - أضيق مما يتصوره الانسان بيد أن القيام بهذا العبء والاهتمام بتأمين هذه الحاجة الملحة يحتمان علينا تذليل الصعب ويخففان عنا النصب الذي يسببه لنا البحث والاستقصاء والمبرّر لذلك كله هو خلو المكتبة العربية من الكتب التى تسد مسد هذا الكتاب أو تفي بالغرض الذي يتطلبه برنامج وزارة المعارف الجليلة وقد آثرنا طبعه قبل عرضه على الوزارة المشار اليها لوجود هذه الحاجة الماسة ولعدم ضياع وقت الأساتيذ والتلاميذ الثمين في التتبع للحصول على اطيب الثمرات أثناء دراسة الدروس الدينية والواجبات الأخلاقية والوطنية . تلك الدروس المهمة والابحاث الجليلة الخطيرة وخشينا ايضاً أن ينصرم الوقت قبل أن تقرر الوزارة الموقرة تدريسه والوقت كما قال الحكماء (كالسيف إن لم تقطعه قطعك) أو كما قالوا : اغتنموا الفرص قبل فواتها فانها تمر مر السحاب . هذا ولأننا قلنا ان الغاية من اخراج كتابنا هذا لم تكن المنفعة المادية حتى نفضل حرمان

الطلاب من جراء الانتظار إلى أن تصدر وزارة المعارف الموقرة أمرها بتدريسه وقد يجوز أن تكون النتيجة بعكس المأمول أما إذا تفضلت لجنة الترجمة والتأليف والنشر في وزارة المعارف بتصويب تدريس هذا الكتيب في المدارس المتوسطة فنحن بلا شك لا نتأخر من تجديد طبعه بأحسن الصور التى تريدها وترتأيها اللجنة المحترمة و بثوب جديد قشيب . وإلا فنكون قد اسدينا بعملنا هذا خدمة لأبناء وطننا العزيز ومنه سبحانه وتعالى نستمد المعونة فى كل الأمور . هو مولانا نعم المولى ونعم النصير . ؟

كربلاء : توفيق الفكيكى

١١ / ١١ / ١٩٣٨

مراجع الكتاب

تفسير القرآن : للأستاذ محمد فريد وجدي

تفسير القرآن : للامام البيضاوي

مجمع البيان في تفسير القرآن : للامام الطبرسى

آلاء الرحمن في تفسير القرآن : للحجة المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغى

لباب النقول في أسباب النزول . للسيوطي

الناسخ و المنسوخ : لأبي جعفر النحاس

تنزيه القرآن عن المطاعن : لقاضي القضاة عبد الجبار بن احمد

الاسلام روح المدنية : للأستاذ فريد وجدي

رسالة التوحيد : للامام الشيخ محمد عبده

نهج البلاغة : لأمير المؤمنين الامام علي عليه السلام

كتاب الأخلاق : للحكيم أرسطو

جمهورية إفلاطون : لناشرها حنا خباز

كتاب السعادة في فلسفة الأخلاق : لابن مسكويه

احياء العلوم : للامام الغزالي

الملل و النحل : للشهرستاني

الفصل : لابن حزم الأندلسى

المقدمة : لابن خلدون

روح الاجتماع : للفيلسوف جوستاف لوبون

علم الاجتماع : للأستاذ نقولا حداد

مروج الذهب : للمسعودي

جامع السعادات : للعلامة النراقي محمد مهدي بن ابى ذر

محاضرات في تاريخ الأديان : للعميد طه الهاشمي

كتاب الدين والاسلام : للعلامة حجة الاسلام محمد الحسين آل كاشف الغطاء

الخلق الكامل : للأستاذ محمد احمد جاد المولى

الأخلاق والواجبات : للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

التربية الاجتماعية : للاستاذ علي فكري

الأخلاق : للأستاذ احمد أمين

قضايا الاجتماع الكبرى : للدكتور الشهبندر

مجلة الأزهر مجلد ٨ و ٩

مجلة الجامعة جلد (١)

أقرب الوسائل لنشر الحضارة في العراق : للمؤلف

الأساطير العربية قبل الاسلام : للدكتور محمد عبد المعيد خان

حق اليقين فى معرفة اصول الدين : للعلامة السيد عبد الله شبر

كلمة

في تفسير القرآن الكريم وشرفه

وفي آلات التفسير

لما كان الدرس الأول من هذه الدروس هو تفسير سورة الحجرات من القرآن العظيم وحيث أن الغاية من تفسير هذه السورة قد أشار اليها منهج الدراسة الدينية رأينا من الضروري قبل الكلام في شرح السورة تبيان معنى التفسير وآلاته التي يحتاجها من يهمه الوقوف على حقائق التأويل وأسرار الفرقان وفنونه وصنوف علومه وآدابه والتنويه على شرف التفسير والمفسر كما قرره العلماء الأعلام من اولي الافهام والألباب .

التفسير :

مأخوذ من فسر . المشتق من السفر وهو : الكشف والظهور يقال أسفر الصبح إذا ظهر وأسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته . أو هو مأخوذ من فسر يفسر كضرب يضرب والفسر هو الابانة وكشف المغطى تقول فسرّت الشيء إذا بينته . وقال اللغويون ايضاً : ان التفسير هو كشف معنى اللفظ واظهاره .

هذا من جهة اللغة أما من جهة اصطلاح المفسرين للقرآن فهو : علم بأصول تعرف به معاني كلام الله تعالى من الأوامر والنواهي وغيرها .

وقال الزركشي : هو علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد (ص) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان واحوال الفقه ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ .

موضوعه وغرضه :

حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة ومعرفة معاني النظم أي سياق القرآن .

فائدته ووجه الحاجة اليه :

فائدته الوصول إلى فهم مراد الله من كتابه ومعرفة احكامه في وحيه وما فرضه على عباده ليخرج المؤمنون به من الظلمات إلى النور . ووجه الحاجة اليه هو معرفة بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها وترجيح بعض الاحتمالات والتأويلات على بعض ونقد ادلة الأحكام التكليفية وتمحيص الغث والسمين منها .

والحاجة الى التفسير أصبحت شديدة خاصة في العصور الاسلامية المتأخرة عن عصر الراشدين لأن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات وفيه ناسخ ومنسوخ ومجمل ومفصل وعام وخاص وأحكام وفرائض وسنن وقصص ومواعظ وامثال وحكم وفنون أخرى تختص باعجازه في نظمه وأسلوبه .

وكان الصحابة في العصر الأول يفهمون كل ذلك عن الرسول الأعظم (ص) بقوة ملكتهم الفطرية ولكن بعد فساد اللغة

بمخالطة الأعاجم ولم يبق من هؤلاء العرب المخاطبين بالقرآن احتيج لفهم ذلك اللسان العربي إلى علم التفسير .

آلات التفسير :

ان بعض العلماء جعل عدد آلات التفسير عشرة علوم هي : (١) علم اللغة (٢) الاشتقاق (٣) النحو والصرف (٤) معرفة القراآت (٥) علم الآثار والأخبار لمعرفة اسباب النزول (٦) علم السنن (٧) أصول الفقه (٨) علم الفقه (٩) علم المنطق والكلام (١٠) علم الموهبة وذلك علم يورثه الله من عمل بما علم .

وقد زاد بعضهم أربعة أخرى هي : (١) أصول الدين (٢) المعاني (٣) البيان (٤) البديع .

ولكل من هذه العلوم علاقة متينة بعلم التفسير بل هي رأس مال المفسر ولا يستطيع أحد أن يفسر كتاب الله ما لم يكن ماهراً حاذقاً ضليعاً باستعمال هذه الآلات التثقيفية . ولهذا قال (ص) من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار .

شرف علم التفسير والمفسر :

لما كان موضوع المفسر كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، وأعظم همه إظهار خفيات ما أودعه الله من الأسرار العجيبة الباهرة ليدبر الناس آياته (وليتذكر أولو الألباب) .

صار علم التفسير أشرف صناعات الحكمة التى يقوم بها الانسان لخير الانسانية ولهذا عظم الله قدر علم التفسير والمفسر بقوله تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وهو تفسير القرآن وقد أيد هذا بعض العارفين الأجلاء .

معنى القرآن :

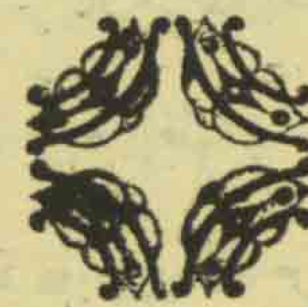
القرآن معناه القراءة فى الأصل وهو مصدر قرأت أي تلوت وقيل هو : مصدر قرأت الشيء . أي جمعت بعضه إلى بعض قال عمرو ابن كلثوم :

ذراعي عيطل ادماء بكر * هجان اللون لم تقرء جنينا

أي لم تضم جنينها في رحمها .

ومن أسماء القرآن (الكتاب) وهو مأخوذ من الجمع ايضاً يقال كتبت السقاء إذا جمعته بالخرز .

ومن اسمائه (الفرقان) لأنه يفرق بين الحق و الباطل وقيل سمي بذلك لأنه سبب النجاة والمخرج كقوله تعالى : (ويجعل لكم فرقاناً) ومن اسمائه (الذكر) قال سبحانه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .



الدرس الأول

تفسير سورة الحجرات « مدنية »

مفرداتها اللغوية

معنى السورة :

السورة مأخوذة من سور البناء وهو ارتفاعه وقيل هو ساق من أسواقه فعلى القول الأول يكون تسميتها بذلك لارتفاعها في النفوس . وعلى القول الثاني يكون تسميتها بذلك لأنها قطعة من القرآن . وقيل : ان السورة (المنزلة) الشريفة والجلالة .

قال النابغة : —

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

وقيل اشتقاقها من اسأرت إذا أبقيت في الأناء بقية ومنه الحديث الشريف [إذا شربتم فاسأروا] .

الحجرات :

الحجرات بضم الجيم جمع حجر ومفرد حجر حجرة وهو جمع الجمع .

١ — (لا تقدموا) من قدم تقديماً واقدم اقداماً واستقدم وقدم كل ذلك بمعنى تقدم .

٢ — (الجهر) ظهور الصوت بقوة الاعتماد ومنه الجهارة في المنطق وجاهر بالأمر مجاهرة . ويقال جهاراً . ونقيض الجهر

الهمس . والحروف المجهورة تسعة عشر حرفاً يجمعها قولك [طلقن ضرغم عجز ظبي ذواد] وما عداها من مهموس يجمعها قولك [حث فسكت شخصه] .

٣ — (الغض) الحط من منزلة على وجه التصغير يقال غض فلان من فلان إذا صغّر حالة من هو أرفع منه وغض بصره إذا اضعفه عن حدة النظر . قال جرير :

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعباً بلغت ولا كلابا

٤ — (حبط) أي بطل (أن تحبط أعمالكم) تبطل أو بمعنى ذهبت سدى وفسدت ومنه احبط ماء البئر أي ذهب ذهاباً لا يعود كما كان . ،

٥ — (تشعرون) تعلمون — ٦ — (التقوى) الطاعة .

٧ — (امتحن) اختبر — ٨ — (مغفرة) العفو والصفح مع الذنب من غفر الشيء غفراً أي ستره وغطاه وغفرة وغفراناً ومغفرة وغفوراً بمعنى واحد . ومنه المغفر لأنه يغطي الرأس وغفرت المتاع في الوعاء إذا جعلته فيه لأنه يغطيه ويستره .

٩ — (العقل) الفهم والادراك والتدبر والعاقل المدرك الفاهم ويقال للمرأة ايضاً العاقل والعقيلة من النساء هي الكريمة المخدرة . والعقلة ما يربط به كالقيد واشباهه جمعها عقل .

١٠ — (الصبر) صبر صبراً على الأمر أي جرؤ وشجع وتجلد فهو صابر وصبير وصبور وصبرت نفسي على كذا أي حبستها ويقال : قتل صبراً ، أي حبس على القتل حتى يقتل .

١١ — (رحيم) عظيم الرحمة — ١٢ — (الفاسق) الخارج عن حدود الشريعة من الطاعة إلى المعصية من كلمة الفسوق أي الخروج وفسقت الرطبة خرجت من قشرها .

١٣ — (النبأ) الخبر — ١٤ — (تبيّنوا) تحققوا الصدق من الكذب — ١٥ — (العنت) الهلاك وأصله الكلفة والمشقة وما هو فوق الطاقة .

١٦ — (الكفر) الانكار والجحود وكفر الحب إذا ستره وغطاه تحت التراب ومنه (اعجب الكفار نباته) يعني الزراع وكفره أي غطاه . والكفران جحود النعمة .

١٧ — (الراشدون) المهتدون والرشد الاستقامة ويأتي بمعنى الهداية ورشد رشداً ورشاداً اهتدى واستقام أمره . ورشّده القاضي جعله رشيداً . واسترشد لأمره اهتدى له . والمراشد مقاصد الطرق

١٨ — (عليم) واسع العلم وكثيره .

١٩ — (حكيم) واسع الحكمة — ٢٠ — (الطائفة) الفرقة .

٢١ — (بغت) بمعنى ظلمت وتعدت من البغي وهو الظلم بأخذ ما لا يجوز .

٢٢ — (تفيء) أي ترجع وفاءت رجعت بمعنى تابت واقلعت عن العصيان والظلم . وفاء رجع .

٢٣ — (العدل) توزيع الحق على السواء — ٢٤ — (القسط) العدل فى الأقوال والأفعال لا في الحكم فقط .

٢٥ — (السخرية) الاستهزاء — ٢٦ — (الهمز واللمز)

العيب والحط من اقدار الناس . فاللمز هو الرمي بالعيب .

٢٧ - (النبز) القذف باللقب يقال نبزته انبزه والقبه ان يذكر الانسان بغيابه بسوء متخلق به فاذا ذكرته بما ليس فيه فهو البهت والبهتان .

٢٨ — (الظلم) هو نقصان الحق في البعض والكل . بعكس الهضم فهو نقصان بعض الحق . وفي القرآن (فلا يخاف ظلماً ولاهضما) أي لا يمنع حقه ولا بعض حقه ومنه قيل للمنخفض من الأرض هضم والجمع اهضام .

٢٩ — (اجتنبوا) امتنعوا واحذروا — ٣٠ — التجسس هو تتبع العثرات والبحث عما خفي حتى يظهر .

٣١ — (الظن) يقع على معان أربعة : معنيان متضادان أحدهما الشك كما في هذه السورة والآخر اليقين الذي لاشك فيه . كقوله تعالى : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً » معناه علمنا . وكقول أبي دؤاد :

رب هم فرجته بعزيم * وغيوب كشفتها بظنون

أي كشفتها بيقين وعلم ومعرفة .

والمعنيان اللذان ليسا متضادين احدهما الكذب . والآخر التهمة . فاذا كان الظن الكذب قلت ظن فلان أي كذب قال سبحانه « إن هم إلا يظنون » فمعناه إن هم إلا يكذبون . وأما معنى التهمة فهو ان تقول : - ظننت فلاناً - ويقال فلان عندي ظنين اي متهم واصله مظنون فصرف عن مفعول الى فعيل كما قالوا

مطبوخ وطبيخ . وقال : « وما هو على الغيب بظنين » .

٣٢ — « الشعوب » جمع شعب وهو الحي العظيم من الناس مثل مضر وربيعة والقبائل دون الشعوب كبكر من ربيعة وتميم من مضر وقيل الشعوب هم الموالي من العجم والقبائل من العرب والأسباط من بني اسرائيل وسميت الشعوب لتشعبها وتفرقها . والشعوب بفتح الشين الموت لأنه مفرق الأحباب والشعب بكسر الشين الطريق فى الجبل ويجمع على شعاب .

٣٣ — « لا يلتكم » لا ينقصكم من لات يليت وألت يألت فيجوز « يلتكم ويألتكم » .

٣٤ — « الايمان والاسلام » الايمان هو اعتقاد وتصديق بالقلب والاسلام اظهار الخضوع والقبول لما اتى به الرسول [ص] لأن الايمان محله القلب دون اللسان .

٣٥ — « الريب » الشك — ٣٦ — الدين فى هذه السورة معناه الايمان والتعبد لأن من معانيه الجزاء من عقاب وثواب وسيأتي البحث عن لغاته في محله .

مجمل معاني السورة :

بسم الله الرحمن الرحيم : « يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا » من قدم بمعنى لا تتقدموا بقول ولا فعل « بين يدي الله ورسوله » المبلغ عنه أي بغير اذنهما « واتقوا الله إن الله سميع » لقولكم

« عليم » بفعلكم «١» [يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم] أي إذا نطقتم [فوق صوت النبي] إذا نطق [ولا تجهروا له بالقول] إذا ناجيتموه « كجهر بعضكم لبعض » بل دون ذلك اجلالا له « أن تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون » أي خشية ذلك برفع الصوت والجهر المذكورين (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن) اختبر « الله قلوبهم للتقوى » أي لتظهر منهم [لهم مغفرة وأجر عظيم] الجنة « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات » حجرات نسائه « ص » كان كل واحد منهم نادى خلف حجرة لأنهم لم يعلموه في أي حجرة منادة الأعراب بغلظة وجفاء « اكثرهم لا يعقلون » فيما فعلوه أزاء محله الرفيع وما يناسبه من التعظيم « ولو أنهم صبروا » انهم في محل رفع بالابتداء وقيل فاعل لفعل مقدر أي ثبت « حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » . « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ » «٢» خبر « فتبينوا » صدقه من كذبه

«١» نزلت هذه الآيات الخمس في وفد تميم حينما دخلوا المسجد ونادوا يا محمد من وراء الحجرات ان اخرج الينا لنفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا فآذى ذلك رسول الله (ص) .

«٢» نزل في الوليد بن عقبة بن ابي معيط بعثه رسول الله (ص) في جمع صدقات بنى المصطلق فخرجوا يتلقونه فرحا به وكانت بينهم عداوة في الجاهلية فظن انهم هموا بقتله فرجع إلى رسول الله (ص) وقال انهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه فغضب النبي (ص) وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية .

(ان تصيبوا قوماً) مفعول له أي خشية ذلك (بجهالة) حال من الفاعل أي جاهلين (فتصبحوا) تصيروا (على ما فعلتم) من الخطأ بالقوم (نادمين) (واعلموا أن فيكم رسول الله) فلا تقولوا الباطل فان الله يخبره بالحال . (لو يطيعكم في كثير من الأمر) الذي تخبرون به على خلاف الواقع فيترتب على ذلك مقتضاه (لعنتم) لأثمتم وهلكتم . (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه) حسنه (في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) استدراك من حيث المعنى دون اللفظ لأن من حبب اليه الايمان الخ غايرت صفته صفة من تقدم ذكره . (اولئك هم) فيه التفات عن الخطاب (الراشدون) الثابتون على دينهم (فضلا من الله) مصدر منصوب بفعله المقدر أي أفضل (ونعمة) منه (والله عليم) بهم (حكيم) في انعامه عليهم (وإن طائفتان من المؤمنين) «١» (اقتتلوا) جمع نظراً الى المعنى لأن كل طائفة جماعة . . (فأصلحوا بينهما) ثني نظراً الى اللفظ (فان بغت) (إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء) ترجع (الى أمر الله) اي الحق (فان فاءت فاصلحوا بالعدل) بالانصاف (وأقسطوا) اعدلوا فى الأقوال والأفعال (ان الله يحب المقسطين انما المؤمنون اخوة) فى الدين (فأصلحوا بين أخويكم) إذا تنازعا (واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين

« ١ » نزل في الأوس والخزرج وقع بينهما قتال بالسعف والنعال .

آمنوا لا يسخر) «١» (قوم) أي رجال منكم (من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) عند الله (ولا نساء) «٢» أي منكم (من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم) أي لا تعيبوا فتعابوا . (ولا تنابزوا بالألقاب) لا يدع بعضكم بعضاً بلقب مكرهه مثل يا فاسق يا كافر (بئس الاسم) أي المذكور من السخرية واللمز والتنابز (الفسوق بعد الايمان) بدل من الاسم لأفادة انه فسق لتكرره عادةً . (ومن لم يتب) من ذلك (فاولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن اثم) أي مؤثم وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين . (ولا تجسسوا) حذف منه إحدى التاءين أي لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها (ولا يغتب «٣» بعضكم بعضاً) لا يذكره بشيء يكرهه وان كان فيه . (أيحب احدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) أي لا يحسن به ذلك (فكرهتموه) أي اغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته (واتقوا الله) أي عقابه (ان الله تواب) قابل توبة التائبين (رحيم) بهم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى) آدم

«١» نزلت الآية فى وفد تميم حين سخروا من فقراء المسلمين كعمار بن ياسر وصهيب . «٢» نزلت فى نساء النبي (ص) سخرن من أم سلمة زوجة الرسول (ص) . «٣» نزلت بحق رجلين من اصحاب رسول الله (ص) اغتابا رفيقهما وهو سلمان الفارسى « رض » .

وحواء (وجعلناكم شعوباً) جمع شعب بفتح الشين (وقبائل) هي دون الشعوب وبعدها العمائر ثم البطون ثم الافخاذ ثم الفصائل (لتعارفوا) حذف منه إحدى التاءين ليعرف بعضكم بعضاً لا لتفاخروا بعلوّ النسب وانما الفخر بالتقوى والعمل الصالح لأن قيمة كل امريء ما يحسنه . (إن اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم) بكم [خبير] ببواطنكم (قالت الأعراب) كانوا نفرا من بني اسد (آمنا) صدقنا بقلوبنا [قل] لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) أى استسلمنا ظاهراً (ولما) أي لم [يدخل الايمان في قلوبكم] الى الآن لكنه يتوقع منكم . [وإن تطيعوا الله ورسوله] بالايمان وغيره (لا يألتكم) بالهمز وتركه وبابداله الفاً أي لا ينقصكم [من أعمالكم] أي من ثوابها . (شيئاً ان الله غفور) للمؤمنين [رحيم] بهم [انما المؤمنون] أي الصادقون في ايمانهم « الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » أي لم يشكوا في الايمان « وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله » لأن جهادهم يظهر صدق ايمانهم « اولئك هم الصادقون » في ايمانهم لا من قالوا آمنا ولم يوجد منهم غير الاسلام « قل » لهم « أتعلمون الله بدينكم » أي تشعرونه بما أنتم عليه فى قولكم آمنا « والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم يمنون عليك أن أسلموا » أي من غير قتال بخلاف غيرهم ممن أسلم بعد قتال منهم « قل لا تمنوا علي اسلامكم » منصوب بنزع الخافض — الباء — « بل الله يمن عليكم ان هداكم

للايمان إن كنتم صادقين » في قولكم آمنا . « إن الله يعلم غيب السموات والأرض » أي ما غاب فيهما « والله بصير بما يعملون » أي لا يخفى عليه شيء منه . .

ما حوته السورة من الأدب الاسلامي الرفيع

لا ريب ان من أهم اهداف الشريعة المحمدية السمحاء بث الفضائل الأخلاقية العالية بين افراد البشر على اختلاف اجناسهم ومللهم ومهمتها الكبرى هي خدمة هذا المبدأ السامي على كرّ العصور والدهور . لقوله عليه افضل الصلاة والسلام « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فمن تلك الأخلاق الشريفه ماحوته هذه السورة الكريمة من الآداب الاسلامية الرفيعة . والتربية الاجتماعية الحميدة وتهذيب الخلق الانساني . والزام المؤمن بالتحلي بأدب النفس تجاه من هو اعلا منه درجة في العلم والأدب والرياسة وحببت لنا الاحترام من قبل المرؤس أزاء رئيسه والتلميذ قبل استاذه ليسود النظام القائم على تنظيم العلاقات الفردية في المجتمع ومن ثم على صلات التعارف الأممي وتدريبنا على احترام مبدأ المساواة والتفاني في سبيل خير الانسانية جمعاء . والجهر بالحق والتمسك بأصول الايمان المحرر للنفس من شراك العبودية ومن شنار النفاق وخسته والمطهر للسرائر من الخبث والآثام . وقد علمتنا هذه السورة الشريفة كيف يجب أن نخاطب العلماء وتناظر الانداد والنضراء . وكيف يجب أن

نحرص على تمحيص الحقائق . وألاّ نسرف بالاسراع في اتهام الأبرياء بمجرد الظن المؤثم وخبر الفساق المفسد . وان نستعمل الفطنة في غربلة اخبار الصادقين والمنافقين من الأصدقاء والبطانة لئلا نندم على ما نفعله بلا عقل وتدبّر . ثم أوجب علينا قرآننا الكريم أن نقوم بالاصلاح بين اخواننا المؤمنين داخل دائرة العدل والقسط والا نسعى بينهم بالغيبة والنميمة والأفساد لأن ذلك فساد للأمة وتحطيم لهيكل الأخلاق العامة وتشجيع لروح الرذيلة في الناس ثم نبهتنا آي الكتاب العزيز الى ضرورة المحافظة على التربية الاجتماعية بأن لا نستهزيء ونزدري بما هو دوننا في المنزلة والمقام الاجتماعي . لأنه قد يكون أفضل منّا عند الله كما ان نفس السخرية بالناس هو نقص فيمن يقوم بها ضد غيره . وعليه يجب علينا أن نتحاشا هذا النقص المزرى بأدب النفس وجماله . وهكذا كرّه القرآن لنا رذيلة التجسس الذميم والبحث عن عورات الناس وعيوبهم . لأن ذلك من كبائر الرذائل فكيف إذاً بمن يقدم على التجسس ضد بلاده ووطنه والعياذ بالله .

ثم طلب الينا كتابنا المجيد أن نمعن في معرفة الأمم الأخرى خاصة المجاورة لنا منها وان نقوّي علاقتنا معها ونحسن التعارف والاتصال بها لأن المصالح الدولية والمنافع الأممية كالمصالح والمنافع التي تتكون بين افراد الأمة الواحدة لهذا يجب ان تبنى تلك العلاقات على الثقة والتحاب والمودة وروح الاحترام وبذلك تتم الاخوة العامة التي توخاها الاسلام وبشرت بها شريعته منذ اربعة عشر

قرناً . وما معنى الاسلام إلا اعتناق مبدأ السلام العالمي العام وما المسلم إلا من (سلم الناس من يده ولسانه) فشعار المسلم إذن السلام بلا كلام .

وقد استفزتنا شريعتنا الى الجهاد المقدس في سبيل الله وحماية الوطن المفدى والدفاع عن كيان استقلالنا والنصرة لمبادئ القرآن الكريم وقد عظم الله قدر من يجاهد بماله ونفسه في سبيل الحق وعدّهم من الصادقين الأبرار وآخر ما اوجب الله علينا فى هذه السورة الكريمة هو الايمان بوحدانيته والاذعان والطاعة لما انزله على رسوله المصطفى [ص] من الذكر الحكيم بالاجلال والتعظيم .

وصف القرآن :

واتماماً للفائدة ندرج بعض الكلمات البليغة لسيد البلغاء أمير المؤمنين الامام « ع » فى وصف القرآن الكريم قال :

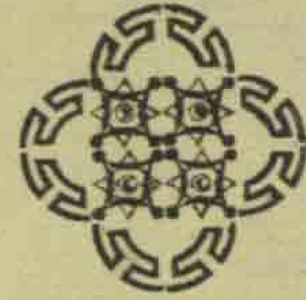
(الا ان فيه علم ما يأتي . والحديث عن الماضي ودواء دائكم ؛ ونظم ما بينكم .)

ومن كلام له في وصفه ايضاً :

[ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ؛ وسراجاً لا يخبو توقده «١» وبحراً لا يدرك قعره ومنهاجاً لا يضل نهجه «٢» وشعاعاً لا يظلم ضوءه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً

«١» خبت النار : طفئت «٢» المنهاج الطريق الواسع والنهج هنا السلوك أي لا يكون من سلوكه اضلال .

لا تهدم اركانه ؛ وشفاء لا تخشى اسقامه ، وعزاً لا تهزم انصاره ؛ وحقاً لا تخذل اعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره ؛ ورياض العدل وغدرانه واثافي «١» الاسلام وبنيانه . الخ]



«١» الاثافي : القواعد . أو الأركان وهي في الأصل الحجر الذي يوضع عليه القدر .

الدرس الثاني

نظرات فلسفية عن الاديان

ما هو الدين :

معنى الدين في اللغة هو الجزاء من ثواب وعقاب . ثواب للمحسن وعقاب للمسيء .

قال الشاعر : (واعلم بأنك ما تدين تدان) .

وقيل معناه . الحساب . والدين الطاعة ايضاً قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها ان ندينا

والدين العادة على قول بعضهم . قال الشاعر :

تقول اذا درأت «١» وضيني «٢»
أهذا دينه أبداً وديني

ومن معاني الدين القهر والاستعلاء . قال الأعشى :

هو دان الرّباب إذ كرهوا الد * ين دراكاً بغزوة واحتيال
ثم دانت بعد الرباب ودانت * كعذاب عقوبة الأقوال

ومما يدل على ان المراد به الجزاء والحساب قوله تعالى :

« اليوم نجزي كل نفس ما كسبت واليوم تجزون ما كنتم تعملون » .

أما مدلول كلمة الدين باصطلاح الفقهاء والمتشرعين فهو عبادة

«١» درأت : دفعت «٢» وضين : الهودج

الخالق جل وعلا والقيام بأحكام الشريعة والمحافظة على حدودها .

أما الفلاسفة فقد عرفوا الدين بتعاريف شتى واكثرها وضوحاً تعريف (موريس باستروف) أحد مؤرخي الأديان وقد بنى تعريفه على القواعد الآتية :

(١) اعتقاد الناس بوجود قوة أو قوى متعددة أعظم منهم شأناً غير مسخرة لهم .

(٢) تصور الناس أن لهم تعلقاً بهذه القوة أو القوى .

(٣) اندفاع الناس إلى ايجاد علاقة لهم بها . . وهذا التعريف شمل جميع الأديان الأولية والمتكاملة والبائدة والحاضرة .

نشأة الأديان : (١)

ان نشأة الأديان غير نشأة فكرة الدين بين البشر لأن منشأ الأديان يراد به التطور العام الذي شمل كافة الأديان البشرية في جميع ادوارها التأريخية حتى استقرت على فكرة (التوحيد) وأما نشأة فكرة الدين فيراد بها الشعور الديني . الذي لازم الانسان منذ هبط على وجه الأرض ولأجله قال (ماكس ملر) وهو أحد علماء تاريخ الأديان :

(١) يظهر أن هذا الموضوع لا يراد به تأريخ الأديان وفلسفة الأديان لأن علم الأديان يحتوي على هذين القسمين المتلازمين وهذا البحث لا يستقصى بتسويد مجلدات لهذا فهم من المنهج أن القصد (فكرة نشوء الدين) مع هذا وجب أن نقوم بايفاء الغرضين بايجاز واختصار .

« ان فكرة التعبد من الغرائز البشرية فانه فطر عليها منذ نشأته الأولى » .

وقال : (بنيامين قونستان) وهو أحد مؤرخي الأديان ايضاً : « ان الدين من العوامل التي تسيطرت على تاريخ البشر . وأن الشعور الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الأزلية . ومن المستحيل أن نتصور ماهية الانسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة الدين . »

وقد ثبت للمحققين من علماء التاريخ أن جميع الأقوام الوحشية والحضرية المتمدنة كانت تعتقد بقوة تعبدها وقد أيدت الحفريات على ان الطوائف البشرية الابتدائية الأولى كانت تواقة إلى الايمان والعبادة وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام :

(كل مولود يولد على دين الفطرة) .

وقد يعجز تاريخ البشرية عن إقامة البرهان والدليل لاثبات استغناء البشر فى أي دور من أدواره عن العقيدة الدينية باطلة كانت أو صحيحة . لهذا عبد المصريون (آمن وفتاح) والفينيقيون (عشتروت) واليونان (زفس) والرومان (ژوپتير) والعبرانيون (يهوه) والكلدانيون والآشوريون (بعل وآشور) والفرس (اهورا مازاد) والصينيون (تيانغ وشانغ تي)

والبرويون [أهالي بروفى امريكا] (مانكوكياك) والمكسيك (فشلي بوشلي) والعرب (اللات والعزى وهبل) ومعبودات أخرى كثيرة إذ لكل قبيلة منهم معبود تختص به وكلها ما انزل الله بها من سلطان .

أما نشأة الأديان فمصدرها (اللذة والألم) وبعبارة أوضح (الخوف والأمل) هذا على قول بعض الفلاسفة أما علماء الاجتماع فقالوا : أن التطور الذي طرأ على الأديان ينحصر بالمراتب الآتية :

١ — الخرافات والأوهام من قبيل التشاؤم والتفاؤل .

٢ — السحر والعرافة . -

٣ — نشوء عقيدة الأرواح من الأحلام وعبادة الأسلاف

٤ — الطوطمية = التمائم .

٥ — عبادة الأصنام .

إلا أن الحقيقة الواجب معرفتها هي أن الفكرة الدينية قوة شعورية كامنة في نفس الانسان . لقوله (ص) كل (مولود يولد على دين الفطرة) . . .

وهكذا تدرج البشر في اعتقاده وتدينه حسب المراتب المتقدمة أي من عبادة الأوهام والخرافات . إلى الوثنية إلى الشرك . إلى التوحيد .

وأعظم دليل على تطور فكرة الدين ونشأة الأديان قوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام :

(وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون

من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هـذا ربّي فلما أفل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربّي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

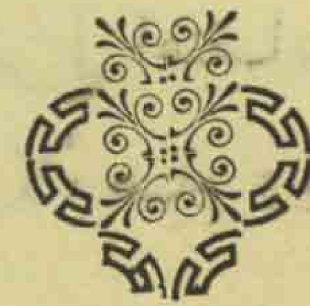
ونتيجة هـذا التطور صنف علمـاء تاريخ الأديان الأديان إلى قسمين الأديان السامية وهي :

(الكلـدانية . والآشورية . واليهودية . والاسلامية)

والأديان الآرية وهي :

(البرهمية . والزردشتية . والبوذية . واليونانية . والرومانية)

ومن العلمـاء من قسم الأديان إلى صنوف أخرى لامحل لذكرها .



الدرس الثالث

حاجة البشر الى الدين :

لقد بسطنا فى آخر الدرس الأول من هذا الكتاب شيئاً يسيراً عن العلاقات الفردية بين أجزاء المجتمع وألمحنا استطراداً عن المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بين الدول والأمم وبينا أيضاً : بأن نظام المجموعة البشرية قائم على التعاون كما هو الحال بين أفراد الأمة الواحدة . وبحثنا عن الدعائم الأخلاقية التي يرتكز عليها النظام البشري وقد ألمعنا عن كل ذلك بصورة اجمالية دون أن نتعرض للآراء الفلسفية والنظريات الاجتماعية القائلة بضرورة حاجة البشر الى الدين أو قواعد الأخلاق أو العدل الاجتماعي لبناء هيكل المجتمع الانساني . والآن نشرح على قدر ما تستسيغه عقول الناشئة فنقول :

أن الانسان مدني بالطبع لا همجي كما ذهب بعض المتشائمين ومن موجبات الطبع المدني ومقتضيات المدنية والحضارة التآلف والاجتماع ولابد للاجتماع الراقي أو المنحط من تعاون وتكاتف وتآزر يتبادله أفراد البشر لقضاء حاجاتهم وتحقيق رغباتهم لأن العقل لا يؤمن بان في مقدور الانسان أن يقوم بتأمين جميع حاجاته بنفسه بلا مساعدة غيره . فالحصول على الخير والسعادة أو دفع العوادي والتعاسة والشقاء لا يكون إلا بالتضامن وهـذا الاشتراك الاجتماعي الطبيعي هو الذي أوجد روح التعاون في السراء

والضراء بين أفراد القبيلة الواحدة وهو نفسه خلق النظام القبيلي في العرب . وان هذا الاتفاق الضمني بين أفراد البشر يسمى (العقد الاجتماعي) حسب تعريف علماء الاجتماع فاذا عرفنا هذا ولو بصورة مختصرة جداً علمنا أن دعامة هذا العقد الاجتماعي هي الأخلاق الفاضلة . كما قدمنا في صحيفة (٢٠) من هذا الكتاب (فارجع اليها) إن أردت .

ولا يمكن دوام هذا العقد الاجتماعي وتنفيذه على الصورة التى تكفل هناء وسعادة البشرية وبث روح السلام بين الأوساط والمجتمعات في العالم بدون ان يتحلى عاقدوه والذين اتفقوا على احترامه وتنفيذه بالفضائل الأخلاقية الحسنة ولهذا الغرض مدح الله رسولنا الأعظم بقوله : (وأنكَ لعلى خلقٍ عظيم) وبقوله : (ولو كنت فضاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك .) وعليه ان الذي يدرس أصول الشريعة الاسلامية يجدها قائمة على دعامة الفضائل الأخلاقية العالية والفواضل الانسانية الغالية ليس غير .

وعلى هذا الأساس ذهب علماء الاجتماع إلى أن الدين هو نظام الهيئة الاجتماعية وليس للبشر غنىً عنه وقد اعتبروه من اقوى العوامل بل في مقدمتها لبناء قواعد واركان المجتمع فى كافة المحيطات الانسانية . وقالوا ان اسعد مجتمع هو الذي ترتكز قواعده على انظمة مستمدة من دين يستند على تعاليم عالية وحكم سامية بالغة لأن النفس الانسانية مجبولة على حب الشر والرذيلة

غالباً وقد نوّه إلى هذه الحقيقة القرآن الحكيم [ان النفس لأمارة بالسوء] و (قتل الانسان ما اكفره) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

وقال : (موريس باستروف)

(إن الدين عبارة عن الايمان الفطري أي عن حاجة الناس منذ أول نشأتهم إلى معبود يتقربون اليه بعبادتهم) .

وقال الفيلسوف (شوبنهاور) :

(ان الحياة عبارة عن رغبات وانانية . وان جدال الناس فيها جعلهم يؤثرون أنفسهم على كل شيء ويريدون لها الخير وهم مفطورون على حب النفس . ولن يجتمعوا على السلم إلا إذا جعلناهم يحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم فيخففون من غلوائهم وكبريائهم ويسلمون من شرور انانيتهم فيزول التحاسد والتباغض ويسود السلام . وإذا لم يكبح الفرد جماح شهواته ورغباته لا يتمكن ان يعيش هادئاً في المجتمع . واذا كان البشر مفطوراً على حب نفسه وايثاره لها على الغير بكل وسيلة فلا بد وان يفسح في المجال لرغباته وانانيته ويرى نفعه في الاضرار بالغير ، واذا لم يكن ثمة رادع يردعه فلا عدل ولا سلام في مجتمع يتألف من هذا الانسان) .

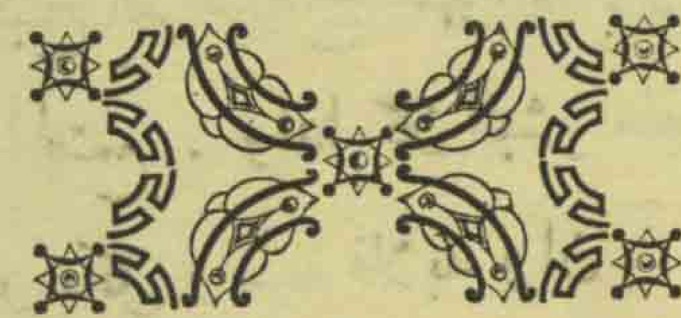
وقال الفيلسوف الاجتماعي (جوستاف لوبون) :

(المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها في كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور في حياتها ولا قوام للمدنية بدونها) ثم قال :

« أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وعليه تعذر الأمم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها . إذ الحقيقة ان هذا التعصب هو أرقى الفضائل في حياة الأمم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية » ثم قال هذا الفيلسوف :

« لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لابد للجماعات من دين »

هذا ولما كانت قواعد المجتمع لا ترسخ ولا تقوى إلا بالأخلاق . والغاية من الدين هي تثبيت الفضائل بين الناس لترشدهم إلى حسن التصرف بحريتهم مع احترام حريات غيرهم . فالدين على هذه الصورة يكون من أشد الضرورات للحياة الانسانية جمعاء . (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) .



الدرس الرابع

عبادة البشر للحيوانات والجمادات :

لقد عرفنا مما تقدم كيف نشأت فكرة الدين في فجر التاريخ الطبيعي للنوع البشري وكيف كان منشأ الأديان وخلاصة التطور الذي مر عليها بصورة موجزة وليس هذا الدرس إلا صورة من صور ذلك التطور أو الانقلابات الفكرية التي تدرّج بموجبها نظام الدين بين الأنواع البشرية .

نعم ! يرى بعض علماء التاريخ الطبيعي للجنس البشري أن مبدأ تشكيل الأسرة كان مبنياً على علاقات (طوطمية) «١» والطوطم كما بينا سابقاً هو نوع من حيوان أو نبات تعتقد به جماعة من الناس حيث يؤلف من أفرادها وحدة رابطتها صلة العيش . ومن نظام المذهب الطوطمي عدم إباحة الزواج الداخلي وإباحة الزواج الخارجي . وأعضاء العشائر الطوطمية أقارب بالدم . لأن

«١» تعريف الطوطمية : الطوطمية كلمة الجوية من هنود امريكا . دخلت في اللغة الانكليزية سنة ١٧٩١ على يد الاستاذ [جيلانج] الذي كان يقوم بوظيفة الترجمان بين البيض والهنود الحمر في امريكا الشمالية ويراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه (طوطماً) (عن كتب الأساطير العربية قبل الاسلام) .

الطوطم ينتقل من الأم إلى الابن فيكون الانتساب أمياً . وعندما يتخذ الابن طوطم أبيه بالوراثة يكون الانتساب أبوياً وقد يحدث أن تمر المرأة الحبلى على ثعبان او عضاه (١) أو يسنح لها طائر أو حيوان فتعتقد أن هذا الحيوان هو سبب ولادتها . فاذا ولدت وشب ابنها صار هذا الحيوان طوطماله لا يجوز أن يقتله أو يؤذيه للصلة التى وهمت الأم وجودها بينهما ويسمى هذا بالانتساب المحلي . وقد كان نشوء الأسرة حسب هذا النظام عند المتوحشين ، وهو وان ظهرت آثاره في مجتمعات أقوام مختلفة ومن جملتهم عرب الجاهلية على بعض الأقوال فانها لا تزال عند قبائل استراليا وجنوب امريكا وافريقيا والهند . وتتخلص الطوطمية باعتبارها الديني فيما يلي :

(١) القبيلة تتسمى باسم الحيوانات .

(٢) القبيلة تتخذ حيواناً أباً لها وتعتقد انها سلالة منه .

(٣) صاحب الطوطم لا يؤذي طوطمه ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع .

(٤) يحرم اللمس والنظر اليه ويحرم التلفظ باسم الطوطم .

(٥) إذا مات حيوان من نوع طوطم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه .

(٥) الطوطم يدافع عن القبيلة فى ساحة القتال وينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات مثل الطيرة .

(١) الشجر .

(٧) عبادة الطوطم .

ومن آثار الطوطم عند عرب الجاهلية الأقدمين التسمية باسم الحيوان والنبات وهاك بعض أسماء القبائل .

(بنو أسد ، بنوضب ، بنو فهد . بنوضبعة . بنو كلب بنو عنز . بنو نمر .) وزد على ذلك قريشاً بمعنى (الحوت) ولحماً بمعنى (الحوت) ايضاً وبأسماء النبات مثل : حنظلة والبنوت ومن أجزاء الأرض كفهر وصخر .

إلا أن علماء الأنساب قالوا : ان هذه الأسماء القاب كانت تطلق على شخصيات تاريخية معروفة انتقلت إلى الخلف حتى صارت لقباً مثال ذلك :

بنو كلب اتخذوا لقبه عن شخص تاريخي معلوم وهو كلب ابن وبرة بن ثعلبة جد (قضاعة) أما بعض المستشرقين من علماء التاريخ الطبيعي قالوا :

انها معان دينية وأن لها علاقة بعبادة الحيوانات كما هو مشاهد فى المذهب الطوطمي فقد .

وقال صاحب لسان العرب « معجم لغوي » انه كانوا يسمون الأولاد باسم الحيوان ظناً منهم انه يحفظهم من أعين الانس والجن (١) .

(١) قيل لأبي رقيش الأعرابي لِمَ تسمون بشر الأسماء نحو : كلب و ذئب وعبيدكم أحسنها ؟ فقال : انما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا .

ومن آثار عبادة الحيوان عند العرب القدماء انهم كانوا يجتنبون قتل الحيوان ظناً منهم انهم لو قتلوه لجوزوا به كما قال الالوسي :

« إنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن تأخذ بثأره ؛ فيأخذون روثة ويفتونها على رأسها ويقولون : (روثة راث ثائرك) واذا كان الشيء المقدس من النبات حرّموا احراق عيدانه . »

أما تقديس واحترام الحيوانات لدى الأقوام الأخرى فثابت ومعروف فمن قبائل « ايروكو » من قبائل امريكا قبيلة تعرف بقبيلة « السلحفاة » وأخرى تعرف بقبيلة « الذئب والدب » وهم يعتقدون أنهم من نسل الدب والذئب وتنتمي قبيلة « اوبجبويس » إلى الكلب كما كان الكركي أباً لقبيلة الكركي عند « اوبجبويس » وكما كان الأوز أباً لقبيلة سنتال في بنغال وقبائل في غرب استراليا تنسب إلى البط أو الاوز وغيرهما من الطيور المائية . والرجل من قبيلة « مونت جامبير » في جنوب استراليا لا يأكل حيوانه الذي يعبده إلا اذا عضه الجوع واذا أكله أسف واستغفر . وكذلك الهنود فى كولمبيا البريطانية لا يأكلون طونمهم « حيوانهم » واذا رأوا احداً يأكله اشمأزوا وطلبوا منه غرامة . وفي قبيلة « البومة » فى سامو اذا وجد احد رجالها « بومة » ميتة فانه يقعد إلى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كما يفعل اذا مات الانسان .

ولا يقتصر احترامهم وتقديسهم للحيوانات على تحريم اكلها أو ايذائها فان بعضهم يحرم لمسه والنظر اليه وقد يحرّمون التلفظ باسم الحيوان المعبود واذا اضطروا لذكره عمدوا إلى الكناية فمن هنود (دولاورس) فى امريكا قبيلة تنسب إلى الذئب وأخرى إلى السلحفاة وأخرى الى ديك الجيش فاذا اضطروا الى ذكرها كنوا عن الأول بالقدم المستديرة . وعن الثاني بالزاحف وعن الثالث (بغير الناصع) والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات :

أما العرب قبل الاسلام فقد قدست الحيوان وعبدته لكن لا لغرض ان حياتهم هبة من هبات آله حيواني كما رأوا هؤلاء ؛ كما أن العرب لم يعتقدوا بوجود صلة رحم أو نسب بينهم وبين الحيوان الطونمي كما هي عقيدة المتوحشين . وقد عبد المصريون في سالف الدهر الحيوانات ايضاً ومن معبوداتهم : الأسد والتمساح وأبو الهول . والعجل . والكبش . والأوز . والقط . باعتبار انها ظروف قد حلت فيها شخصيات الآله الأعظم التى لا تتناهى .

هذه صورة مجملة عن عبادة البشر للحيوانات في العصور السحيقة .



عبادة البشر للجمادات :

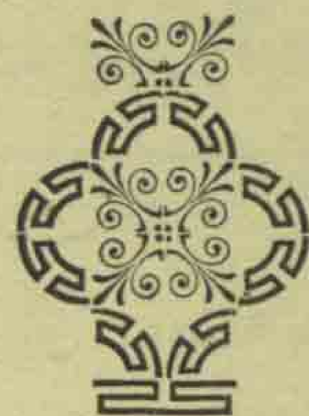
أما عبادتهم للجمادات من أصنام وأوثان فكانت ناشئة من أن الله عز وجل جسم وأن الملائكة أجسام لها أعمار وأن الله والملائكة احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري عز وجل وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال ومنها على صورة الانسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها • وقربوا لها القرابين ونذروا لها النذور وبعض الطوائف عبدوا الكواكب فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم . فلما رأوا الكواكب تخفى في النهار وفي بعض أوقات الليل أمرهم بعض حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة وحسب نظرية الطبيعيين أن أصول المعتقدات ثلاثة ضروب (الطوطمية) كما تقدم (والوثنية) أو عبادة الجمادات كالأصنام والأحجار (والروحانية) أي عبادة الروح الحقيقية .

وقالوا : « بعد أن كان الحجر يوضع على القبر ليعوق الجثة عن القيام أصبح يمثل الجثة نفسها . وبعبارة أخرى يمثل الروح أو الآله ثم اخذ الانسان يغيّر وضع وشكل الحجر حتى اصبح وثناً تقدم له الصلاة .

ولما رسخت فكرة قدسية هذه الأحجار بعقلية الانسان كان

من الطبيعي تقديس الأحجار المشابهة للأحجار الأصلية باعتبار انها مكونة بروح أو إله .

وقد ظلت الأنواع البشرية عاكفة على هذه المعبودات ومعبودات اخرى إلى ظهور رسولنا الأعظم (ص) وبرسالته تحررت النفوس من شراك الشرك وعرفت ان الآله هو الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءً احد .



الدرس الخامس

خوف البشر من المظاهر الطبيعية :

لقد فهمنا من الدرس الماضي كيف كان الانسان فى القرون الخالية يبحث عن معرفة ربه الذي لا شريك له وكيف كان يتقرب بالقرابين إلى تلك القوة الخفية المدّبرة التي عجز عن ادراك كنهها . وانما استدل على وجودها بآثارها المثبوتة في الكون إلا ان بحثه هذا تركه حائراً خائفاً ضالاً عن الصراط المستقيم فكان تارة يؤله الحيوان ويصنع لها التماثيل باعتقاده ان تلك القوة الخفية الفعالة حلت بها . وتارة يعبد الأحجار والأصنام باعتبارها تمثل خالقه وصور ملائكته وطوراً تراه يؤله المظاهر الطبيعية من العواصف . والصواعق . والرعد . والبرق . والنار . والشمس . والليل . إلى ان دفعته هواجسه الى اتخاذ آلهة للخير والشر . وقد حالفت هذه العقيدة في نفوسهم عقيدة السيطرة على الطبيعة بواسطة السحر والعرافة ومن شواهد ذلك :

ان بعض قبائل افريقيا او هنود امريكا تستمطر السماء بالتعزيم لا بالصلاة ، او بوسائط اخرى وان العرّاف او الساحر إذا رام ان يستمطر السماء بلّ حجر السحر بالماء ؛ وان رام الصحو جفف الحجر المبتل لدى لهيب النار ؛ ومن ذلك انه اذا رام احد ان ينتقم من آخر ينقب ثقباً في الأرض ثم يضع فيه غصناً او عِرق نبات صغير فمتى ذبل هذا العرق وذوى يموت الشخص

المنتقم منه أو يمرض . وقد أطلق علماء تاريخ الأديان على من يدينون بسطوة الريح والأنهار . والنجوم والأشجار . والشمس والبحار . والعواصف والصواعق . والسحاب والليل والربيع . (بعبدة الطبيعة) .

على أن أشياع عبادة الأرواح يعتقدون ان عبادة المظاهر الطبيعية نشأت من دين الأرواح بزعمهم ان جميع مظاهر الطبيعة تسير بأوامر الأرواح ولأن البشر كان لا يدرك ويفرّق بين المتحرك والجماد من وجهة الروح . ولذلك ينسب الوحشيون الامراض والصحة . والعجز والنشاط . إلى الروح البشرية . والعاصفة والصاعقة . والمطر والخير والشر والخصب الى سائر الأرواح .

وقد ذهب بعض العلماء في القرن الثاني عشر إلى أن دين الطبيعة أي عبادة البشر للمظاهر الطبيعية التي ألهوها من دون خالقها الحقيقي هو الدين الابتدائى الأول للجنس البشري .

ومن اكبر دعاة هذه النظرية هو [ماكس مولر] ويؤيد نظريته بقوله : «١»

« ان مظاهر الطبيعة هي أول داع لانتباه البشر الأول وانبهاره عند ما نظر إلى الكون فلقد اندهش بها ومن شدة نفوذها وتأثيرها نبهت فيه فكرة الدين . وتدينه بدين الطبيعة ولم يعتبر البشر هذه المظاهر من الأمور المعتادة إلا بعد زمن طويل أي بعد

«١» عن محاضرات طه الهاشمي في تاريخ الأديان .

ما اتسعت مداركه ورأى تعاقب هذه المظاهر وعلم انها تحدث في أوقات معلومة يمكن الوصول إلى معرفتها قبل حدوثهـا .

رأى البشر القمر يبزغ هلالاً فيكبر حتى يكون بدراً ثم يصغر حتى يعود كالعرجون «١» القديم . شاهد هذه المظاهر تتعـاقب كل شهر فعلم انها من الأمور المعتادة واعتقد بانها تستمر على هذا النمط ولا تتغير . إلا أنه لم يتوصل إلى هذا الاعتقاد إلا بعد زمن طويل . وما كانت الجماعات الأولى لتدين بدين الطبيعة لولا أنها رأت الكون عبارة عن مجموع خوارق جهلت اسباب حدوثها فاحترمتها وتهيبتهـا ومن ثم اتخذتها آلهة لها .

ويعتقد [مولر] بأن عبادة الأرواح نشأت من دين الطبيعة .

وان من آلهة البابليين للمظاهر الطبيعية هي :

(١) أنو ! أي رب السماء .

(٢) بعل او مردوخ : أي خالق الأرض والانسان .

(٣) هيـا : رب الماء الذي تحت الأرض .

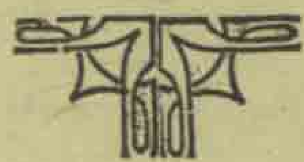
وهذه الآلهة الثلاثة تكوّن الثالوث الأول وكان عندهم ايضاً الثـالوث الثاني مركباً من الآله (سين) والآله (الشمس) والآله (ربّمين أو ريّمين) . أي إله الرعد والبرق .

وكانت من أعظم آلهتهم (العشتار) التي أرادوا بهـا فصل

العرجون . ويقال له ايضاً العرُجد أو العرُجدّ هو أصل العذق الذي يعوجّ ويبقى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ ويجمع على عراجين .

الربيع أو الطبيعة الهيولية . واللاتو ملكة الهـاوية او الموت و (ما مناتو) وهي آلهة القضاء والقدر .

هـذه خلاصة وزبدة تهيب البشر للمظاهر الطبيعية ومخاوفهم منها حتى أدّت بهم إلى التأله والعبادة لها .



الدرس السادس

تسيطر الخرافات والاوهام على عقول البشر :

ان لفكرة « التشاؤم والتفاؤل » اكبر الأثر لتسيطر الخرافات والأوهام على عقول الآدميين الهمجيين في العصور الغابرة والحاضرة . بل هي الأصل الذي تفرعت منه ويقول الأستاذ (نقولا حداد) صاحب كتاب روح الاجتماع :

« لما نشأت قوى التعليل والاستدلال والاستنتاج عند الانسان الأول ، صار يود أن يفهم اسباب ظواهر الطبيعة التي حوله ، مما يدهشه ويعجبه ويحاول أن يجد لكل علة سبباً . وكلما طرأت فكرة قويت فيه قوة التعليل . فكان يعلل الأمور حسبما يتراءى له ، وكان يضل فى تعليله عن كثير من الحقائق لجهله دخائل الاشياء التى لم يتغلغل اليها حسه . ولم يجمع بعد من الاختبارات ما يكفي لاستخراج الحقائق . ولذلك يجمع من مختلف تعليلاته الفاسدة مجموعة من الاوهام والخرافات التي كانت مقدمة لعقائده الدينية .

هذه العوامل والأسباب هي التي أوجدت في الانسان من القبائل الهمجية القديمة والمعاصرة بواعث الأوهام والخرافات وتسيطرها على العقل البشري وان تغمر روحه ومشاعره لهذا لا يوجد لدى الجهلاء واهل العماية ممن حرموا من نور المعرفة والعلم عقيدة دينية صحيحة خالصة من شائبة الأوهام ودرن الخرافات وان من القبائل المتوحشة التي درس أحوالها بعض العلماء لتجردها

من العقائد الدينية والتي استولت على ذهنيتها وعقولها الخرافات والأوهام هي :

بعض قبائل الاسكيمو . وبعض قبائل كندا . وقبائل كاليفورنيا . وبعض قبائل البرازيل . وقبائل بارجواي . وبعض قبائل بولينيزيا . وجزيرة دامور . وجزر بيلو . وجزر آرو . وبعض قبائل هندستان وتسمانيا . وبعض قبائل شرقي افريقيا . وكل هذه القبائل تتصور في مخيلتها وجود قوات منظورة مثال ذلك :

ان لبعض قبائل اوستراليا تصوراً غامضاً لوجود ارواح شريرة . وهم يتخوفون من السحر في الليل ولا تأثير له في نفوسهم في النهار . وهم ينفرون من موقد المحلة أو من النوم فى قرب المقبرة وليس عندهم أقل تصور بشأن الخلق والخالق ولا صلاة عندهم حتى ولا تعزيم مما يقصد به طرد الأرواح الشريرة .

هذا ولم ينج من البشر من هذه السيطرة التي قد تعد المرحلة الأولى أو المقدمة الأولى لتطور العقائد البشرية واعتراكها منذ فجر التاريخ حتى عصر التوحيد . وكان نشوء هذه السيطرة على أذهان القبائل العربية في الدور الجاهلي من فكرة (الطيرة) ايضاً أي من فكرة التشاؤم والتفاؤل والعرافة عند العرب طور من اطوار أوهامهم وانها كانت جزءاً جوهرياً لحياتهم اليومية حتى لنرى العربي إذا أراد السفر يتفأل من (السانح والبارح) وهذه الفكرة سائدة لدى الأعراب الى يومنا هذا وقد حكى :

« ان الاسكندر المكدوني (١) تملك بعض البلاد فدخل هيكلا فوجد فيه امرأة تنسج ثوباً فقالت أيها الملك اعطيت ملكا ذا طول وعرض ، ثم دخل عليها والي بلدها ، فقالت : له ان الاسكندر سيعزلك فغضب فقالت : لا تغضب ان النفوس تعلم اموراً بعلامات ، وان الاسكندر لما دخل كنت ادير طول الثوب وعرضه وانت لما دخلت فرغت منه واردت قطعه » .

وهكذا تطورت العرافة عند العرب فاتصلت بعبادة الاصنام واصبح الكهان من الأطباء كما قال عروة :

فقلت لعرّاف اليمامة داونى * فانك إن داويتني لطبيب

أما الفيلسوف الاجتماعي جوستاف لوبون فقد قال :

« خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الأوهام فاقامت لموجديها اكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الأرض إلا وكانت تلك الملوك الهائلة في طليعة جيوشها وأريد بالجيوش الأوهام وهي التي شيدت هياكل الكلدان ومصر . وهي التي قلبت القارة الاوروبية من الرأس إلى القدم . » ثم قال :

« نعم هي خيالات باطلة وهي من بنات الأحلام ولكنها هي التي ساقت الأمم إلى ايجاد ما في الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل » .

(١) عن كتاب الأساطير العربية قبل الاسلام ومؤلفه اقتبس هذه الحكاية من « كتاب مدنية العرب » لمحمد رشدي .

وقال (دانيال روزيار) : —

« لو ابيد ما في دور العاديات أو ما في المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والآثار الفخمة التي ابدعتها الفنون والأديان ما بقي في العالم شيء مما ولدته الأحلام . »

ونقتصر في هذا الدرس على ما قدمنا لأن هذا الموضوع قد يستغرق عدة كراسات مما لا تحتاجه دراستنا الآن .

الدرس السابع

تعدد الآلهة :

ان تعدد الآلهة نشأ من اعتراك المعتقدات البشرية وتطورها كما مر علينا في الصحف المتقدمة وعلمنا أيضاً ان اجناس الناس أصبحوا مختلفين فى دياناتهم كما اختلفوا في لغاتهم وقومياتهم على كرّ العصور والدهور فمن عبادة الحيوانات والجمادات إلى عبادة المظاهر الطبيعية إلى الوثنية والأصنام ومن ثم إلى الشرك ومنه إلى التوحيد . فهذه الأدوار التي اجتازتها البشرية بين نضال واعتراك فى الاعتقادات والأوهام والخرافات وهذا الاعتراك أولد تعدد (الآلهة) وان ألوفاً من السنين انقضت قبل أن تلاشت الألوهية المتعددة وتفوقت الوحدانية ، ومع ذلك لم تزل الوحدانية متنوعة أيضاً فهي في لاهوت موسى أقل روحانية واميل إلى المادية إذ كان يسميها موسى بربّ (الجنود) وينسب اليها بعض أخلاق البشر . وهي فى لاهوت النصرانية اكثر روحانية ولكن يشوبها شيء من شائبة التعدد أي (الثالوث) كما أن المسيحية لم ترفع تصور الآله عما كان عليه اليهود بل نقلت العبادة من التقديس الصنم إلى عبادة الرجل فكان عصر المسيح عصراً صار فيه الرجل إلهاً عند النصارى كما حكى عنه الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) ثم اختلف اليهود والنصارى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح

ابن الله » وقد تعددت الآلهة عند البابليين والكلدانيين والمصريين . واليونان والفرس والقبائل العربية في الجاهلية والهنود والأقوام الأخرى بدرجة لا تحصى ولا تعد . وقد اختلفت وتباينت وظائف تلك الآلهة في كل عصر ومصر . مثال ذلك ان أهل بابل كانوا يعتقدون ان آلهتهم ارتقت «١» من الصفات الأرضية إلى الصفات السماوية فاصبح مقر (مردوخ) فى المشتري و (نرجال) فى المريخ و (عشتار) في الزهرة و (نبيو) فى عطارد .

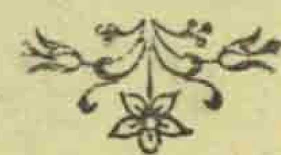
وهكذا كانت آلهة سوريا : ساهور والشمس و (حداد) إله الرعد والبرق وقرينته (أتار جيش) ومن تعدد الآلهة في اليمن عبادتهم للنجوم وكانوا يفضلون عبادة القمر على آلهة الشمس كالكلدان . وان معظم أصنام اليمنيين هي : (استار) و (وود) (والشمس) وآلهة حضرموت هي : (أستار) و (أنومآبي) (والشمس) وآلهة سبأ هي : (أستار) و (هوباس) (والماكرهو) .

أما الهنود فكانوا لا يعبدون إلا آلهة إناثاً ولكن المصريين قد ألهوا عدة آلهة على اختلاف ادوار حياتهم منها : تقديس الحيوانات (الطوطم) وتأليه فرعون حياً وميتاً والشمس ومن تعدد الآلهة عند بني الانسان عبادة جثث الأسلاف وارواحهم ومنها : أرواح الملوك والزعماء والأبطال . والبراهمة يعتقدون

«١» عن كتاب الأساطير العربية قبل الاسلام .

أن أهم آلهتهم (فيشنوا) و (سيفا) ومن الأمم الأوربية التي عكفت على تعدد الآلهة سكان بريطانيا السفلى فهم يعبدون شتى الأصنام . وكالأسبانيين فهم يعبدون آلهة من المخلوقات . وكالطليان الذين يؤلهون تماثيل العذراء ومن الأمم من اتخذت آلهة للزراعة وآلهة للصناعة ومعبودات أخرى مختلفة .

هذا وان جميع الآلهة التي ألهها الشعوب كانت محلية قومية أي لكل شعب آلهة ولكل مقاطعة وقرية إلهها . وسترى في الدرس الآتي كيف تدرجت إلى فكرة التوحيد وانتهت الى الاعتراف بالواحد الصمد الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم .



الدرس الثامن

تدرج عقيدة التوحيد :

ان المراد من تدرّج عقيدة التوحيد هو عبارة عن التسلسل الذي توصلت به الأنواع البشرية إلى معرفة هذه العقيدة السامية وكيف اتحدت مبادئ الأديان في هذه (النقطة) وكلها قدست هذه العقيدة واجمعت على أن روح كافة الأديان ووجهتها (التوحيد) بعد أن رزحت البشرية تحت كابوس المعتقدات المختلفة كما مر علينا في الدروس الماضية والتي لا تليق بكمال الجنس البشري الذي امتاز بجوهر العقل وفضيلته . وبه وحده عرف الشقي من السعيد في هذه الحياة .

وقد ذهب (اوغست كرنت) «١» الحكيم الفرنسي المتوفى سنة ١٨٥٧ في فلسفته الحسية من ان الدستور الذي يسير بمقتضاه التاريخ البشري هو تدرّج الانسانية في دورين استعداد بين سابقين توطئة للدخول في الدور النهائي الثالث . فالدور الأول عنده هو الدور (اللاهوتي) يوم كان العقل البشري يفسر الاسباب ومسبباتها بتدخل مباشر من الآلهة بطريق الخلق والعناية وقد كان الانسان في هذا الدور خرافياً ذا عقلية صبيانية ومنهمكا في عبادة الأبطال . أما الدور الثاني فهو دور البحث في ما وراء الطبيعة

«١» عن كتاب القضايا الاجتماعية الكبرى للدكتور عبد الرحمن شهبندر .

أي الانسان لما لم يعد موقناً بأن الخوارق هي سبب الحوادث المحيطة به فأخذ يفسر الدنيا بالقواعد والنظريات المجردة فأضاع نفسه في تيه من نظر عقيم . ولا ينكر ان العقل تحرر في هذا الدور من عبودية الخوارق الا انه اضاع قواه في السؤال عما هو مجهول ومحجوب في جوهره . وأما الدور الثالث فهو الدور الحسي أو العلمي يوم زالت النظريات فحلت محلها الملاحظة والتجربة والاستقراء والقواعد الكلية الشاملة . وقد وجد الانسان ان عالم الحقيقة التي يمكن الوصول اليها هو عالم متسع إلى درجة تكفي لاشغال جميع أوقاتهم واستنزاف جميع قواهم . وباتخاذهم الحقائق أساساً مكيناً للبناء اتيح لهم ان يعرفوا من الطبيعة أسراراً مكنتهم من التغلب على الأحوال المادية وعلى شطر كبير من الأحوال المعنوية للحياة الانسانية فسار العالم في سبيل التقدم والارتقاء .

وعلى هذه القاعدة التي قررها الفيلسوف (اوغست كونت) كانت قد تسلسلت أو تطورت المعتقدات البشرية حتى تمخضت « بعقيدة التوحيد » ومن تلك الديانات التي تمخضت بفكرة التوحيد في قديم الأزمان الديانة [البراهمية] في الهند ومن الانقلاب الذي أحدثته المدرسة [اليوجية] «١» الفلسفية هو الاعتقاد [بإله واحد] وكان اليوجيون يؤمنون بوجود إله واحد أزلي أبدي منزه عن الاستعانة بغيره وعن كل ما يوجب نقصه في زعمهم .

«١» صحيفة ١٦٥ من كتاب الفلسفة الشرقية .

وقد سجل ابو الريحان البيروني هذا في كتابه فأكد ان فكرة الألوهية عندهم كانت سامية جليلة وانهم كانوا يعبدون إلهاً متصفاً بكل كمال . منزهاً عن كل نقص . وكذلك أحدثت [مدرسة القيدانتا] «١» وقد أنشأ هذه المدرسة في القرن الخامس بعد المسيح رجل يدعى [بادارا بانا] انقلاباً عظيما وصدعت بفكرة « وحدة الوجود » بالمعنى الكامل إذ قررت انه لا يعترف لاي كائن بالوجود إلا إذا نظر فيه الى ناحية (الاتمان) أما إذا اغضى عن هذا الاعتبار في الكائن حكم بعدم حقيقته . والاتمان بتعريفهم هو موجد الوجود [وهو الله] تعالى :

وهكذا كانت مدرسة [سانكرا] «٢» ومذهب هذا الفيلسوف العظيم يرى أن العالم صدر عن الله بطريق الانبثاق وهو يعود اليه بطريق الجذب وقررت مدرسة [سانكرا] ان هذا العالم الظاهر ليس هو حقيقة الآله .

وقد سارت الديانة (الزرادشتية) الفارسية على هذه القاعدة بكتابها المقدس [زند أفيستا] ويرجع تاريخه الى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح ومن الانقلاب الزرادشتي «٣» الذي لم يعرف التاريخ مثله قبل [زرادشت] بل ولم يسبق في تاريخ الديانات القديمة هو اعلانه في جرأة واقدام بأن [أهوارامازدا] ليس إلهاً فارسياً وانما هو آله الكون كله وانه هو النبي الذي تلقى

«١» صحيفة ١٧٥ «٢» صحيفة ١٧٦ «٣» صحيفة ١٨٧ من كتاب الفلسفة الشرقية .

الوحي من هذا الآله العالمي الذي ليس له شريك وان [أهرمان] أي الشيطان سيقدم جنده وانصاره بانعدام الرذيلة من فوق الارض .

وهكذا نجد الصينيين ان كلمة (تاو) «١» عندهم هي الطريق المستقيم أو الغاية المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب تدل ايضاً على نصيب الانسان الممنوح له من السماء .

وعند الصينيين ان الانسان خيرٌ بفطرته لأنه جزء من الطبيعة والطبيعة هي الآله عندهم .

تنبيه :

القصد من الطبيعة هو [الله] لا عبادة المظاهر الطبيعية .

ومن الفلاسفة العبقريين العظام والذي هدى اتباعه وتلاميذه الى فكرة التوحيد هو الفيلسوف الخالد « كونفيشيوس » اذ توصل بفلسفته النظرية الى هذه المعرفة ومن مذهبه [ان جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذي هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود وان هذا الانسجام محكم الوضع في جزئيات الطبيعة الى حد انه يظهر « ديناميكيا » أي العلة في تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية .

وقد عد [كونفيسيوس] أن البحث عن سر هذا الانسجام فوق طاقة العقل البشري .

هذا وقد توصلت الفلسفة اليونانية المتمثلة بشخصية سقراط وأفلاطون ؛ وارسطو ؛ وهؤلاء أساطين الفلسفة الغربية القديمة

«١» عن كتاب الفلسفة الشرقية .

الى تقرير فكرة « وحدة الوجود » أي ان الله واحد لا شريك له في السماء والأرض - وهو علة العلل في جميع الكائنات وقد شاركه بذلك ايضاً كل من الفيلسوفين الكبيرين « إكترنيوفات » و « اناجتراجور » وقد اطلق على افلاطون إسم « افلاطون الآلهي » إلا ان جميعهم ارتقوا بفلسفتهم الى اكتشاف وجود قانون عاقل هو مصدر هذه الحركات وهذا القانون هو إله واحد يصرف الكون وحده بلا شريك . ولم تكن الفلسفة المصرية القديمة اقل اشراقاً من الفلسفات الشرقية فى قلب الديانات الخرافية الى ديانة التوحيد فان (اخناتون) «١» الفرعون المصرى قد نادى بالتوحيد فى وسط معمعات الوثنية وتعدد الآلهة الطاحنين .

وقد ظهر الأنبياء «٢» وهم يعتقدون فى الآله الواحد القهار فكانوا يميزون الخالق عن الكائنات ؛ فلم يكن الآله عندهم من بين مظاهر الطبيعة بل كان العلة الأولى لتلك المظاهر ثم ورث العبرانيون عقيدة الآله الواحد من آبائهم الأولين . ولم يتدرجوا من عبادة الموجودات الى فكرة التوحيد . ويعتقد العبرانيون أن الانسان لم يصل الى معرفة الآله بشق الأنفس . بل الآله أظهر نفسه وعرف ذاته ؛ وكلم اتقى عباده وهداهم الى سواء السبيل . فظهر الله لموسى عند الشجرات وعلى الجبال وللأنبياء الآخرين في الالهام والوحي ،

«١» عن كتاب الفلسفة الشرقية .

«٢» عن كتاب الأساطير العربية قبل الاسلام .

أما عرب الجاهلية فلم يتأثروا بالفلسفة واليهودية والنصرانية ولم يتقبلوا تعاليمها وان اعتناقهم عقيدة (التوحيد) لم تكن بتأثير احتكاكهم باليهود والنصارى لأن بني إسماعيل قد وحدوا الله مع أبيهم اسماعيل و جدهم ابراهيم الخليل أما تدرج فكرة التوحيد عند العرب فقد بحث عنها صاحب كتاب الأساطير العربية قبل الاسلام الدكتور المحقق محمد عبد المعيد خان بحثاً مسهباً أجاد فيه كل الاجادة نقتطف منه الشذرات الآتية :

يذكر الرواة ان عمرو بن مضاض كان يعظ الناس ويمنعهم عن الظلم والمعصية فى البلد الحرام ويذكرهم بعذاب الأمم التي اهلكها الله تعالى ثم نجد بني عدنان يعبدون احجار الكعبة و اشجارها . ثم نرى عمرو بن لحى قد نصب الأصنام حول الكعبة وظل الناس في عبادة الأوثان مدة طويلة . وسموا عبد هبل و عبد العزي . وزيد اللات . فلما اتصلوا باليهود والنصارى اعتقدوا في الله كاعتقادهم فكان لكل قبيلة عربية صنم يعبدونه ويحلفون به وهو ربهم المخصوص كرب قريش ورب ربيعة ورب الشعرى • واللات والعزى •

وكذلك لم يفهم العربي الجاهلي المادي حتى قبل الاسلام معنى الوحى بل حسبه مساً من الجن كما قالوا للنبي « ص » (وان كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نسب أقوال الوحي الى رجل يقال له الرحمن • فلم يخطر ببال العربى ان هناك الهاً معنوياً

غير الصنم المادي .

والحقيقة أن العرب الجاهلية لم يعرفوا معنى التوحيد من أساسه . لذلك لما بعث الله نبيه واتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا يشركون به شيئاً قالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب) فهم لم يفهموا التوحيد إلا أنه جعل الآلهة الهاً واحداً . وبظهور الرسول « ص » علمهم معنى التوحيد واسلوب تفهم صفاته وارشدهم الى انهم كانوا ضالين في تعدد الآلهة . بقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) .

وأصبح إله الاسلام رب العالمين وليس رب قريش فقط وهو خالق السماء والأرض وما فيهما ولم يغير وحدانيته تفلسف الفلاسفة كما تغيرت غيره من الشرائع بفلسفة الحلول والتقمص والتثليت وهو (ليس كمثله شيء) وهو حي قيوم (لا تأخذه سنة ولا نوم) وإله الاسلام (أحد صمد لم يلد و لم يولد) وهو الآله الذي لا يشفع عنده (الا باذنه) .

ولله در القائل :

تجلت لوحدانية الحق أنوار * فدلت على أن الجحود هو العار

وقول الشاعر :

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وقد تأثرت الفلسفة العربية بعد الاسلام بعقيدة التوحيد الجليلة السامية وتكاد ترتقي برجالها من علماء المسلمين الى صفوف الأنبياء واسمع الى هذا الغناء الروحاني السماوي الذي ينشد به

الفيلسوف العربي ابن العربي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي * اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة * فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف * وألواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اني توجهت * ركائبه فالحب ديني وايماني

كان ابن العربي من القائلين بوحدة الأديان ويرى جميع المتدينين يعبدون الآله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات .

ثم اسمعوا ما قاله ابن الفارض (رض) فى تائيته الكبرى :

وان نار بالقرآن محراب مسجد * فما بار بالانجيل هيكل بيعة
وان عبد النار المجوس وما انطفت * كما جاء فى الأخبار في الف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم * سواي وان لم يظهروا عقد نية
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى * وان لم تكن افعالهم بالسديدة

وبعد فقد نختم درسنا هذا بسورة التوحيد (قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد .)

ملاحظة :

ان مادة هذا الدرس وان كانت اكثر من القدر المطلوب إلا ان استبقاء موضوعه لا يتم إلا بهذه الصورة وقد اوجبته الضرورة والحرص على تغذية الطلاب بهذه الثمرات العلمية مع اننا يشهد الله لم نفسح للقلم المجال في الجموح والاسترسال لهذا نلتمس العذر ان خرجنا بهذا الاستقصاء عن حدود الاعتدال المرغوب .

الدرس التاسع

التوحيد وقضاؤه على الاوهام

المسيطرة على العقلية البشرية :

والآن نذكر فضيلة عقيدة التوحيد وكيف قضت على الأوهام التي سيطرت على الذهنية البشرية مدة قرون طويلة ولأجل أن تعرفوا أهمية هذا الدرس (نلفت نظركم الى ما جاء فى الدرس السادس) من هذا الكتاب لأننا بحثنا لكم فيه كيف كانت العقلية الانسانية فى غشاوة من الأوهام والخرافات المتغلبة عليها . كما ان فهم مجموع ما تقدم من الدروس يساعد كثيراً على معرفة هذا الموضوع الذي ندرسه الآن .

لقد حرم النوع الانساني في عصوره الجاهلية من نور التوحيد وظل يخبط خبط عشواء في تعبده وتدينه وحائراً في اتجاهاته الفكرية وحياته الاجتماعية فمن سيطرة الأساطير الوهمية والخرافية الى عبادة المظاهر الطبيعية ومن هذه الى عبادة الأرواح والأبطال او بالعكس ومنها الى عبادة الحيوانات ومن ثم الى اتخاذ الأرباب من الأصنام والجمادات والانغماس في لوثة الوثنية والشرك في تعدد الآلهة حتى اهتدى الى معبوده الحقيقي وهو (الآله الواحد) واعتناق عقيدة التوحيد التي سببت له الانعتاق من ربقة العبودية المتنوعة الأشكال والألوان . وحررته من التقاليد البالية السخيفة ومن سلطان الأساطير الخرافية التى ما انزل الله بها من سلطان .

وقد اخذ العربي الجاهلي وغيره من الأجناس البشرية يشعر بان ميزات التوحيد ان تندمج آلهة القبائل والأقاليم في رب الأرباب وإله العالمين أجمعين . ومن ميزاته ان عقلية الأمة لا تقبل الشركاء في تدبير الكائنات مع الله إذ (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) بعد ان كان الناس يجعلون لله شريكا وانداداً فاذا جلسوا ليقتسموا انعامهم واسلاب حروبهم قسموه بين الله وبين [عم أنس وعميانس] «١» وما دخل في حق الصنم من حق الله تركوه له وهذا يخالف ميزات التوحيد . وبعد ان كانوا يحلفون برب الشمس والقمر وبرب النور والظلام وكان من ايمانهم :

(لا ومجرى «٢» الرياح ، لا ومميت الرياح ، لا ومنشيء السحاب ، لا والذي اخرج الماء من الحجر والنار من الشجر) واشباه ذلك كقولهم :

(وما يهلكنا إلا الدهر) ولا يريدون بها وجه الله وقد أصبحت جميع تلك المعاني لدى الموحدين معدومة الأثر في نفوسهم ولا يقصدون إلا الله وحده لا شريك له هو يحي ويميت وهو على كل شيء قدير .

كما قد أصبح ايمان الموحد يتمثل في الكلمة العليا (لا إله إلا الله) ولله در الجارم إذ يقول :

من يجعل الايمان صخرة ملكه * رفع البناء على أشم وطيد

«١» اسم صنم «٢» عن كتاب الأساطير العربية .

وقال الاستاذ (ديلي (١)) :

(ان ما اشتهر به الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخياً على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتباره فلسفة قد استحدث لنفسه نظرية كونية عالمية غرضها بيان وحدة جميع الأشياء في إله واحد . هو خلق الكائنات وادار أمورها وزرع فيها الحياة وأرشدها لبلوغ غاية معينة) .

وان آخر رسالة عظمى جاءت لتدعيم فكرة التوحيد وللقضاء على الأوهام والأساطير الخرافية هي الرسالة (المحمدية) المنيفة والتي كانت رحمة للعالمين . لانها حررت الانسانية من درن الوثنية وشفتها من أمراضها النفسية وعللها الفكرية وأخذت بها من وهدة الانحطاط الى اسمى منازل السعادة والخير المطلق وقد كان لكلمة التوحيد وهي (لا إله الا الله) أعظم الاثر في تطهير النفوس البشرية وتحرير العقول الانسانية ومن ذلك :

اولا — ان كلمة « لا إله الا الله » لا تعترف بسواها من تعدد الآلهة التي اخترعتها الأوهام والخرافات وبهذه العقيدة تطهرت النفوس واستقلت الافكار .

ثانياً — ان معتنق هذه الكلمة العليا المقدسة وهي كلمة التوحيد لا يعرف رباً غير (الله) لهذا ان المؤمن بها يجب أن يكون حراً طليقاً من جميع الاغلال والاصفاد المادية والمعنوية كما يجب عليه

(١) عن كتاب القضايا الاجتماعية الكبرى للدكتور الشهبندر .

أن يقدس حرية غيره من الناس .

ثالثاً — أن المؤمن بهذه الكلمة الجليلة يجب ان يستند على التفكير الحر والعقل الفلسفي في تحقيقاته الاعتقادية والعلمية والنظر في الكائنات الاخرى لا على التقليد والمحاكات وقد ذمت شريعة (التوحيد) الجمود على التقليد الأعمى الذميم . لأن مبدأ التوحيد لا يعترف الا (بالعلم والحكمة) ولا يحترم الا العقلاء المفكرين الاحرار .

(وفي أنفسكم أفلا تتفكرون) .

ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا :الآية)

رابعاً — ان المؤمن بهذه الكلمة القدسية يأبى الذل والهوان ويكره الخنوع والعبودية لغير خالقه (اياك نعبد واياك نستعين) وقد صدق الجارم :

ما أسمح الاسلام ! يجمع رحبه في الله بين مسوّد ومسود

خامساً — أن المعتقد بهذه الكلمة الشريفة نجده دائماً ثائراً على الباطل والفساد غاضباً لما لا يقره مبدأ التوحيد مهما كانت زعامة الباطل قوية وحزب المفسدين مستبداً . [كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر] .

سادساً — ان المعتقد بهذه الكلمة يجب ان يكون معتمداً على الله وحده ثم على نفسه وألا يتكل في أموره وشؤونه فى الحياة على غيره وعالة على المجتمع وان يجعل العمل الصالح عنوان مجده وفخاره وان يهجر الهجر من التغني بالعظم الرميم (والعصر ان الانسان لفي

خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

وبها نختم القسم الاول من كتابنا ويليه الثاني ؟

القسم الثانى

الواجبات

الاخلاقية والوطنية







احتفظ بهذه الورقة

كتاب الدروس الدينية

و

الواجبات الاخلاقية والوطنية

كل من اشترى هذا القسم ودفع قيمة الكتاب مقدماً يحق له عند ابراز هذه الورقة ان يستلم القسم الثاني مع الغلاف الدائمي :

القسم الأول توقيع البائع

ملاحظة على من اشترى هذا القسم ان يحصل على توقيع الكتبي على هذه الورقة .



